

لجنة رقة

العدد «١٥٤» كانون الأول ١٩٧٤

عدد خاص

- أبو الفداء : د. عبد الرحمن حميدة
عبرة من عصر أبي الفداء : د. قسطنطين زريق
منهج أبي الفداء في البحث : د. حسن الساعاتي
المؤرخ أبو الفداء ونزعتة العلميّة : د. كامل عياد
أبو الفداء وتعليل التاريخ : د. عمر فروخ
الآفاق الجغرافيّة عند أبي الفداء : د. مصطفى الحاج إبراهيم
مذكرات أبي الفداء : د. نقولا زيادة
حياة أبي الفداء : د. إحسان العظم
شخصيّة أبي الفداء : وليد قنباز



مجلة ثقافية شهرية

تصدرها

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

العدد - ١٥٤

كانون
ديسمبر
الاول

١٩٧٤

رئيس التحرير : صفوان قسي
المشرف الفني : نعيم اسماعيل

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

• المراسلات باسم رئاسة التحرير

جادة الروضة - دمشق - الجمهورية العربية السورية

• الاشتراك السنوي :

- في الجمهورية العربية السورية : ١٢ ليرة سورية .

- خارج الجمهورية العربية السورية : ما يعادل ١٢ ليرة سورية مضافاً إليها أجر

البريد (العادي أو الجوي) حسب رغبة المشترك

• الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً الى :

محاسب مجلة المعرفة - جادة الروضة - دمشق

• يتلقى المشترك كل سنة كتاباً هدية من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي .

• ثمن العدد :

١٥ قرشاً مصرياً	١٠٠ قرش سوري
١٥ قرشاً سودانياً	١٠٠ قرش لبناني
١٥ قرشاً ليبيا	١٢٥ فلس أردني
ريالان سعوديان	١٢٥ فلس عراقي
٣٥٥ دينار جزائري	٢٠٠ فلس كويتي
درهمان مغربيان	٢٥٥ روبية
درهمان تونسيان	٣٥٥ شلن

الفهرس

الصفحة	الكاتب	الموضوع
٥	رئيس التحرير	هذا العدد
٧	د. عبدالرحمن حميدة	ابو الفداء
٢٤	د. قسطنطين زريق	عبرة عن عصر ابي الفداء
٤٢	د. سهيل زكار	ابو الفداء : البيثة - الامير-الملك-المؤرخ
٥٦	د. حسن الساعاتي	منهج ابي الفداء في البحث
٧٥	د. كامل عباد	المؤرخ ابو الفداء ونزعتة العلمية
٩٦	د. عمر فروخ	ابو الفداء وتعليل التاريخ
		الآفاق الجغرافية عند ابي الفداء في
١٣٠	مصطفى الحاج ابراهيم	كتابه « تقويم البلدان »
١٥١	د. فقولا زيادة	مذكرات ابي الفداء
١٦١	احسان العظم	جهاد في عصر ابي الفداء
		شخصية ابي الفداء في شعر ابن نباته
١٨٦	وليد قمبراز	وصفي الدين الحلبي

1. The first part of the document

is a list of names

of the members of the

committee

and their respective

positions

are as follows

Chairman

John Doe

Secretary

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

هذا العدد

كان من المقدر لهذا العدد من « المعرفة » أن يحتوي على ملف خاص بأبي الفداء بمناسبة مرور سبعائة سنة على وفاته ، وكان في تقديري ان هذا الملف يمكن ان يسهم في تقديم ابي الفداء للقارئ من وجهة نظر تاريخية ونقدية في آن معاً .

غير ان فرصة اتاحها لي المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مكنتني من قراءة جميع الابحاث والدراسات التي سوف تلقى في المهرجان الذي تعده وزارة التعليم العالي باشراف المجلس الاعلى احتفالاً بهذه المناسبة .

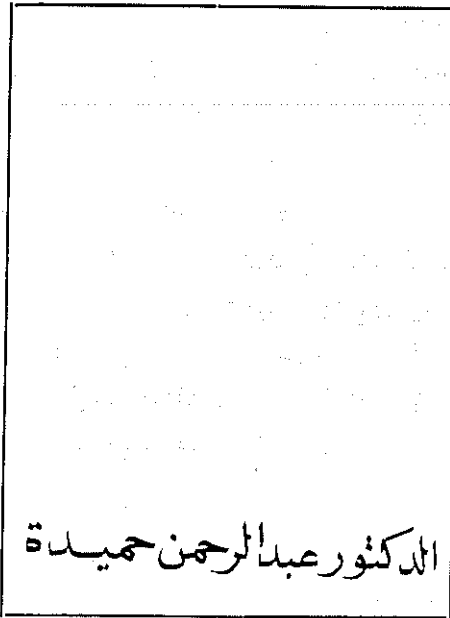
و حين فرغت من قراءة هذه المجموعة القيمة من الابحاث والدراسات ، ادركت ان الامر يستحق اكثر من ملف ، وانه يمكن ان يخصص عدد بكامله لنشر الجزء الاعظم مما سوف يقال في المهرجان .

وقد صادف تقديري هذا ، تقدير بمائل أبداه المسؤولون في وزارة التعليم العالي وفي المجلس الاعلى ، وأظهروا حماسة منقطعة النظير لانجاز فكرة تخصيص عدد من المعرفة لهذه المناسبة ، فكان هذا العدد الذي نعتقد انه يضم من الابحاث والدراسات مايقدم صورة وافية عن المؤرخ والجغرافي العربي ابي الفداء صاحب حماة .

غير انني احب ان اسجل الملاحظة الآتية ، وهي ان الغالبية العظمى من هذه الابحاث والدراسات لم تمض بعيداً في محاولتها تقديم ابي الفداء من وجهة نظر تاريخية ونقدية في آن معاً ، وانما غلب عليها الاهتمام بتقديم ابي الفداء من وجهة نظر تاريخية فحسب . واذكر انني التقيت بالدكتور سهيل زكار ، وهو احد المشاركين في هذا العدد ، وسمعت منه في حوار اجرته معه في برنامج « الندوة الثقافية » من اذاعة دمشق ، اننا قرأنا ابا الفداء تحت تأثير الاهتمام الذي لقيه في اوربا في القرنين السالطين ، وهو اهتمام كان منشؤه ان ابا الفداء كان من الايوبيين ، وكان في الوقت نفسه ملكاً ومثقفاً ، وكانت ظاهرة الملوك والامراء المثقفين منتشرة في اوربا في ذلك العصر . وكان من رأيه ان مايقال عن منهج ابي الفداء في تحليل التاريخ ونزعته العلمية في التأريخ ، فيه قدر كبير من المبالغة ، وان في كتابه الذائع الصيت « المختصر في اخبار البشر » الكثير من العيوب التي لا تحفى على النظرة الفاحصة المدققة . وقد يكون العذر في غياب هذه النظرة النقدية غياباً جزئياً ، هو ان المناسبة احتفال بذكرى ابي الفداء ، والاحتفال له صفة التكريم ، وهذا التكريم يعني الكتاب والمؤرخين من مهمة النقد التي لا بد وان تنقص من قدر من اقيم الاحتفال احياء لذكراه .

رئيس التحرير

أبو الفداء



الدكتور عبد الرحمن حميدة

لم يكن اسم ابي الفداء غريبا عني تماما ، فقد كنت أقرأ اسمه مرارا على ابواب
المثاقق، او على زوايا بعض الشوارع، كما كنت اعرف ان مدينة حماة تلقب بمدينة ابي الفداء،
وهذا مبلغ علمي عن هذا الرجل حتى بعد تخرجي من الجامعة السورية .

غير ان معرفتي به كجغرافي تعود ، لأول مرة ، لعام ١٩٥٥ ، حينما رأيت
اسمه منقوشا على جدار قاعة المحاضرات في الجمعية الجغرافية الفرنسية ، في باريس ،
الى جانب سترابون ، ويراكوستين ، وماركو بولو ، والبيروني ، وسواهم من اعلام الفكر
الجغرافي الذين أرسوا قواعد هذا العلم منذ أقدم الأزمان .

هذا كما لانسى ماحييت اليوم الذي تعرضت له من الأستاذ جان دييوا ، الأستاذ في السوربون ، واحد اعضاء لجنة مناقشة اطروحتي لنيل الدكتوراه ، في يوم ١٩ كانون الاول ١٩٥٩ ، بسبب اهمالي الاعتماد على بعض المؤلفات الجغرافية العربية القديمة التي تحوي على بعض معلومات قيمة كانت ستفيد كثيرا في إغناء المؤلفين الذين حصلت بها على لقب الدكتوراه .

وفي الحقيقة كانت مناهج مادة الجغرافيا في الاقطار العربية سواء في التعليم الشانوي ، أو الجامعي ، تخلو ، ولا زالت مع الأسف ، من التعرض للدراسة التفصيلية لتراثنا من المؤلفات الجغرافية باعتباره من « مخلفات الماضي » أو لأنه لا يساهم في إغناء معارف ابناء الجيل الصاعد ، لاحتوائه على بعض الاستطرادات غير المعقولة ، او بعض الاساطير المنقولة عن الامم الاخرى .

ومن أخطائنا التي يستحيل تصحيحها ، او التي لم تصحح بعد على الاقل ، هي انقسامنا الى فريقين ، لثالث لها ، عند الحديث عن تراثنا الجغرافي الضخم ، « فريقين يتنكبان نهج الصواب اللاحق ، فريق يرى فيه جماع العلوم الجغرافية الذي لم يغفل شاردة او واردة الا احصاها ، وفريق يجعل منه غرضاً للاستخفاف ، وربما للاستهزاء ، بحيث لا يرى فيه سوى اغتيال الوقت ، فيراه محشوا بالاساطير ، تندر فيه الروح العلمية ، لأنه لا يمثّل او لا يرقى لمستوى كتب الجغرافيا الحديثة ، ولاسيا الاوربية منها ، في غزارة المعلومات وفي جودة العرض .

ولعل وضع الفريق الثاني يشابه ، ولحد بعيد ، موقفنا نحن تجاه حالة جسدودنا المباشرين قبل سبعين عاما لاكثر ، أولئك الذين كانوا يمضون قرابة عشرة ايام ، كي يقطعوا المسافة بين حلب ودمشق ، على ظهور الخيل والابل او في العربات ، ويبعثون تسع ليال في الخانات او « القناقات » التي تواكب الطريق العام ، تلك المسافة التي تقطعها خلال ثلثي ساعة بالطائرة ، او حوالي اربع ساعات في السيارة .

ترى هل يستحقون ان نهمتهم بالبدائية أو الرجعية ؟

ترى ماذا سيكون وضعنا ، نحن ابناء اليوم ، امام احقادنا بعد نصف قرن من الزمن ؟ لأن نكون موضع اشفاق ، ان لم نقل موضع اہتمام ، هذا فيما اذا استمرت اسباب الحضارة الحديثة في مسيرتها العداة ، واصبح السفر الى القمر شيئا مألوفاً للجمهور ، وربما السفر الى احدي الكواكب السيارة ، كالريخ مثلا ؟

الواقع أننا ننتسب الى جيل عربي بأئس ، جيل تشرذم بين المتمسكين بالماضي ، بكل ما فيه ، من سلمييات . واجباييات ، الذين يرون في هذا الموقف افضل وسيلة للحفاظ على شخصيتنا ، والابقاء عليها سليمة ، بعد أن بهرنا بريق الحضارة الأوروبية الطاغية ، وبين الفريق الآخر الذي لا يرى حلاً لمشاكلنا التي نهانينا الا في التماس من كل الروابط التي تشدنا الى ماضيينا ، والارتقاء في خضم هذه الحضارة الوافدة التي سببت لنا صدمة تماثل صدمة المسلمين القاتلة بالنسبة للذين يعاونون الحاسامية ، دون سابق علم لهم بها .

وهنا يحق لي ان اطرح السؤال التالي: ما هي ثمرات اعجابنا بكل ما هو اجنبي؟ لقد اورثنا احتكاكنا بالحضارة الغربية نوعاً من عذاب يماثل عذاب تانتال Tantalé ملك ليديا، الذي تروي الاسطورة اليونانية عنه انه استقبل الآلهة الذين وفدوا لزيارته، فما كان منه الا ان قدم لهم اطراف ولده بيابوس كي يمتحن ألوهيتهم . فقدفسه الإله زوس في سقر وحكم عليه ان يظل ابدأ فريسة عطش وجوع رهيبين. وتمثل الاسطورة الملك تانتال في وسط نهر تنأى مياهه عن شفثيه، وتحت اشجار مشمرة، يانعة قطوفها، ترتفع اغصانها نحو الأعلى بمجرد أن يرغب في جني ثمارها . فقد عجزنا عن تمثيل لباب هذه الحضارة القاذية الوافدة ، او كما يقول الفيلسوف غاستون بوتول : من السهل على الشعوب المتخلفة استيراد ثمار الحضارة الغربية ولكنها تعجز عن استيراد بذورها ، أو قول غوتيبه : هناك شعوب تنتج الحضارة وهناك شعوب تستهلكها .

النور يأتي من الشرق :

هناك امة شرقية واحدة فقط استطاعت ، حتى الآن ، تحقيق عملية الاقلاع من مستنقع التخلف الزجاج الكريه ، فتبوأ مكان الصدارة بين الدول المتقدمة ، واقصد بها اليابان التي تعتر بماضيها وراثتها وبتقاليدها امسا اعتزاز ، ولم تأخذ من الحضارة الأوروبية سوى التقنية ، أي التكنيك، وادخلت عليها من التحسينات ما يثير الدهشة او الاستغراب بحيث فاق المقلد المقلد، وناقت أوروبا أمريكافي كل المجالات ، اللهم إلا في التحلل الخلقي والميوعة .

وهناك امة عظيمة ثانية تترسم خطى اليابان ، حذو النعل بالنعل ، وان كان ذلك

تحت شعارات مغايرة وايدولوجية تبدو ، ظاهرياً ، مخالفة ، وهي الصين ، التي ستسحب قريباً من زمرة دول العالم الثالث ، كي تحتل مكانة سامية تعمل لبوغها بعناد وجدل قل مشيلها ، ولكنها تعزف عزوفاً تاماً عن قشور الحضارة الغربية ، لابل وتزدرى كل ما تحمله الحضارة المذكورة من قيم ومثل وتقاهات .

أما نحن فقد سرنا في اقتباس العلوم الحديثسة مسيرة السلحفاة ، ولكن سرعات مأخذنا كل ماخف وزنه وقلت قيمته ونفعه ، نابذين ظهرياً كل ماضيها وتراثها وقيمها ومثالياتها النبوية ، وتهافتنا تهافت الفراشات على النور الخداع ، نعترف من لذائل هذه الحضارة المجلوبة ومتعها وتقليدها حرفياً ، مستميتين في اقتباس توافهها ، متوهمين أن هذا التقليد هو الذي سيضعنا في مصاف الامم المتقدمة ، وهل يتباهى الكثير من مثقفينا بالانتماء الى مجموعة العالم الثالث بعد أن كان العرب ، في القرون الوسطى ، رواد الحضارة والتقدمية ، حق لكأن حالتنا حالة عزيز قوم أراد لنفسه المهانة بالانتماء الى فئة المستضعفين المستخذين .

والخلاصة ظل تراثنا الفكري مجهولاً لدى غالبية جيلنا الصاعد ، وأصبح التنقيب عنه والكشف عن مكنوناته مهمة المستشرقين وبعض الهواة من الباحثين العرب المتأخرين وفي ذلك انقطاع في حلقات التسلسل الفكري الحضاري واهمال فاضح للدور الذي لعبه الرواد من الجدود الأماجد في مضار التقدم العلمي .

التعريف بأبي الفداء :

هو اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي (مات عام ٦٩٢ هـ دون أن يحكم) وجده الملك مظفر الثاني تقي الدين محمود (حكم من سنة ٦٢٦ هـ الى وفاته سنة ٦٤٢ هـ) بن الملك المنصور الأول محمد (حكم حماة سنة ٥٨٧ هـ الى وفاته سنة ٥٩٧ هـ) بن الملك المظفر الاول تقي الدين عمر (الذي حكم حماة من سنة ٥٧٤ هـ الى وفاته سنة ٥٨٧ هـ) بن شاهنشاه الذي قتل سنة ٦٤٣ هـ ، وهو شقيق صلاح الدين يوسف الايوبي المتوفى سنة ٥٨٩ هـ ، بن أيوب بن شاذي .

وقد ولد أبو الفداء بدمشق سنة ٦٨٢ هـ (١٢٧٣ م) حيث قمر ظهور التتر في المناطق الشرقية في بلاد الشام آباءه الى الالتجاء إليها . وكانت ولادته بدار الرنجبيلي التي كان ورثها أبوه عن أجداده ، واذا كانت الظروف لم تتح لوالده ان يتجربوا سدة

الحكم فقد كان يشارك في الادارة عن كسب ، وكثيراً ما كان الحكام يعتمدون على مشورته وكان لأبي الفداء اخوان هما بدر الدين حسن وأسد الدين عمر .

هذا ولا نملك الكثير من المعلومات عن طفولته ، سوى أنه لما كان في الحادية عشرة من عمره ، أي سنة ٦٨٣ هـ ، توفي الملك المنصور الثاني محمد ، عمه ، وآل الملك الى ابن عمه الملك المظفر الثالث محمود ، فأنعم السلطان قلاوون على الملك الجديد ، وعلى الملك الأفضل والده ، وعلى أولاد الأفضل ، بما قيمه أبا الفداء ، بالتشريف .

وفي العام نفسه قصد السلطان قلاوون دمشق في طريقه الى حصن المرقب لانتزاعه من أيدي الفرنجة الصليبيين ، فسار معه الملك الأفضل ورافق أبو الفداء أباه ، وكان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة ، وبعد الحصار انتصر قلاوون على فرسان الاستبارية واستولى على الحصن المذكور ، بعد أن طلبوا الأمان وحملوا ما قدروا على حمله باستثناء السلاح .

وفي سن السابعة عشرة رافق السلطان قلاوون في حصار طرابلس الى جانب والده وابن عمه الملك المظفر ، واستطاع قلاوون أن يسترد طرابلس من الفرنجة سنة ٦٨٨ هـ بعد أن تملكوها قرابة قرنين من الزمن .

وبعد عامين ، أي سنة ٦٩٠ هـ ، وهو لم يبلغ العشرين من عمره ، شارك في فتح عكا الى جانب السلطان الأشرف خليل بن قلاوون والملك المظفر ، وعمه ، وكانت رتبة أبي الفداء حينذاك أمير عشرة .

وما أن بلغ العشرين حق شارك في فتح قلعة الروم مع السلطان الأشرف سنة ٦٩١ هـ وفي سنة ٦٩٢ هـ كلفه والده بحمل بعض الهدايا للملك الأشرف الذي كان نازلاً على القصب قرب ايلة ، على البحر الأحمر .

ولما كان والده الملك الأفضل صياداً ماهراً في صيد الوحوش الكاسرة فقد استدعاه الملك الأشرف ليرافقه في صيوده ، فسافر إليه ، ولكنه اعتل في الطريق من حلب لدمشق ، فأعيد الى حماة كي يشف فيها .

ولما عاد أبو الفداء الى حماة أحسن إليه ابن عمه الملك المظفر وصار أمير طبلخانة على رأس أربعين فارساً .

وفي سنة ٦٩٧ هـ ، وسنه حينذاك خمس وعشرون عاماً ، شارك أبو الفداء في

حملة قادها السلطان حسام الدين لاشين الذي تغلب على الحكم وتسمى بالملك المنصور الى بلاد سيس (١) .

ويعت المظفر سنة ٦٩٨ هـ ، دون ولد ، حضر أبو القداء مع أخويه الى حماه ، وتنازعوا في أمر تولي الحكم ، مما أدى لإرسال نائب ملوكي هو قراسنقر وخرج الحكم من أيدي السلالة الايوبية بسبب اختلافهم على تولي السلطة .

وفي سنة ٦٩٨ هـ ذاتها حمل أبو القداء هدايا من قراسنقر ومن أخويه عمر وحسن الملك لاشين الذي كان نازلاً قرب عسقلان على الساحل الفلسطيني ، فقبلها السلطان وتكرم عليه بخلعة وحياسة من ذهب ، ورسم بزيادة اقطاعه واقطاع أخيه بسدر الدين حسن .

وكان ابو القداء يعمل بدأب منذ وفاة ابن عمه الملك المظفر ، وكان عمره حينذاك ٢٦ سنة ، يعمل جاهدا على استرداد ملكة حماة للأسرة الايوبية . او بالاحرى استخلاصها لنفسه ، ورأى ان السبيل التويم لبلوغ ذلك هو تمتين اواصر صداقته بالسلطان ، في القاهرة ، فاتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون وخدمه في مختلف المناسبات ، سواء في العاصمة المصرية او في الكرك حيث كان يهتزل فيها . فبعد وفاة كتبها نائب حماة سنة ٧٠٢ هـ ، راسل السلطان في أمر اقامته في حماة أميراً ، وكان ذلك بعد الاوان ، لان حماة كانت من نصيب سيف الدين قبيجق ، ولكن السلطان ارسل اليه الصدقات والوعود وطيب خاطره .

وفي نفس السنة أي ٧٠٢ هـ شارك في مطاردة التتر الذين عاثوا فساداً في وادي القرات حتى بلغوا القريتين ، من اعمال حمص ، فكان الى جانب الامراء المجردين لملاقاتهم وخرجوا من المعركة منتصرين وابدوا المغيرين عن بكره أبنهم .

وعندما نزل السلطان الناصر محمد الكرك لثالث مرة هرباً من دسائس البلاط والمؤامرات في القاهرة معتمداً على ولاء العساكر الشامية ، قصد دمشق ، فخفف ابو القداء لملاقاته فقال الوعود بحكم حماة . ووافق الملك الناصر على رأس الجيوش الشامية لاسترداد عرشه في مصر ، بعد ان خلع بيبرس الجاشنكير نفسه وطلب الامان ، فوصلها

(١) يذكر كراثشكوفسكي ان اسطورة اوروية تزعم ان لاشين هذا كان من الفرسان التيوتون وانه وصل لفلسطين مع الصليبيين وانه انحاز الى جانب المسلمين الى أن صار سلطاناً (هكذا) .

سنة ٧٠٩ هـ ، وكرر السلطان محمد له الوعود في ملك حماة ولكن اعتذر له بكثرة الاشغال .

غير أن ابا الفداء لم يكتف بهذه الوعود المتكررة بل حث ملك البدو الشيخ مهنا ابن عيسى على التوسط لدى السلطان لاستنجاهه وعده . فسافر منها الى مصر في عام ٧١٠ هـ وفاتح السلطان في الامر ، فأجابه السلطان بالتعجب ، ونقل على اثر ذلك نائبا استنادا الى حلب ، وولى ابا الفداء وهو ما يزال في دمشق وكان سنه حينذاك ٢٨ سنة . وهكذا استرد ملك آباءه واجداده بعد انقطاع دام احدى عشرة سنة .

وما ان استقر به المقام في حماة في دار ابن عمه ، استأذن السلطان في الحضور الى مصر ، شاكراً له صنيعه ، وحاملاً اليه الهدايا والتحف .

وبعد عامين اي سنة ٧١٢ هـ سافر الى مصر للمرة الثانية ، بعد توليه النيابة ، فقلده ملكة حماة والمعرة وبارين (بعين حالياً شمال غرب حماة) تقليداً وراثياً ولقب بالملك المؤيد . واغتم هذه الفرصة بأن شكى له من طرف خفي وبشكل لبق للغاية من تصرفات الامراء والمهاليك في حماة الذين اوجدوا دولة ضمن دولة ، فأمر السلطان بنقلهم جميعاً الى حلب ، وكانوا نحو اربعة عشر اميراً ، فتم ترحيلهم قبيل وصول ابي الفداء الى مقر ملكه . وفي نفس السنة رزق ببولود سماه محمداً ، وهو الذي سيخلفه في الملك .

وظل ابو الفداء يتردد على القاهرة ليزيد في متانة علاقته وصدقاته بالسلطان ، وليقدم له « الخيول والقماش والمصاغ » او ليخدمه في رحلات صيده او لمرافقته في اداء فريضة الحج . واتاحت له فرصة استقبال الرسل والسفراء القادمين الى بلاط القاهرة . فحضر حفلة استقبال السفير خايمة الثاني ملك آراغون الاسباني وسفير ايلخان فارس . وفي سنة ٧١٩ هـ سافر الى القاهرة وخرج مع السلطان لاداء فريضة الحج ، فلما عاد بالغ السلطان في عطائه لابي الفداء ومنحه لقب سلطان ، فتقبله مستردداً على استحياء ويذكر المؤرخ ابن حجر ان السلطان استعظم ما رآه من آداب ابي الفداء وفضائله وكان عمره آنئذ ٤٧ سنة .

وفي سنة ٧٢٤ هـ ذهب الى السلطان في مصر وبصحبه ولده محمد ، فحضر استقبال رسل ملك التتر ابي سعيد بقلعة الجبل ، كما قصد مصر بعد ثلاثة اشهر ، في سنة ٧٢٧ هـ وكأنه كان يهد لابنه كي يخلفه في الملك ، ولكي يزيد في متانة صلاته بالعاصمة المصرية .

ولم يطرأ شيء في حياته السياسية بعد هذا التاريخ سوى وفاة شقيقه بدر الدين حسن ، وكان يكبره بثلاث سنين ، وكان ينازعة على الملك ، ووفاة والده بعد عامين ، اي في نفس السنة التي زار فيها القدس وبيروت وصيدا وصور وعكا والخليل . ورزق حفيدا سنة ٧٢٩ هـ عامه عمراً .

وختم ابو الفداء ايام حياته بهدوء ودعة في حماة في خريف عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، بعد ان تنبأ بأنه لن يتجاوز الستين شأنه في ذلك شأن جميع افراد امرته . كما ان نسله انفسهم لم يكتب لهم البقاء طويلا فقد ورث ابنه الملك الافضل الثاني محمد سلطان الامرة بحماة وخلعت عليه الامارة من سلطان مصر ، ولكن بعد وفاته ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) بعد ان حكم مدة عشرة اعوام ، عجز الحفيد عن ان يكون على مستوى الاحداث وقنع بمظهر الامارة الى وفاته سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) ، وبذلك انقرض بيت ابى الفداء الذي بذل جهوداً مضية في سبيل استرداد ملك اجداده .

وهكذا نستشف من خلال استعراضنا السريع لحياته السياسية انه برز بشجاعته وصفاته العسكرية الغذة ، اذ كان حب الجهاد جزءاً لا يتجزأ من ملامح شخصيته ، مثلما اقر له مؤرخو عصره بالحنكة السياسية وبالورثة الدبلوماسية فاستطاع في عصر كثرت فيه الغلاقل الداخلية ان يحتفظ بما خلفه له آباؤه من املاك بل ونجح في توسيع رقعتها ، كما استمر في كفاحه ضد الصليبيين غربا والتتر شرقا ، في الايام العصيبة التي كان العالم العربي الاسلامي واقعا فيها بين المطرقة الصليبية والسندان التتري ، اي حينما كانت معاقل الثقافة والاشعاع الفكري العربي تتهاوى تباعا امام جمافل البرابرة الغزاة ، فتحرق المكتبات او تلقى بمحتوياتها في مياه الانهار ، ونعم الفوضى وتوسع رقعة البداوة مع كل ما تجر وراءها من عقلية عشائرية بدوية اضعفت ، على كر الايام ، روح المواطنة Civisme وعم الخراب ، مما هيا العالم العربي للفتح العثماني بعد ان قوالت عليه للضربات المؤتة من الاسبان والبرتغال من الغرب ، ومن البرتغاليين لوحدم من الجنوب والشرق .

حياته الثقافية :

ولكن هناك جانباً آخر في حياة أبى الفداء جدير باستقطاب انتباهنا ، فجهاده في الذب عن حوضه العربوة والاسلام والمعارك التي خاض غمارها ضد الفرنجة والأرمن والتتر والسعي الحثيث المضي الدؤوب لاستعادة حقوق امرته في مملكة حماة ، حتى ان سيرة حياته تذكرتنا في بعض خطوطها بسيرة حياة البطل اسامة بن منقذ أمير شيزر الذي

عاش قبل قرن من الزمن بالنسبة لأبي القداء ، اقول لم يشغل كل ذلك عن الانصراف للعلم والتأليف الى جانب السياسة والاهتمام بشؤون عمران مملكته الصغيرة . فقد كان مثال رجل السيف والقلم بكل ما في الكلمة من معنى .

وقد عاش ابو القداء وعاصر الفترة المظلمة التي قضت على الاندفاع العلمي النظري لدى العرب والذي كان سيؤدي حتماً ، حسب رأي المستشرق الكبير شارل هيللا Pellat الى التطبيق العملي الذي كان سيؤدي الى تهجيل ظهور الثورة الصناعية مسدة ثلاثة قرون من الزمن ، لو قدر لهذه الحضارة العربية الاستمرار والتطور بهدوء .

وقد دفع حب أبي القداء للعلم الى حب العلماء ، وتقديرهم اليه ، فعاش في بلاطه الصغير الأثير الأيبري عميد الرحمن بن عمر واجري له ما يكفيه ، وكان يرسل للشاعر المصري ابن نباته راتبه السنوي الى القاهرة من حماه ، ومدحه ابن نباته بمدائح كثيرة ورثاه لما مات ، وكذلك مدحه الشهاب محمود الحلبي . وقال عنه ابن حجر : « ولا اعرف احد من الملوك ما لابن نباته وللشهاب محمود وغيرهما فيه ، الا سيف الدولة ، وقد مدح الناس غيرهما من الملوك كثيراً ، ولكن اجتمع لهذين من الكثرة والاجادة من الفحول ما لم يتفق لغيرهما » .

ولم يسلم ابو القداء روحه الى بارئها قبل أن يفرق كتبه على المهتمين بها من الذين يقدرونها حق قدرها خوفاً عليها من الاهمال والضياع . وبموته انطوت صفحة هامة من تاريخ حماة الذين لم ير الناس في الملوك أفضل منه بعد المأمون ، ممن جمع الملك والعلم معاً الى جانب بعد النظر في السياسة والنبل في التصرفات ، فكان ملكاً قبل أن يصبح ملكاً ، وكان اميراً في سلوكه بعيداً كل البعد عن الاسفاف والسلوك السردابي الذي شاع في عصره على شكل مكائد ودماسس ومؤامرات .

ولقد ضرب الاستاذ المرحوم محمد كرد علي كبد الحقيقة عندما قال على قبر ابي القداء : يا ثاني المأمون بعلمك وعقلك ، وثاني صلاح الدين بعلمك وجهادك .

ابعد ثقافته :

لقد كان ابو القداء يتمتع بروحة ثقافية عريضة اشتملت معظم علوم عصره ، فكان في اكثرها من المبرزين الاعلام ، أو بعبارة اخرى كان موسوعياً .
ويذكر الأستوي في طبقات الشافعية ان ابا القداء « كان جامعاً لاشتات العلوم ،

عجوبة من اعاجيب الدنيا ، ماهر في الفقه والتفسير والأصليين ، والنحو والعروض ، وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والتاريخ وغير ذلك من العلوم ، صنف في كل علم تصنيفاً او تصانيف « ويزيد ابن تغري بردي على ذلك فيقول انه : « كان بارعاً في العربية والادب حافظاً للقرآن » . ويذكر ابن حجر انه « نظم الشعر والموشحات وفاق في علم الهيئة » ، اي جمع بين « المعقول والمنقول » كما يقول القدامى : أي انه ألم بكل مايتصل بالعلوم الدينية من فقه وقرآن وتفسير — باستثناء الحديث — واتقن علوم العربية من ادب ونحو وعروض ، وقرض الشعر ، فضلاً عن الفلسفة والمنطق ، وهي مايسمى بالعلوم المهجورة ، وبرع ايضاً في علم الهيئة والطب ، ولكن علم المنطق والفلسفة لم يؤثر في سلامة عقيدته لأن ابن بردي يشير الى ذلك بقوله « مع الاعتقاد الصحيح » اي ان اطلاعه وتبحره في الفلسفة لم يجره الى الكفر والاتحاد كما حدث لغيره من المتفلسفين .

وإذا كنا نجعل اساتذته الذين نهل عنهم علومه فان تاريخه يشير الى انه تردد على قاضي حماة ابن واصل فيقول : في الثامن والعشرين من شوال من تلك السنة ، اي سنة ٦٩٧ هـ ، توفي الشيخ العلامة جمال الدين محمد بن واصل قاضي القضاة الشافعي بحماة المحروسة . . . وكان فاضلاً إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة واصول الدين والفقه والهيئة والتاريخ . . . ولقد ترددت عليه بحماة مراراً كثيرة ، وكنت اعرض عليه ما احله من اشكال كتاب اقليدس واستفيد منه ، وكذلك قرأت عليه شرح المنظومة ابن الحاجب في العروض ، فان جمال الدين صنف هذه المنظومة شرحاً مطولاً ، فقرأت عليه ، وصححت اسماء من له ترجمة في كتاب الأغاني ، فرحمه الله ورضي عنه .

وهكذا كان ابو القداء عالم عصره ، وندر بين ملوك الاسلام من بلغ مبلغ علمه ، فكان يحب العلماء ويقربهم ، وكان يحرص على اقتناء الكتب النفيسة النادرة ، وكان العلماء يقصدونه ، فأحاط نفسه بجو علمي ، جو يتواءم مع اتساع أفق ثقافته المتعددة الجوانب .

والى جانب ذلك برع في علم الطب لحد بعيد ، فيحدثنا انه رافق ابن عمه الملك المظفر صاحب حماة سنة ٦٩٧ هـ في غزوة بلاد الارض ، قال : « فأصحاب الملك المظفر وهو نازل على حموض قليل مرض ، ولم يكن صحبته طبيب ، فساقتصر على ما كنت أصف له ، وأعالجه به فشفاه الله تعالى ، وأنعم علي » .

كذلك عرف عنه خبرته الواسعة في أمور الصيد . ولعله اكتسب ذلك عن أبيه

الملك الافضل علي ، فقد كان ماهراً بأمر الفهود والصيد حتى كان الملك الاشراف خليل يستدعيه لمرافقته في صيوده ، ومهارة أبو الفداء بالصيد جعلت الملك محمد بن قلاوون يطلبه من حاة ليرافقه في رحلات صيده .

أبو الفداء الجغرافي :

لا نستطيع تشبيه أبي الفداء بابن حوقل الذي كان جغرافياً جمع بين النقل والاختباس وبين المشاهدة في رحلات بعيدة قصية ، ذلك أن أسفار أبي الفداء لم تكن بقصد الاطلاع والتعرف على البلدان ، إنما كانت اما للجهاد والمشاغرة أو لمتابعة هدفه الاسمي الذي وضعه نصب عينيه ، وهو المطالبة بمملكة آباهه ، فرحن مرات عديدة الى مصر ، أو لجنوبي الاردن ، أو للصيد بصحبة ملوك مصر ، من معاصريه ، بمعنى انه لم يكن رحالة بكل ما في الكلمة من معنى ، وان كان قد استفاد من مشاهداته الشخصية في كتابه « تقويم البلدان » ، فهو لم يصرف سوى بلاد الشام والبلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد العرب ومصر والصعيد حتى دندرة ، والجزء الشرقي من آسيا الصغرى وأرض الجزيرة العليا .

هدفه من تأليف كتابه « تقويم البلدان » :

ان تمكن وتضلع في علم الهيئة والرياضيات دفعه لأن يتخذ موقف الناقد من سائر الكتب الجغرافية التي ظهرت حتى عصره ، فهي تارة تحمل ضبط الأسماء ، أو ذكر المواقع الفلكية من طول وعرض ، أو تحمل الجهات تارة أخرى ، نتيجة الجهل بالأطوال والعروض . ويقصد بذلك كتاب ابن حوقل والادريسي والبيروني وياقوت وكتاب اسماعيل الموصللي في كتابيه « الفيصل » و « مزيل الارتباب عن مشته الانساب » .

وبعبارة أخرى كان الدافع الى كتابة « تقويم البلدان » هو نقص الكتب الجغرافية التي أتسجله الاطلاع عليها ، فكالم الكتب الجغرافية ، كما يعتقد ، هو أن تجمع الجغرافية الوصفية ، الى جانب تحقيق الأسماء وضبطها وتلثي بذكر أطوالها وعروضها ومواقعها .

وهكذا اعتمد على مصادر ثلاثة في تأليف كتابه هي ، مشاهداته الشخصية على قلة غزارتها ، والمصادر الجغرافية وكتب الزيجات وكتب النسبة التي ظهرت حتى عصره
المعرفة - م ٢

وأخيراً على المصادر الشفوية . ويتميز كتابه باحتوائه على نصوص من مؤلفات مفقودة أو لم تنشر حتى الآن ، على الأقل .

ويتجلى المنهج العلمي في قضايف كتابه ، فهو يبدأ بمقدمة عامة يذكر فيها مساحة الارض وشكلها وتقسيمها الى أقاليم سبعة ، ثم يتحدث عن الأطوال بدءاً من جزر الخالدات (كناري الحالية) ، والمسافات ووسائل قياسها . ثم يبدأ بذكر البحار المعروفة ثم الأنهار والجبال .

ثم جعل لكل بلد اقليمين : الاقليم الحقيقي وهو أحد الأقاليم السبعة المعروفة ، والاقليم العرفي ، اي الناحية أو المملكة الموجودة فيها . « اي اتبع في دراسته التقسيم التقليدي السائد في زمنه ، واعني بذلك تقسيم العالم المعروف إلى سبعة أقاليم ، ثم يتبع ذلك بدراسة جغرافية اقليمية Régionale ، ووضع في خانة كل منطقة درساً (١) ، وعددها ٢٨ جدولاً مقسماً الى عشرة أبواب ، ذكر في الاول اسم البلده وفي الثاني أسماء المنقول عنهم ، والثالث لدرجات الطول ، والرابع للدقائق الطولية ، والخامس لدرجات العرض والسادس لكسور درجات العرض من الدقائق ، والسابع للاقليم الحقيقي ، والثامن للاقليم العرفي والتاسع لضبط الاسماء والاخير وهو العاشر للأوصاف والاخبار العامة .

اهتمام العلماء بكتابه على كثر العصور :

١ - اختصر الذهبي كتاب تقويم البلدان في القرن الثامن الهجري ، وكان هذا معاصراً لابي القداء ، والمتوفي عام ٧١٨ هـ = ١٣٤٧ م .

٢ - اهم سباهي زادة التركي ، المتوفي سنة ٩٩٨ هـ - ١٥٨٨ م بكتاب تقويم

(١) وهي : جزيرة العرب ، ديار مصر ، بلاد المغرب ، الجانب الجنوبي من الارض وهو بلاد السودان ، جزيرة الاندلس ، جزائر بحر الروم والمحيط الغربي ، الجانب الشمالي من الارض ، الشام ، الجزيرة بين دجلة والفرات ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، الهند ، الصين ، جزائر بحر الشرق ، بلاد الروم ، ارمينية واران وآذربيجان ، بلاد الجليل وهي عراق العجم ، الديلم والجبل ، طبرستان ، خراسان زابلستان والغور ، طخارستان وبذخشان ، خوارزم ، ماوراء النهر .

البلدان ورتبه على حروف المعجم باللغة العربية وزاد عليه واخرجه تحت اسم : « اوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك » كما ترجم فقرات منه الى اللغة التركية .

٣ - تأثر به محمد صادق الاصفهاني ، من كتاب القرن السابع عشر الميلادي .

٤ - اعتمد عليه حاجي خليفة في كتاب « محيط » ، حسب رأي الدكتور صلاح الدين المنجد .

٥ - اما في الغرب فيقول كرانسكوفسكي ان كتابهين فقط اثارا من الاهتمام اكثر من « تقويم البلدان » ويقصد بهما القرآن الكريم و « الف لية وليلة » .

٦ - ذكره المستشرق الفرنسي بوستل postill الذي يعد في طليعة المستشرقين في اواسط القرن السادس عشر .

٧ - وفي القرن السابع عشر اشتغل بدراسة كتاب أبي الفداء المستشرق الالماني شيكارث (١٥٩٢ - ١٦٣٥) وفي نفس الفترة وصلت اول نسخة من الكتاب لمكتبة باريس الوطنية .

٨ - في سنة ١٦٥٠ درسه المستشرق والفلكي الانكليزي غريفز (١٦٠٢ - ١٦٥٠ م) دراسة نقدية .

٩ - في القرن الثامن عشر ظهرت اول ترجمة كاملة (١٧٧٠ - ١٧٧١) على يد المستشرق اريكه (١٧١٦ - ١٧٧٤) وكانت ترجمة متهافة .

١٠ - وتم تتويج الاهتمام الاستشراق بأبي الفداء بترجمة رينودوسلان المصحوبة بدراسة مستفيضة عن سيرة حياة بي الفداء ودور الجغرافية العربية بشكل عام ، فظهر القسم الاول من الترجمة عام ١٨٤٨ ، وتمت الترجمة على يد غيار بعد خمسة وثلاثين عاماً اي في سنة ١٨٨٣ .

ومنذ ذلك الحين كف العلماء الاجانب عن الاهتمام بأبي الفداء لظهور مؤلفات احدث ولتقدم العلوم الجغرافية الحديثة بصورة متسارعة .

اصالة كتاب تقويم البلدان :

يتميز كتاب تقويم البلدان عن الكتب الجغرافية التي ظهرت حتى زمنه ، وحتى بعض الكتب التي ظهرت بعده بمزايا عديدة ، نستطيع ان نجملها فيما يلي :

أولاً : لم ينقل ابو الفداء فكرة كروية الأرض عن المصادر التي عرفها دون تمحيص

بل أيد ذلك ببراهين ودلائل تدعم رأيه فيقول : « أما جملة الارض فكروية الشكل حسبما ثبت في علم الهيئة بعدة أدلة منها :

— أن تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها للشرقيين على طلوعها وغروبها للغربيين يدل على استدارتها شرقاً وغرباً .

— ارتفاع القطب والكواكب الشمالية والمخطاط الجنوبية للواغلين في الشمال وارتفاع القطب والكواكب الجنوبية والمخطاط الشمالية للواغلين في الجنوب بحسب وغولها .

— أما تضاريسها التي تستلزمها من جهة الجبال والأغوار فإنه لا تخرجها عن الاستدارة ولا نسبة لها محسوسة الى جملة الارض . فإنه قد تبرهن في عالم الهيئة أن جبلاً يرتفع نصف فرسخ (أو ٢٨١٤ م) يكون عند جملة الارض كخمس أو سبع عرض شعيرة عند كرة قطرها ذراع .

— وكذلك ثبت في علم الهيئة أن الارض في وسط الفلك بعدة أدلة منها ، ان انخساف القمر في مقاطراته الحقيقية للشمس يدل على أن الارض في الوسط ، والواقف على الارض من جميع الجوانب رأسه الى ما يبالي المحيط ، وهو الفوق ، ورجله الى ما يبالي المركز ، وهو التحت ، ومجذب الارض مواز لمقعر الفلك المحيط به .

ثانياً : عدم تأثير بعد الشمس أو قربها في المناخ

« وقد قيل ان علة عمارة الربيع الشمالي (اي الواقع شمالي خط الاستواء) وخراب الربيع الجنوبي ، انما هو قرب الشمس لأنها اذا سامتت الربيع الجنوبي من الارض تكون في البروج الجنوبية ، في حضيضها . فتكون حينئذ أقرب الى الارض وأعظم جرماً واشد شعاعاً واثراً ، وقد ضعف النصير الطوسي التعليل وقال ان التفاوت بين صفر الشمس من جهة كونها في الاوج وكبرها من جهة كونها في الحضيض ليس بين عند الحس ، فمن البعيد ان يبلغ تأثيرها الى أحد موضعين متساويين في الوضع مسكوناً والآخر غير مسكون . » وهكذا يهتد أبو القداء للعلماء المتأخرين الذين يرون — كما ثبت ذلك علمياً — ان اختلاف المناخ بين مختلف عروض الارض يعود لاختلاف ميل أشعة الشمس واختلاف طول النهار .

ثالثاً : قياسه لمحيط الارض :

يقول ابو القداء في صفحة ١٥ : « فاذا عُمِّلَ على مذهب القدماء وضرب حصّة الدرجة الواحدة من الفراسخ وهو ٢٢ وتسعاً فرسخ في ٣٦٠ حصل مقدار الدائرة العظمى من الارض ، وهو ٨٠٠٠ فرسخ غير زيادة ولا نقص . والمعالم ان الفرسخ يساوي ثلاثة اميال والميل العربي ١٨٧٨ م ، فمعنى هذا ان محيط الارض عند ابي القداء هو ٤٥٠٧٢ كيلو متر علماً انه حقيقة هو ٤٠٠٧٦ كم وهو خطأ بسيط نسبياً لعدم دقة مقاييس عصره ، من شعيرة وذراع وسواهما .

رابعاً : اتصال المحيط الهندي بالمحيط الاطلسي :

« واكثر ما يبلغ سالكو البحر الاعظم (الهندي) من جانب المغرب سفالة الرنج (موزمبيق الحالية) ولا يتجاوزونها ... ويتلاطم فيحطم السفن ويمنع السالك ، ومع هذا فليس يمنعه من الاتصال ببحر اوقيانوس (الاطلنطي) من تلك المضائق من جهة الجنوب ، وراء تلك الجبال (اي جبال القصر حيث منابع النيل) فقد وجدت علامات اتصافها وان لم يشاهد ، وهذا ما اخترناه من كلام ابي الريحان « وهذا يدل على ان العلماء العرب قالوا بانتهاء قارة افريقيا جنوباً قبل ان يكتشف ذلك الملاح دياز البرتغالي ١٤٨٨ م اي بعد اكثر من قرن .

خامساً : ذكر التيار بين البحر الاسود وبحر ايجة :

« ذكر بحر بنطش (١) وبحيرة ماينطش المتصلة به المعروفة في زماننا ببحر الأزف (أي Azov) ، وهي مدينة على ساحله الشمالي على فرضة للتجار . ويعرف بحر بنطش في زماننا ببحر القرم وبالبحر الاسود . وماؤه يجري ويمر على القسطنطينية ويتضايق حتى يصب في بحر الروم (اي البحر الابيض المتوسط) ، ولهذا تمرع المراكب في سيرها من القرم الى بحر الروم وتبطيء اذا جسات من نحو الاسكندرية الى القرم لاستقبالها جريان الماء . »

(١) وهو تحريف لكلمة بنطش اليونانية أو Ponte .

سادساً : انعزال بحر الحزر :

هذا بحر ملح لا يتصل بالبحر المحيط ولا بغيره من البحور المتقدم ذكرها ، بل هو بحر منفرد ... يسمى بحر جرجان وبحر طبرستان .

سابعاً : ذكر اسماء يجهلها المعاصرون :

— نهر الاردن : وهو نهر القور ، يسمى الشريعة ، وأصله من أنهار تنصب من جبل الثلج (اي جبل الشيخ او حرمون) الى بحيرة بانياس (اي بحيرة الحولة سابقاً) ويصب في بحيرة طبرية ويصب في بحيرة المنتنة ، وهي بحيرة زغر (البحر الميت حالياً) .

— نهر حماة : ويسمى نهر الأرنط (Oronte) والنهر المقابوب لجريه من الجنوب الى الشمال ، ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الاراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد (أي على السارح) ، ويصب في بحيرة قنّاس (بحيرة حمص) في غربي حمص (والحقيقة الى جنوبها الغربي) .

— ويصب في الفرات نهر الخابور من رأس عين يقال لها الزاهرية ويسير نهر الخابور حتى يمر على قرقيسيا (البصيرة الحالية) ويصب عندها في الفرات .

* * *

ويؤخذ على ابي الفداء استبعاده وجود الثلج في الجبال الاستوائية ، اي يهمل دور الارتفاع في برودة المناخ فيقول : «جبل القنّس أو القمر : وهو جبل في الخراب الجنوبي وعرضه ١١ درجة جنوبي من خط الاستواء ومنه منابع نيل مصر من عشر مسيلات (والحقيقة لا تصل منابع النيل لأكثر من خمس درجات جنوباً) تنحدر منه . ولم يثبت وصول أحد اليه ، بل شاهدوه من بعد . قال التصير الطوسي في التذكرة انهم شاهدوه من بعد ، وهو ابيض من الثلج (لعله جبل كليا تجارو الذي يبلغ ارتفاعه ١٩٣٤٠ قدماً أو ٥٨٩٥ متر) ، فان عرض احدى عشرة درجة في غاية الحرارة ، ويعتبر من عرض عدن من اليمن ، فان وقوع الثلج في مثل عرض عدن لم يسمع به في زمن من الأزمان ، والجانب الجنوبي مثل الشاهي بل اشد حرارة لحضيض الشمس (وهنا يتناقض مع نفسه كما سبق وذكرنا آنفاً) .

والخلاصة :

لا نستطيع تقدير ابي القداء كجغرافي ما لم نضع انفسنا في جلده كما يقول التعبير الاوروبي ، اي ما لم نعايشه في عصره كي نستشف مدى تضلعه في علم الجغرافيا ومدى الخدمة التي اسداها في سبيل اغناء المعرفة الجغرافية والكون الذي نعيش فيه .

أما اهمالنا لتدريس نصوص مؤلفه بشكل خاص وغيره من اعلام الجغرافيين العرب بشكل عام سواء في التعليم الثانوي او العالي ، فهو أمر يدل على جهل عميق ومؤسف بترائنا من ناحية وعلى تنكر وعقوق لأولئك الذين رفعوا شأن العرب والعروبة في عصر كانوا فيه كالشعلة المضيئة في دجاجير عالم تكتنفه ظلمات الجهل والتخلف الحقيقي .

صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

ماركس - انجاز

نقد برناجي

غوطة وايرفورت

ترجمة صلاح مزهر

عبارة من عطر

أجيب الفداء

الدكتور قسطنطين زريق

لا شك اننا امام شخصية قد تميزت بالدينامية والانتاج ، وبالقدرة على الجمع بين العمل والنظر : بين شؤون الحرب والسياسة والحكم ، وشؤون الثقافة والعلم . فلتعد

شارك أبو القداء في احداث عصره المضطرب مشاركة مضمينة مستمرة، مناضلاً في ميادين عدة ، خارجية وداخلية ، واستطاع في الوقت نفسه ان يروض عقله ونفسه على متابعة ثقافة عصره فأطلع على نطاق واسع منها وانتج فيه ، وكان له أثر بارز في علمين : التأريخ وعلم البلدان ، هذا عدا رعايته للعلماء والادباء في حياة وغيرها من بلاد الشام .

أما مشاركته السياسية الحربية ، فانها تتجلى بوضوح في تأريخه المختصر في أخبار البشر ، وهو أفضل مرآة لسيرته ولمساهمته في احداث عصره . فاننا لا نكاد نجد سنة من السنوات التي عاشها ودون اخبارها في ذلك التأريخ خلواً من مظاهر تحركه في الجهة الخارجية او الجهة الداخلية . لقد بدأ نشاطه في الاولى في سن مبكرة ، فكان أول ماحضره من المواقع حصار الملك المنصور سيف الدين قلاوون لحصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) وهو حصن للاسيطار ، وعن حضوره هذا قال : « اني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة وهو اول قتال رأيته وكنت مع والدي » (١) وبعد ذلك كان فتح طرابلس سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) (٢) وفي فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٩١٢ م) (٣) . وهما من الفتوح الحاسمة الاخيرة التي تم بها القضاء على ملك الفرنج الصليبيين في بلاد الشام . وكذلك خرج لمحاربة الارمن في الغزوة التي جردها الملك المنصور حسام الدين لاجين على بلادهم ، « بلاد سيس » ، سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) ، « وهذه الغزوة من الغزوات التي حضرتها وشاهدتها من أولها الى آخرها » (٤) بما في ذلك حصار حصن حموص المنيع والاستيلاء عليه ، كما شارك أيضاً في غزوة سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) (٥) . وعندما كانت ترد اخبار هجوم التتر واقترايحهم من بلاد الشام تراه يلبي الدعوة الى التحرك وينضم ، على رأس

(١) المختصر (القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٥ هـ) ، ج ٤ ص ٢١ ، ٨ - ٩ . وهي الطبعة التي اعتمدها في هذا البحث والتي تعود اليها جميع اشاراته .

(٢) ج ٤ ص ٢٣ .

(٣) ج ٤ ص ٢٤ - ٢٩ .

(٤) ج ٤ ص ٣٥ ، س ١٦ - ١٧ .

(٥) ج ٤ ص ٤٦ - ٤٧ .

عسكر حياة، للجيوش السائرة لملقاتهم وصددهم، كما حدث سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) (١)،
وسنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) (٢)، وسنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) (٣). ولا ننسى أخيراً
انه شارك في محاربة سلاجقة الروم، وفي فتح ملطية وتخريب أسوارها سنة ٧١٥ هـ
(١٣١٥ م) (٤).

هذه ناحية من نواحي جهده وقايلته . أما الناحية الثانية فهي سعيه الحثيث
لاستعادة ملك اسرته في حماة . فلقد دخلت هذه المدينة - وكأنت قاعدة ولاية هامة
من ولايات الشام - في حيز الملك الايوبي عندما استولى عليها السلطان صلاح الدين سنة
٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) . وبعد اربع سنوات عين صلاح الدين عليها ابن اخيه الملك
المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، ثم تعاقبت عليها ابناء سلالة هذا الملك حتى
عهد « ملك مظفر » آخر هو تقي الدين محمود . وعند وفاة هذا الأخير سنة ٦٩٨ هـ
(١٢٩٩ م) ، خرجت - كما قال ابو الفداء - « عن البيت التقوي الايوبي » (٥)
واخذ السلطان ، وكان حينذاك الملك الناصر محمد بن قلاوون ، يعين عليها نوابا من الذين
كان بحاجة الى استرضائهم والاستعانة بهم من امرائه او قادة جنده . ودام هذا الامر
ماينيف على احدى عشرة سنة ظل ابو الفداء خلالها اميراً من امراء حماة تابعاً بجنده
واقطاعه لناديبا . ولكنه لم يكف عن السعي بمختلف الوسائل لتسلم حكمها ، وكان يهتبره
حقاً له وفرع الدولة الايوبية المتحدر من الملك المظفر تقي الدين عمر ، الى ان تم له
ذلك في ثامن عشر جمادي الأول سنة ٧١٠ هـ (١٤ تشرين الاول ١٣١٠ م) ، اذ
جاء التقليد الشريف بحماة « على قاعدة النواب » (٦) .

على ان طبيعة الحكم المملوكي لم تكن تسمح بان يبقى هذا التعيين قائماً ومضموناً
مالم يشار صاحبه على موالة السلطان واكتساب رضاه . وقد ثابر ابو الفداء فعلاً على

(١) ج ٤ ، ص ٤١ .

(٢) ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) ج ٤ ، ص ٦٩ .

(٤) ج ٤ ، ص ٧٤ - ٧٦ .

(٥) ج ٤ ، ص ٤١ ، س ١٠ - ١١ .

(٦) ج ٤ ، ص ٦٠ ، س ٢٦ .

ذلك ، فكان كل سنة تقريباً يسافر الى مصر حاملاً للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الهدايا الوفرة النفيسة او يبعث بها اليه اذا اضطرته الاحداث الى البقاء في الشام . وقد اثمرت مساعيه هذه فنجح في الاحتفاظ بمجاعة ، بل بلغ من حيازة رضى الملك الناصر ان رفع هذا مقامه وخلع عليه شعار السلطنة ولقب الملك . حدث ذلك في القاهرة عام ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) ، عقب عودة ابي الفداء مع السلطان من اداء فريضة الحج في الحجاز (١) . يقول الصلاح الكتبي (ت . ٥٧٦٤ هـ ، ١٣٦٣ م) . صاحب فوات الوفيات : « فاعطاه [الملك الناصر] حماة لما امر لايد مر بجلب بعد موت نايبها جقمق ، وجعله سلطاناً يفعل فيها مايشاء من اقطاع وغيره ، ليس لأحد من الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم ، وأركبه في القاهرة بشعار الملك وأبهة السلطنة ، ومشى الأمراء والناس في خدمته ، حتى الأمير سيف الدين تنكز أرغون النائب ، وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج اليه في ذلك المهتم من التشاريف والانهامات على وجوه الدولة وغيرهم ، واتقبوه الملك الصالح ، ثم بعد قليل لقبه الملك المؤيد . وكان كل سنة يتوجه الى مصر بانواع من الخيل والرقيق والجواهر ، وسائر الاصناف القريبة ، هذا الى ما هو مستمر طول السنة بما يديه من التحف والطرف . » ويضيف ابو المحاسن بن تقري بردي (ت ٨٧٤٠ هـ ، ١٤٦٩ م) « حتى ان الملك الناصر رسم الى نواب البلاد الشامية ان يكتبوا له : « يقبل الأرض » فصار تنكز مع جلالة قدره يكتب له : « يقبل الأرض » و « بالمقام الشريف العالي المولوي السلطاني العاهدي الملكي المؤيدي » . وفي العنوان « صاحب حماة » . ويكتب السلطان الملك الناصر له « أخوه محمد بن قلاوون ، اعز الله انصار المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العاهدي » بلا مولوي (٣) .

ان هذا الجهد الذي بذله ابو الفداء في استعادة ملك الايوبيين في حماة وفي الاحتفاظ به وفي اكتساب مرضاة السلطان ورعايته لم يكن شيئاً ضئيلاً أو عابراً ، بل كان يتطلب حذراً وحرصاً ونشاطاً وعطاء لا يفي أيّ منها ولا يتلصق . فاذا أضدنا الى هذا الجهد

(١) ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٢) فوات الوفيات (القاهرة ، ١٩٥١) ، ج ١ ، ص ٢٨ .

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ، دار الكتب المصرية)

ج ٩ (١٩٤٢) ، ص ٢٩٣ .

البالغ ما أشرنا اليه من خروجه لقتال اعداء الاسلام ومنافسي الدولة المملوكية ، واذ ذكرنا الى جانب هذا وذاك تجريده للاشتراك في محاربة الخارجيين على السلطان واخضاعهم (١) ، وقيامه ثلاث مرات بالسفر الى الحجاز لاداء فريضة الحج (٢) ، وتنقله في مصر وبلاد الشام (٣) ، امكنا ان نتصور ما كان يملأ حياة صاحبنا ابى الفداء من هموم واشغال ناتجة عن انهاكه في احداث عهده وتصديه لها ، قائداً لجند وحاكماً لولاية واثباً ميمناً من نواب السلطان .

الى هذه الحياة العملية الجاهدة المضطربة استطاع ابوالفداء ان يجمع حياة التأمل والدراسة والتأليف ، فنظم الشعر ، كما نرى في النبد المختصرة عن سيرته في كتب التاريخ والتراجم ، وخاصة ما أورده الصلاح الكنتي في فوات الوفيات (٤) . وقد ذكر هذا المترجم ، كما ذكر تاج الدين السبكي وابن حجر العسقلاني ، أنه نظم كتاب الجاوي في الفقه للساوردي . اما بشأن ثقافته العلمية ، فقد وصفه الكنتي بأنه كان « فيه مكارم وفضيلة تامة ، من فقه وطب وحكمة وغير ذلك ، وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة

(١) كما حدث مثلاً سنة ٥٧١٠هـ . (١٣١٠ م) سنة ٥٧١١هـ . (١٣١١ م)

ج ٤ ص ٦٢ - ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) ج ٤ ص ٥١ ، ٧٣ ، ٨٥ .

(٣) كزيارته للاسكندرية ، ج ٤ ص ٨٣ - ٨٤ ، وللقديس والخليل مرتين

(مرة من غزة ، وأخرى من حماة عبر بعلبك وبيروت وصيدا وعكا) ، ج ٤ ص ٩٨ ، ٧٩ .

(٤) ج ١ ص ٢٨ - ٣٢ . بالاضافة الى ترجمته في فوات الوفيات ، ثم تراجم

له في طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (ت . ٥٧٧١ . ١٣٧٠ م) ج ٢ ،

(القاهرة ، ١٣٢٤) ، ص ٨٤ - ٨٦ ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للعريزي

(ت . ٨٤٥٠ . ١٤٤٢ م) ، ج ٢ ، ق ٢ (القاهرة ، تحقيق مصطفى زيادة ١٩٤٢)

ص ٣٥٤ ، والدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ت . ٨٥٢ . ٥٨٥٢ م)

ج ١ (حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٨) ، ص ٣٧١ - ٣٧٣ والنجوم

الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابي المحاسن بن تغري بردي (ت . ٨٧٤ . ١٤٥٩ م)

ج ٩ القاهرة ، ١٩٤٢) ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ . وهذه التراجم متافذة ، والارجح انها

تعود كلها الى أصل واحد .

لأنه اتقنه ، وان كان قد شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة » . وشبهه بهذا ما قاله المترجمون الآخرون ، وأوسعهم في هذا أبو المحاسن بن تعري بردي الذي قال عن صاحبنا أنه « برع في الفقه والاصول والعربية والتاريخ والادب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة مع الاعتقاد الصحيح وكان جامعاً للفضائل » .

ومهما يكن من امر ، فقد اشتهر أبو الفداء بأثرين معروفين هما تاريخه : المختصر في أخبار البشر ، وكتابه الجغرافي ، تقويم البلدان . أما الأول فهو في الواقع ، طبقة لعنوانه ، مختصر لمؤلفات تاريخية سابقة ، في مقدمتها الكامل لابن الاثير (ت . ٦٣٠ هـ - ١٢٣٤ م .) ، وقد عددها أبو الفداء في فاتحة كتابه (١) ، فليس له من فضل فيه سوى حسن الاختيار والتنسيق والجمع ، الا عندما يلج زمنه ، فتصبح المادة الكتاب قيمتها المباشرة ، خاصة في ما يتعلق بالاحداث التي شهدها المؤلف او اشترك فيها . فالكتاب هو اذن ، لهذه الفترة من التاريخ الممتدة على حياة مؤلفه (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ - ١٢٧٣ - ١٣٣١ م) . والى حد ما للفترة القرينية السابقة (ولما يتصل من احداثها بالدولة الايوبية وبقرعها الحاكم في حماة على وجه الخصوص) ، اصل فريد يعكس لنا حياة ذلك العهد ، ونحن مدينون به لحس ابي الفداء التاريخي وشغفه العلمي .

على ان الكتاب بمجموعه - وان لم تكن له قيمة تاريخية اصلية الا بالنسبة التي ذكرنا - قد أحدث أثراً مرموقاً في الشرق والغرب . أما في الشرق الاسلامي ، فموضوع في عهد اخذ الناس فيه يقبلون على الملخصات والمجموعات في العلوم والآداب جميعاً ومنها التاريخ ، فراقهم حسن اختياره ، وتبويبه وشموله ، ولقي عندهم حظوة نستدل عليها من انتشار ، ومن اقبال عدد من المؤرخين على احتذائه أو وضع تيمات له . واشهر المتتمين ، كما نعلم ، زين الدين عمر بن الوردي الذي اضاف اليه اخبار السنوات الواقعة بين توقف ابي الفداء (٧٢٩ هـ - ١٣٢٩ م .) ووفاته هو (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م) .

أما في الغرب ، فقد يكون اختصاره وسهولة تناوله ، أو قد يكون ظرف تاريخي

عارض ، هو الذي دفع به ليعطى باهتمام المستشرقين في وقت مبكر (١) . فلقد كان الغربيون حتى أوائل القرن التاسع عشر يعتمدون في معرفتهم للإسلام والشعوب الإسلامية الكتب التي ألفها رجال الدين أو الرحالة أو المحاربين من ابنائهم ، وكانت هذه الكتب محشوة بالأوهام الباطلة وبالاختلاقات والأكاذيب المضللة ، ولم يقبل الغربيون - ولم يشعروا بضرورة الاقبال - على اصول المسلمين انفسهم الا عندما بدأت عوامل عصر النهضة وعصر التنوير تفعل فيهم ، فكان مختصر ابي الفداء لسبب من الاسباب في مقدمة الاصول التاريخية التي اكتشفوها وعمدوا الى نشرها وترجمتها . وهكذا اصبح ، كما قال الاستاذ جب « أصلا من اصول الاستشراق في القرن الثامن عشر» (٢) ففي عام ١٧٢٣ هـ نشر John Gaonier في اكسفورد ذلك القسم من المختصر الذي يشمل سيرة النبي محمد مع ترجمة الى اللغة اللاتينية . ثم نشر Noël des vergess ترجمة فرنسية لهذه هذه السيرة في باريس عام ١٨٢٧ . وتبعها ترجمة M. Murray الانكليزية في لندن . وعني بالتاريخ بكامله رائد الاستشراق الالماني Johann Reiske (١٧١٦ - ١٧٧٤) فنشر عام ١٧٥٤ ترجمته اللاتينية للكتاب حتى سنة ١٨٠٦ هـ (١٠١٥ - ١٠١٦ م) ، على ان Reiske ظل معنياً بالكتاب بكامله تحقيقاً وتعليقاً وترجمة الى اللاتينية ، ولكنه لم يتح له في حياته ان ينشره مع ترجمته ، فقام بالمهمة من بعده Jacob Abler ، كوبنهاغن (١٧٨٩ - ١٩٤) . وفي مطلع القرن التاسع عشر نشر Heinrich Fleisher القسم الذي يتناول تاريخ ما قبل الاسلام (ليذك ، ١٨٣١) مع ترجمة لاتينية ايضاً . هذا الى مقتطفات استخلصت في القرن الثامن عشر او التاسع عشر ونشرت باصلها او منقولة الى لغة غربية ، وفي اغلب الاحوال الى اللاتينية . وهذا كله يدل على السابق الذي كان للمختصر في اجتذاب المستشرقين عندما بدأوا يحاولون الاطلاع على التأريخ الاسلامي من اصوله ومصادره .

- (١) راجع عن عناية المستشرقين بالمختصر وبصنوه التقوم النبذ البليوغرافية في:
 F . Wüstenfeld, Die Gesich ichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882 » , p . 165 — 66 .
 C. Brockelmann, GAL, Vol. II, p. 44
 G. Sarton, Introduction to the History of Science, Vol. II, I
 « Baltimore, 1947 », p. 790 .
 H. A. R. Gibb, « Abu' L Fida, » E. I. 2ud ed., I, P. 119 a (٢)

نأتي الآن الى الكتاب الثاني الذي اشتهر به أبو الفداء وهو تقويم البلدان . ويبدو ان قيمة هذا الكتاب الذاتية تفوق في موضوعه قيمة المختصر ما عدا القمم المعاصر منه . ومهما يكن من أمر ، فإنه يشبهه في ما كان له من مبكر لدى المستشرقين وغيرهم من العلماء في الغرب . فلقد عمد بعض هؤلاء ابتداء من القرن السابع عشر الى اقتطاف اقسام منه ونشرها ، كما فعل John Greaves (لندن ، ١٦٥٠) بالقسم المتعلق بخوارزم وما وراء النهر ، و Johann Koehler بالقسم المتعلق ببلاد الشام (مع ترجمة لاتينية ، ليزيك ، ١٧٦٦) . على ان الكتاب ما ليث أن لفت نظر الجمعية الآسيوية الفرنسية واسترعى اهتمامها فكلفت عالمة فرنسيين شهيرين هما M, de slane و J, T, Reinavd القيام بتحقيقه ، فأتما هذا العمل ونشر النص الكامل في باريس عام ١٩٤٠ ، ثم عمد اولها الى ترجمة جزء منه الى الفرنسية ، وقد ظهرت هذه الترجمة مع مقدمة طويلة عن الجغرافيين « الشرقيين » استوعبت مجملأً بكامله في باريس عام ١٨٤٨ ، وتبعها بعد خمس وثلاثين سنة ترجمة الجزء الثاني بقلم S, Guyard ، عام ١٨٨٣ . ان هذه العناية المبكرة والفائقة بتقويم ابي الفداء لتأتي دليلاً على قيمته واهميته العلمية ، وما يسند ذلك قول الاستاذ جورج سار طون المؤرخ المعروف لتطور العلم في العالم ان ابا الفداء كان « أعظم جغرافي عصره ، لا في الديار الاسلامية فحسب ، بل في أي مكان » (١) .

من كل هذا يتبين لنسا ما كان لمؤلفي ابي الفداء البارزين من قيمة ذاتية ومن اثر مبكر وواسع ، وما يعكسان ، مع غيرهما من مؤلفاته ، من النشاط الذي بذله في حقول العلم . فاذا أضفنا هذا النشاط العلمي الى نشاطه العملي في الحرب والسياسة والحكم ، ولحظنا غزارة كل منها وحسن جمع ابي الفداء بينهما ، امكثنا ان نجد في سيرته ونتاجه مادة للاشادة والاعتراف ، وحسن بنا بالتسالي ان نرحب بالبادرة الطيبة التي اتخذها مجلس الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في احياء ذكرى هذا المناضل بمناسبة مرور سبعمائة سنة على ميلاده .

G. Sarton, Introduction to the History of Science, (١)

vol. II , 1 (Baltimore , 1947), p. 200

- ٢ -

على اني على يقين أننا لم نجتمع لجرد الاشادة والاعتراز . فالمرحلة المصرية التي نجوزها لا نسمع لنا بهذه المتعة ، متعة تمجيد الماضي والتباهي باعلامه فحسب ، مهها يكن في هذا الافتخار والتمجيد من بحث للثقة الذاتية وتوطيد للاصالة القومية . انها تفرض علينا ، بالاضافة الى هذا ، ان نعتبر باحداث الماضي ونتعط بما تحمله لنا من خبرات ودروس . ونحن عندما نفعل ذلك انما نحبي جانباً هاماً من جهد اسلافنا التاريخي . فلقد كان « الاعتبار » و « الاتعاظ » غاية من ابرز غايات التأريخ عندهم ، كما يبدو من عناوين بعض امهات مؤلفاتهم ومن تعريفاتها ومقدماتها ، ومن الروح السارية فيها (١) . وانا لشخص فعلاً بهذا الاحياء ، على رغم النزعة الحديثة في التأريخ التي نفذت الى جامعاتنا ومعاهد بحوثنا ، والتي طفقنا نمارسها وندرّب النشء الجامعي عليها ، وهي النزعة التي تعد التأريخ علماً كسائر العلوم ، أي جهداً فكرياً يرمي أولاً وآخراً الى كشف حقيقة الماضي ، ولا يتخذ له غاية غير هذه الغاية أو مطمحاً سواها .

ان هذه النزعة العلمية جديرة بكل رعاية وتأييد ، لانها تحمي حقيقة الماضي من أوهام الضالين والمضللين وتصونها من عبث العابثين ، وبالتالي تخدم قضية الحرية والتحرر اجل خدمة . ذلك ان من لا يصبو الى الحقيقة ولا يتحرق شوقاً لاكتشافها والالتزام بها يبقى عبداً ويحترم نعمة التحرر والتحرير مهها تعظم سلطته أو تعل مكانته . على ان الموقف الذي يرضى ببلوغ الحقيقة ويعتمدها غاية ما بعدها غاية هو موقف مثالي لا ينطبق على الواقع ، وان انطبق فهو دون الموقف الذي يدعو الى الافادة من الحقيقة في سبيل دفع التقدم أو تعزيز الكرامة الانسانية .

ان عصرنا هذا هو عصر قد اضطرر فيه الكفاح للبقاء والتقدم أروع اضطرار واشتد فيه التنافس بين الامم أبلغ اشتداد ، فمن الخير لنا عندما نقبل على أي جهديئله ان نسعى لنستخرج منه ما ينفعنا في حاضرنا ومستقبلنا ، بل من الخير ان نقدر

(١) راجع مثلاً ما ذكره حاجي خليفة في تعريفه لعلم التاريخ : « .. والغرض منه الوقوف على الاحوال الماضية . وفائدته العبرة بتلك الاحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن امثال ما نقل من المضار ويستجلب نظارها من المنافع ... » (كشف الظنون ، ج ١ (استنبول ، ١٩٤١) ، ص ٢٧١ .

ضرورته وقيمته بنوع هذا النفع ومقداره . ان الماضي قد زال بحسناته وشوائبه ،
وليس لنا الا الحاضر العسير ، والمستقبل الاشد عمراً ، فاذا عمدنا الى احياء الماضي ،
كما نفعل الآن ، ترتب علينا ، بعد ان نقف على حقيقته بدقة وتجرد ، ان نعتبر به وان
نقيد من تفهم نقائصه وعيوبه افادتنا من الازدهاء بلجماده وبدائعه .

وانطلاقاً من هذا الموقف ، سأحاول في ما يلي ان اعرض عبرة من اهم العبر التي
ينطق بها عصر ابي الفداء ، والتي يجدر بنا ان نتدي بها في كفاحنا الحاضر لخلق مجتمع
عربي افضل . وسأقتصر في هذه المحاولة على نص المختصر وحده في القمم الذي يؤرخ
الاحداث الواقعة بين اواخر الدولة الايوبية (وفاة الملك الصالح نجم الدين ايوب) ووفاة
ابي الفداء الممتدة على خمس وثمانين سنة من ٦٤٧ الى ٧٢٢ هـ . (١٢٤٩-١٢٣١ م) .
فاكون بذلك قد عدت خمساً وعشرين سنة الى ما قبل ولادة ابي الفداء (٥٦٧٢ . ١٧٣ م) ،
لاتناول عصره - عصر المماليك - من اوله وأسير به حتى وفاة المؤلف (١) . ولنذكر
ان هذه الفترة شهدت زوال الحكم الايوبي وقيام حكم المماليك ، وفيها برز ثلاثة من اعظم
سلطينهم قدرة واثراً ، وهم الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨ - ٥٦٨ هـ .
١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ، والمنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ . ١٢٧٩ -
١٢٩٠ م) والناصر محمد بن قلاوون الذي رقي سدة الحكم ثلاث مرات (٦٩٣ - ٥٩٤ هـ .
١٢٩٣ - ١٣٠٦ م ، ٦٩٨ - ٥٧٠ هـ ، ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م ، ٧٠٩ - ٥٤١ هـ .
١٣٠٩ - ١٣٤٠) .

لعل اول ما يجب ان يتساءل عنه المؤرخ عند محاولته فهم حالة مجتمع من المجتمعات
في زمن من الازمان هو الفكرة او الفكر التي تسوده والروابط والولاءات التي تضديبناهم ،
ومراتب هذه الولاءات من حيث سميتها وقيمتها الذاتية ودرجة تحكها في النفوس واستشارتها
للجهود . ولعل اول ما يتبادر الى الذهن عند ما ننظر في الفترة التي نعالجها ان الفكرة
السائدة في المجتمع المملوكي كانت العقيدة الاسلامية ، وان الولاء الجامع لابنائها المتحكم في
نفوسهم كان الولاء الاسلامي . ولكننا عندما نقبل على مختصر ابي الفداء لتتحقق هذا
الامر ، ترى ، كما نرى في التواريخ الاخرى لذلك العهد ، ان هذا الولاء الجامع لا يبيد وال

(١) يقع هذا النص في الصفحات ١٧٩ - ٢١٩ من المجلد الثالث ، و ١-١٠٤

من المجلد الرابع .

بالنسبة للاعداء ، وانه لا يكون رابطة حية دائمة تمثل للاميان بصورة عفوية وتفدوق في سيطرتها على النفوس اية رابطة اخرى . هذا ما يتبين لنا من مراجعة ماورد في المختصر من ذكر ل : « المسلمين » و « الاسلام » . و « بلاد الاسلام » (او « البلاد الاسلامية ») و « عسكر الاسلام » (او « العساكر الاسلامية ») ، او « الشغور الاسلامية » . فقد وردت لفظة « المسلمون » في القسم الذي ذكرت من مختصر ابي الفداء مائة مرة ومرة : ٤٢ منها بمقابلة التتر او المغل ، و ٣٠ بمقابلة الفرنج ، و ١١ بمقابلة الارمن ، و ٩ بمقابلة نصارى ملطية في دولة سلجقة الروم ، و ٦ تميزا عن النصارى او غيرهم من الاقليات في مجتمع المالك ، و ٢ مرات فحسب بشكل عام يمكن ان ينطبق على ابناء المجتمع بمجموعهم (١) . وشبيه بهذا شأن الالفاظ او الاوصاف الاسلامية الاخرى التي عدناها ، فإما تكاد لاترد في النص الا في معرض اخبار علاقات المالك باعدائهم ، حربا او سلا . ومن العجيب ان هذا الوصف يختفي في الاخبار المتضمنة عن الخليفة الذي ، وان ضعف شأنه ، يلقى رمزا على الأقل لهذه الرابطة التي كان يفرض ان تكون جامعة شاملة لاهناء ذلك العهد ، ففي اخبار استيلاء التتر على بغداد وخروج المستنصر بالله آخر الخلفاء العباسيين لقتالهم يشار الى جيشه بلفظة الخلفاء « (٢) ، لا « عسكر المسلمين » او « العسكر الاسلامي » . وفي ذكر اخبار مبايعة الخليفة المستنصر بالله (٣) في القاهرة . و وفاة حلقة الحاكم بامر الله (٤) ليس ثمة من ذكر للاسلام او المسلمين ، قد لا يبدو هذا غريبا المطلعين على احوال ذلك العهد واخباره . ولكن لا بأس من استعادته وتذكره . دلالة على حقيقة يجدر بنا ان نستوعبها ونسترشد بها في اختيار اتنا ومساعدتنا الحاضرة . ان الفكرة التي تجمعنا اليوم والتي منها ننطلق في ميادين جهادنا المختلفة هي الفكرة القومية العربية . ولا جدال في ان ايماننا بهذه الفكرة انما يكتمل ويقدر باعنا للتحقق فاعلا في مضامير الانجاز والتحقيق ، عندما تفصح هذه عن نفسها في كل جانب من جوانب حياتنا وفي كل آن من أونة وجودنا ، اما اذا كانت لاتمثل سوى ولاء يقتصر ظهوره وفعله على

(١) ج ٢ ، ص ١٨٢ ، س ٤ ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ، س ١٢ ؛ ج ٤ ، ص ٨١ ، س ٨

(٢) ج ٣ ، ص ١٩٤ ، س ٣ و ٤

(٣) ج ٣ ، ص ٢١٢ - ١٣

(٤) ج ٤ ، ص ٤٦٠ . اما في اخبار مبايعة هذا الخليفة (ج ٣ ، ص ٢١٥ .

س ١ و ٤) فقد ورد لقب « امير المؤمنين » .

مهاجمة اعدائنا من صهاينة ومستعمرين وسواهم ، ويختفي وراء ولاءات اخرى عندما نعالج شؤوننا الداخلية ونحيا حياتنا الذاتية ، فانها تبقى فكرة ناقصة هزيلة عرضية للتبديد والفساد . انها لاتصح لنا ولا نشيت ولا نثمر ثمرا عظيميا الا عندما تكون عندتنا ومددنا في بناء كياننا القومي فتتيح لنا ، من جهة الصمود والغلبة في مكافحة الاعداء ، ومن جهة اخرى ، المضي في ما نتطلع اليه من تحرر وتجديد وتقدم .

لم يكن من سنن الاحداث ، ولا من طبائع العمران كما يقول ابن خلدون ، ان تظهر هذه الفكرة القومية العربية في العهد الذي نتصدى له ، فالعرب في ذلك الزمن ، كما يبدو واضحا من المختصر ومن غيره من المصادر ، هم « العربان » او « الاعراب » سكان البراري ، (١) واولئك الذين كانت تنبسط عليهم سلطة الحاكمين حينما وتراجع حينما آخر . واذا راجعنا اخبارهم وجدنا ان حياتهم كانت تضطرب بين الاشتراك تحت امرة امرائهم في منازعات المماليك الداخلية وحروبهم الخارجية ، (٢) واستقبال بعض الناقحين على السلطة الوافدين لهم اختباء من العيون او طلبا للحماية (٣) ، والخروج من براجم الى ما حولهم من ديار طامعين او عايشين ناهبين (٤) هؤلاء ، انسى كانت منازلهم ، في الشام او في العراق او الحجاز او بلاد المغرب ، لم يكونوا عماد الشعب او الدولة حينئذ ، ولم يكن بالامكان ان يسبقوا على المجتمع هويته او ان يوفروا له رابطة الاساسية او ولاء الجامع .

فاذا لم يكن الولاء العربي هو السائد حينئذ ، ولم يكن الولاء الاسلامي يبرز الى الوجود جامعا وفاعلا الا عند مهاجمة الاعداء ، فأي ولاء كان ذلك الذي يفعل في النفوس ويوجه الافراد والجماعات في تصرفاتهم الخاصة والعامة ؟ ان السلطة في القاهرة ، والى حد في الولايات ، كانت في ايدي القسادة والجند من المماليك ، وهؤلاء كانوا يؤلفون جماعات تدن كل منها بالولاء لصاحبها او استاذها الذي اقتناها ودرجها وادخلها في خدمته وجعل منها عماد جنده وسلطته . وقد بدأ بهذا التقليد ، كما نعلم ، الخليفة العباسي

(١) ج ٣ ، ص ١٩٣ ، ص ١٧ و ص ١٩٥ ، ص ١٣ ؛ ج ٤ ، ص ٨ ، ص ١١

ص ١٣ و ص ٥٣ ، ص ٢٧ .

(٢) ج ٣ ، ص ٢١١ ، ص ١١ ؛ ج ٤ ، ص ١٥ ، ص ٦

(٣) ج ٣ ، ص ١٩١ ، ص ٢٨ ؛ ج ٤ ، ص ٦٥ ، ص ٧ و ٨

(٤) ج ٣ ، ص ٢١٢ ، ص ١٤ ؛ ج ٤ ، ص ٩٥ ، ص ٥ و ٦

المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٣٧ - ١٨٣٣ ، ٥ - ١٨٤٢ م .) عندما جلب الأتراك وجندهم وجعلهم حرساً له وسنداً لعرشه بعد أن اشتد التناحر بين العرب والفرس على السيادة والنموذ في الدولة . ومضى من بعده الخلفاء في بغداد وحكام الدول في المناطق والأطراف يتبعون هذا المسلك ، إلى أن كان عهد الأيوبيين فغلوا فيه واكثروا من استخدام المماليك ، وكان لكل منهم فئة من هؤلاء تنتسب إليه ، كالصالحية نسبة إلى السلطان صلاح الدين ، والعادلية نسبة إلى العادل ، والكاملية نسبة إلى الكامل ، والصالحية نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي فسح في المجال بكثرة ما جمع وجيش من المماليك نزول الدولة الأيوبية وتسلط المماليك . وعندما جاء هؤلاء إلى الحكم ظلت هذه الفئات الموروثة من الأيوبيين قائمة إلى حين ، لمنشأها أو للتحويلات في موازين القوى لدى الحاكمين .

فالولاء الأول المؤثر عند ذوي السلطة حينذاك اذن ولا التبعية ، ولاء الخادم للمخدوم ، والمملوك للاستاذ ، ولاء لا يتوخى المجتمع بكامله ، بل ينحصر في الفئة التي هيتمي إليها المملوك ، ذلك أن بقاءه وسلطته وعزته رهينة ببقاء فئته وسيطرتها ، وبقوة صاحبها وشكيمته وقدرته على تولي الحكم والاحتفاظ به وردع الفرق الأخرى والتغلب عليها .

يضاف إلى هذا الولاء التبعية المصلحي ولاء آخر هو الولاء القطري أو البلدي ، فكان الشاميون (١) والحمويون (٢) والعساكر المصرية (٣) والشامية (٤) والحموية والخلبية والساحلية (٥) إلى غيرها من الدسب المتصلة بمناطق أو ولايات داخلية في حكم الدولة . وكان هذا الولاء الثاني شبيهاً بالأول في أنه لم يكن يخضع لولاء جامع شامل يضم المجتمع بكامله والشعب بأجمعه .

قلنا « الشعب » ، وكان يجدر بنا أن نتجنب هذا اللفظ ، لأنه لم يرد في المختصر ،

(١) ج ٤ ، ص ١٣ ، س ١٨

(٢) ج ٤ ، ص ٢٧ ، س ٣ و ٧

(٣) ج ٤ ، ص ٢٢ ، س ١١

(٤) ج ٤ ، ص ١٥ ، س ١٨ و ١٩

(٥) ج ٤ ، ص ٤٩ ، س ١٥

وإخال انه لم يرد في التواريخ الاخرى لذلك العصر . وفي الواقع انا قلما نجد ذكراً لعامة الناس او اشارة لاجوالهم في ذلك العصر إلا عند وقوع الشدائد كاستيلاء التتر على المدن وما يصيب أهلها من قتل وترويع وتخريب (٦) ، او الكوارث الطبيعية كالزلزلة التي حدثت عام ٥٧٠٣ . (١٣٠٤ م .) وفيها «هلك خلق كثير تحت الهدم» (١) ، والسيول في بلاد الشام (٢) ، أو الأوبئة وما يتبعها من غلاء وفناء (٣) ، وامثال ذلك . من المحن التي نجد صورة رهيبة عنها في مصادر ذلك العهد (وخاصة في الكتاب الذي يكاد يكون فريداً في هذا الموضوع وهو اغاثة الامة بكشف الامة للمقرزي «٤» ، والتي تبث في نفس القارئ اعق الاين لما جلبته للناس من ضيم وعذاب وهلاك يصعب علينا اليوم ان نتصور كيف قبلوا بها او استطاعوا ان يتحملوها .

- ٣ -

والواقع اننا إذا أردنا أن نستخلص جوهر الوضع السائد في ذلك العصر وجدناه ، يتمثل في حقيقتين مترابطتين ، أولاهما أن الكلمة كانت دوماً للقوة ؛ لا لقوة الجموع ، بل لقوة الفرد أو قوة جماعته . فقلما سجل التاريخ نظاماً كهذا النظام ، تمكن فيه أفراد من أن يرتقوا من حالة الرق التي كانوا فيها يشرون ويبيعون إلى أعلى مراتب الحكم والسطوة في دولة متسعة الرقعة عزيزة الشأن ، وذلك بفضل قدرتهم الشخصية أو تضامن جماعتهم ، أو بلا الأمرين معاً . قلما سجل التاريخ عهداً كهذا العهد كانت القوة فيه سبيل السيادة وعنوان الصدارة ، بل في أحيان كثيرة شرط البقاء والنجاة ، في مجتمع اشتد فيه وطيس التنافس على الحكم والسلطة اياً اشتداد ، ولم يكن فيه حاكم أو متسلط أية ضمانات إلا ضمانات السيف ، سيفه وسيف أصحابه وحلفائه . ان تاريخ المهاليك كله ينطق بهذه الحقيقة ومصادره مليئة بالاخبار الدالة على تجسدها في الدولة وتحكمها في الاحداث . ونكتفي هنا بشاهد واحد يعبر عنها ابلغ تعبير . بعد تغلب المهاليك على التتر في موقعة

(١) ج ٣ ، ص ٢٠٣

(٢) ج ٤ ، ص ١٥٠ س ١١

(٣) ج ٤ ، ص ١١٨ ، س ٦ و ٩ ، ص ٧٨ ، س ١٣ و ١٦ ، ص ٨١ و ٨٢ ،

(٤) ج ٣ ، ص ١٩٧ ، س ٣ ؛ ج ٤ ، ص ٣٣ س ١٠ - ١١

(٥) نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠ .

عين جالوت الشهيرة (٥٦٥٨ . . ١٢٦٠ م) سار السلطان الملك قطز عائداً إلى مصر مع كبار قادته ، ولكن هؤلاء كانوا قد اتفقوا على اغتياله ، فنفذوا خطتهم في طريق عودتهم وم على مرحلة من الصالحية (١) وكان الذي حمل عليه وضربه بالسيف بيبرس البندقداري الصالحي . وتابع هؤلاء القادة سيرهم حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية ... وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاي المستعرب ... فلما وصل بيبرس البندقداري مع الجماعة الذين قتلوا قطز الدهليز سألهم اقطاي المستعرب المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا قال له اقطاي يا خَوَند اجلنس في مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتخليف فحلقوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز ٥٠٠٠ . وسبق العسكر الى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها واستقرت قدمه في المملكة قد زينت مصر والقاهرة لمقدم قطز فاستمرت الزينة لسلطنة بيبرس المذكور (٢)

أما الحقيقة الثانية ، المتصلة بالأولى ، فهي الشقة الهائلة التي كانت قائمة بين الحاكم والمحكوم ، بل غياب المحكوم عن ذهن الحاكم الا من حيث كونه أداة استفلال ومصدر تمويل وتعبئة . ومن هنا كان أيضاً غياب هذا المحكوم ، على كونه يؤلف جبهة الناس ، غياباً يكاد يكون تاماً عن اهتمامات المؤرخين وكتابتهم ، كما رأينا عند أبي الفداء والواقع لنا إذا اردنا صورة لمجتمع يبلغ فيه تحكّم قلة بكثرة وتسلط طبقة محتكرة على جماهير مشغولة ابعد مدى ، فلعلنا لا نجد صورة ابلغ واشد اثاراً من هذه التي بين أيدينا . ان نظاماً كهذا الذي عاش أبو الفداء في ظله قد يأتي بانجازات لها قيمتها وأثرها . فمن انجازاته انه استطاع ان يبقى ويستمر ، عل رغم ما تخلفه من اضطرابات وقلاقل ، ما يزيد على القرنين والنصف (٦٤٨ - ١٢٥٠ ، ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) ، الى أنف انهار أمام هجمات الاتراك والعثمانيين وسلطتهم المناهضة حينذاك . ومنها أنه تغلب على أعداء أشداء له والمجتمع الاسلامي ، فاستولى على ما بقي في يد الفرنج الصليبيين من مدن وحصون - وأهمها انطاكية وطرابلس وعكا والكرك وحصن الكرك والمرقب - وطردهم منها وقضى على وجودهم في بلاد الشام وعلى خطرهم لمصر ، وذلك في العتود

(١) وهي المدينة التي بناها الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦م) « في أول الرمل الذي بين مصر والشام وأنشأ بها قصوراً وجامعاً وسوقاً لتكون مركز العساكر اذا خرجوا من الرمل » الخطط للعقري ، ج ١ (١٣٢٤) . ص ٢٩٧ .

(٢) ج ٣ ، ص ٢٠٧ و ٢٠٨ .

الاربعة الاولى من قيامه ، وبفضل ثلاثة من سلاطينه الاولين ، الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون والملك الاشرف خليل . وأفلح هذا النظام كذلك ، في الفترة التي نتحدث عنها ، في دفع خطر التتر وفي صد هجماتهم العنيفة المستمرة ، التي لو نجحت لاتيح للتتر على الارحج ان يكتسجوا مصر والشام وأن يغيروا تاريخ هذه المنطقة من العالم . ان من يتابع مختصر أبي القداء أو سواه من تواريخ ذلك العهد ليلحظ كثرة ما يرد فيها من اخبار التتر وهجماتهم المتتابة على بلاد الشام وتهديداتهم لها وللمصر ، ومن وصف فظائهم عندما كانوا يستولون على المدن ، وما كانوا يثيرونه من رعب وذهول في قلوب الناس ونفوسهم . وقد صمد الممالك لهذا كله وحاربوا التتر حروباً مريرة وردوهم على أعقابهم . بدأ هذا ، ودولة الممالك لا تزال في مهدها ، عندما تقدمت جيوش المالك بعد استيلائها على بغداد وقضاها على الخلافة العباسية فيها ، واكتسحت قسماً كبيراً من بلاد الشام ومعاقبها ، فوقف الممالك في وجهها في عين جالوت (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) وهزموها شراً هزيمة .

وكان السلطان حينئذ الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ ، ١٢٥٩ - ١٢٦٠) ، وأبلى بيبرس البندقداري ، وكان بعد أميراً ، بلاء حسناً في تلك الموقعة وفي ما سبقها وما لحقها (١) . وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فان القلوب كانت قد ينست من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولأنهم ما قصدوا اقياماً إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه (٢) . وتبع هذا النصر العظيم « مصاف » عظيم آخر بظاهر حص (٦٨٠ هـ ، ١٢٨٠ م) في عهد الملك المنصور قلاوون وانتهى بالنتيجة ذاتها ولاذت جيوش ابغا ابن هولاء بالفرار ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس منهم خمسون ألفاً من المقل والباقي حشود وجوع من اجناس مختلفة مثل الكرج والارمن والعجم وغيرهم (٣) . ومع ان التتر استطاعوا في غزوتهم الضخمة التالية بقيادة غازان ابن ارغون ان ينزلوا بالمسلمين هزيمة شديدة شرقي حص (٦٩٩ هـ ، ١٢٩٩ م) وان يستولوا على معظم بلاد الشام ، ويردوا عساكر المسلمين الى مصر (٤) ، فان كفة هؤلاء عادت فرجحت بعد

(١) ج ٣ ، ص ٢٠٥

(٢) الصفحة ذاتها ص ٢٥ و ٢٧

(٣) ج ٤ ، ص ١٥ ، ص ١٤ و ١٦

(٤) ج ٤ ، ص ٤٢ و ٤٣

ثلاث سنوات ، فكانت لهم « النصر العظيمة » في مرج الصفر (٧٠٢ هـ ، ١٣٠٢ م) (١) وسلمت بعدها بلاد الشام ومصر من غزوات المماليك وفضائهم مدة قرن من الزمن حتى مجيء تيمورلنك .

وبالإضافة الى تحرير البلاد من الفرنج الصليبيين وانقاذها من أخطار التتر واهولهم ، استطاع المماليك في هذه الفترة ان يبسطوا نفوذهم على بلاد النوبة ، وان يقاتلوا صلاحية الروم والارمن ويتوغلوا في بلادهم ، وان يذشمتوا شبكة من العلاقات الدولية بينهم وبين مغول القفجاق والامبراطور البيزنطي وبعض حكام اوربا .

هذا في الميدان الخارجي ، أما في الميدان الداخلي ، فقد كان لهذا العهد انجازاته في تقوية الجيش والاسطول وتوسيعها جنداً وعدة ، وفي تنظيم الادارة ، وفي اعمال البناء والعمارة . وفي هذا الحقل الأخير يعود الفضل الى السلاطين الثلاثة البارزين في هذا العهد : الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون . فمما أنشأ هؤلاء ، بناء او تجديداً ، من جوامع ودور ومدارس وأضرحة وحمامات ، ومن قباب وقلاع وجسور وقناطر وترع (٢) ، يشير العجب بكثرتة وروعته . لقد كانت يدهم مطلقة في جمع الاموال وانفاقها وفي حشد الرجال واستخدامهم ، وكان يهمهم حماية ملكهم وبسط نفوذهم وتحليل ذكركم ، فجاء عهدهم من ابي العهود الاسلامية في حقل البناء ، ومن الغريب حقاً ان هؤلاء السلاطين الذين انتزعوا من منافسهم ، ولم تكن لهم اصالة ثقافية او فنية ، استطاعوا ان يجعلوا من بعض اهلبيتهم ، بما جندوا لها من مهرة البنائين والصناع ، من اجل الآثار التي شييدت في مصر والشام بل في العالم الاسلامي عامة . ومثل هذه الروعة الفنية نجدها ايضاً في ما ورثناه من ذلك العهد من تحف وطرף ، معدنية او زجاجية او خشبية او سواها ، تميزت بدقة صنعها وجمال تزيينها ، ولا يزال ما حفظ منها في الابنية القائمة او المتاحف ودور الآثار يشير الاعجاب والتقدير .

وليس هذا فحسب ، اذ ثمة ايضاً انجازات في حقل العلم ، وخاصة في الطب والتاريخ

(١) ج ٤٤ ، ص ٤٨ و ٤٩

(٢) راجع مثلاً تعداد ما أنشأ الظاهر بيبرس في قوات الوفيات ، ج ١ ،

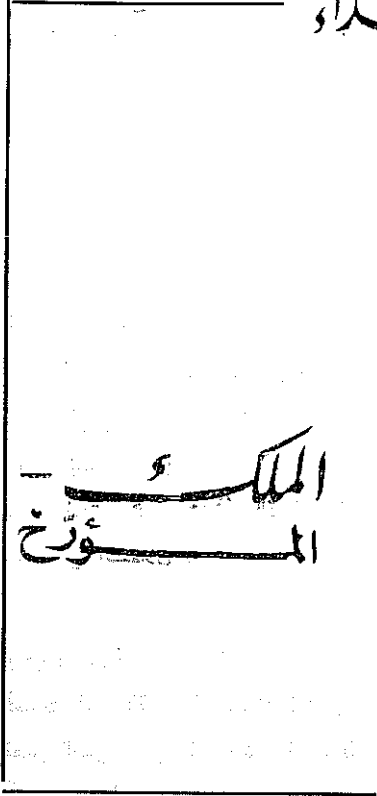
والادارة والموسوعات الأدبية، لا يسمح لنا مجالنا هنا بتفصيلها. ولكن لابد من القول ان هذا الانتاج ، على ضخامته ، لم يتميز بالابتكار والابداع. لقد حفظ التراث السالف وفصلته واطاف اليه هنا وهناك واختصره ونظمه ، ولكنه لم يخرج عن قواعده بل ظل مقدماً له ومحسوراً في نطاقه . واذا اعترض معترض بالابتكار العالمي العظيم الذي جاء على يد ابن خلدون، فلنذكر ان أفكار ابن خلدون التاريخية والاجتماعية كانت قد تكونت، وتأريخه ، بما فيه المقدمة ، كان قد وضع بصورته الأولى ، قبل ان يقدم ابن خلدون من المغرب الى مصر .

وخلاصة ما نود ان نسجله للنقاش ، للاطمئنان الى صحته أولاً وللاعتبار به ثانياً ، هو ان عهداً كهذا الذي عاش فيه ابو الفداء، قد يحقق انجازات حربية وعمرانية وعلمية يحق لاصحابها وخلفهم ان يعترفوا بها ويحيدوا بالمؤرخ ان يقر بها ويسجلها ، ولكنه ليس خليقاً بأن يضمن الاستقرار والازدهار وان يسلك مسالك التقدم والرفق . وذلك بسبب العلتين الاساسيتين اللتين ذكرناهما ، وهما : اعتماد اصحاب السلطة المصلحة -- مصلحتهم هم -- هدفاً والقوة عدة وسنداً ، وانفصالهم عن جمهور الشعب واستقلالهم اياه اسوأ استقلال .

لا شك ان للقوة فعلها في حياة الدول والمجتمعات ، لكن ماهية هذا الفعل واثره وخيره وشره انما تتوقف على المبادئ السائدة والقيم المعتمدة . فاذا ضاعت المبادئ او فسدت عدت القوة المجردة اداة تخريب وتبديد وتخلف ، اما اذا صحت وظلت دوماً نصب العيون وقيمة الجهود ، كانت القوة عوناً على تحقيقها وسبيلاً الى التحرير والترقية : تحرير المواطن وترقية الانسان .

هذا هو ، في نظري ، خلاصة ما يجب ان نستذكره ونعتبر به من استعراضنا لعصر ابي الفداء — ذلك العصر الذي ، رغم انجازاته السقي وصفنا ، غاب عنه المواطن وكاد ينعدم الانسان . فاذا استذكرنا واعتبرنا كان في ذلك تعزيز لطموحنا واذكاء جهودنا لبناء مجتمعات عربي افضل — افضل مما نحن فيه وما كنا عليه — مجتمع يتجلى فيه تحرر المواطن العربي ورتقي الانسان العربي ، ويمثل مرحلة ايجابية زاهية في مسيرة لامة العربية لتكوين ذاتها واعلاء شأنها واداء رسالتها .

أبوالفداء



البيعة
الأمير

الديكتور سهيل زكار

حماة وقيام المملكة الايوبية فيها :

بعد ان تم للعرب في بداية القرن الاول للهجرة / السابع للميلاد ، فتح بلاد الشام وتحريرها من حكم الامبراطورية البيزنطية ، قاموا بتقسيم هذه البلاد الى اربعة اقسام عسكرية ادارية ، دعي كل واحد منها باسم جنود ، وهي : جنود فلسطين ، جنود الاردن ، جنود دمشق ، جنود حمص . وقد شمل جنود حمص وسط بلاد الشام مع قسمها الشمالي .

ومع توقف التوسع داخل الاراضي البيزنطية وتوضيح منطقة الحدود بين بلاد الشام وبيزنطة ومع استمرار الاعمال العسكرية العربية البيزنطية ازدادت اهمية المنطقة الشمالية من بلاد الشام ، وكانت مدينة قنسرين اهم مدن هذه المنطقة وتلاها في الاهمية مدينة حلب .

وفي النصف الثاني للقرن الاول للهجرة ، في اواخر عهد معاوية بن ابي سفيان ثم زمن حكم ابنه يزيد ، اتجهت الخلافة الاموية نحو تقسيم جند حمص الى قسمين ، بحيث تفرد شمالي بلاد الشام في جند خاص ، وتم هذا ايام يزيد بن معاوية ، الذي كان من جهة ماحدثه اقامة جند جديد عرف باسم جند قنسرين .

وكانت بلاد الشام قبل الفتح العربي ، تعج بالقبائل العربية ، التي انحدر غالبيتها من اصل يمني ، وكانت قبائل طيء وتذوخ أبرز قبائل شمالي بلاد الشام ومنطقة الجزيرة ، يستخلص من الكتابات المبرانية للقرن السادس قديماً بعد ومن المصادر العربية لأخبار فتوحات بلاد الشام ان عناصر هذه القبائل كانت في القرن السابع قد فقدت معظم طبيعتها البدوية ، ومات نحو حياة الاستقرار في مناطق خاصة التحقت بمدن الشام ودعي كل منها باسم « حاضر » .

وبعد استتمام حركة الفتح العربي ، قامت قبائل كثيرة بالهجرة من شبه الجزيرة العربية نحو البلاد المفتوحة ، ولقد سلكت القبائل التي هاجرت من شمالي الجزيرة طريق وادي الفرات وصعد بعضها شمالاً نحو اقليم الجزيرة ، ثم تحول غرباً نحو شمال بلاد الشام . واستطاعت القبائل الجديدة ان تستقر في مناطق هجرتها الجديدة ، وان تسال لنفسها السيطرة والسيادة دوفا مزاحمة من القبائل القديمة .

وكان لهذه الهجرة آثاراً كبيرة على التركيب البشري والقبلي لشمالي بلاد الشام ، كما لها نتائج على مستقبل شمالي بلاد الشام السياسي والاجتماعي والحضاري ، وظهرت اول هذه النتائج في تميز شمالي بلاد الشام ودفع الخلافة الاموية نحو جعله جندياً خاصاً . ومع الأيام ازداد تميز هذا الشمال ، وبنفس الوقت برز بين القبائل التي هاجرت إليه قبيلة كلاب ، واخذ بعض زعماء هذه القبيلة يرنو ببصره نحو السيطرة على جميع اجزاء بلاد الشام ، وتحقيق السيادة والامارة على جميع قبائل عرب الشام ، ولقد برز هذا بعد وفاة يزيد بن معاوية ، ووضح اثناء الصراع من اجل الخلافة بعده ، خاصة في معركة مرج راهط سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م ، ففي هذه المعركة قاتل زفر بن الحارث الكلبي تسالده

قبائل الشمال القيسية الأصل ، ضد مروان بن الحكم الذي ساندته قبيلة كلب وسواها من قبائل اليمن ، وهزم زفر بن الحارث في هذه المعركة ، وفر نحو الشمال ثم شرقاً حيث اعتصم في مدينة قرقيسيا (البصيرة حالياً في سورية) وامتنع لفترة من الزمن عن الاعتراف بالخليفة الأموي الجديد .

لقد كان لمعركة مرج راهط نتائج كبيرة على تاريخ بلاد الشام بعدها ، فقد أزيلت هذه المعركة تقسيمات الأجناد من الناحية السياسية ، وحولت الشام الى دارين يفصل بينهما خط وهمي يمر قرب الرستن على العاصي ويمضي شرقاً داخل بادية الشام ، وصارت الدار الشمالية دياراً لـكـلاب والجنوبية لـكـلب .

واستمر الصراع بين كلب و كلاب ، ونتاج عن هذا الاستمرار توضح الانقسام السياسي الذي حل ببلاد الشام ، وكان لذلك نتائج كبيرة للغاية على مستقبل عدد من المدن الشامية البارزة ، فلقد تأثرت حمص بشكل كبير ، وبدأت تفقد أهميتها تدريجياً ، كذلك تأثرت مدينة قنسرين ، فأخذت تتقهقر ، وازدادت أهمية حلب ، وتقدمت هذه المدينة لتحتل مكان الصدارة بين مدن الشام ، وذلك على حساب كل من قنسرين وانطاكية ، وأصبحت حلب عاصمة ديار الشمال ، ومركزاً للصراع مع الجنوب ، وفي نفس الوقت عظمت أهمية مدينة دمشق ، وأصبحت مركز الجنوب الرئيسية - بالإضافة لكونها عاصمة الخلافة الأموية - ومع الأيام بدأ الصراع بين كلب و كلاب يتحول الى صراع جنوب بلاد الشام وشمالها ، أو بين حلب ودمشق ، وتوضح هذا بعد زوال الدولة الاموية بفترة من الزمن .

ذلك ان الدولة العباسية ، التي اتخذت من العراق مركزاً لها ، انشغلت كلياً بمشاكل شرقي دار الخلافة ، واولت الاقسام الغربية القليل من العناية . لذلك تطور في منطقة الحدود مع بيزنطة نظام دفاعي ، وكان هذا التطور من الامور التي ساهمت في ازدياد أهمية مدينة حلب . وبداية لتحولها الى مركز سياسي شبه مستقل .

وبعد مصرع الخليفة التوكل على الله العباسي ، واستيلاء الجند على مقاليد الامور في مركز الدولة العباسية ، اخذت اجزاء كثيرة واقعة على اطراف هذه الدولة ، خاصة في الغرب ، بالانفصال ، وتكوين دول شبه مستقلة ، وانتقلت عدوى الانفصال من قسم الى آخر كل ذلك في الوقت الذي ازدادت فيه امور عاصمة العباسيين اضطراباً وضعفاً ، وكان من بين المراكز التي انفصلت والاقاليم التي استقلت اقليم مصر .

ومارست دول مصر الاسلامية المستقلة بعد قيامها سياسة خارجية محددة تجاه بلاد الشام ، ونبتت هذه السياسة من طبيعة تركيب مصر القديمة وبلاد الشام ، فمصر التي هي عبارة عن سهل ليس له حدود ذات موانع طبيعية تحميه ، غزيت دائماً عن طريق بلاد الشام ، لذلك قامت سياسة هذا البلد القديمة على احتلال بلاد الشام للتسدي لكل هجوم طارىء خارج اراضي مصر ، ولقد ترافق هذا الاحتلال في كثير من الاحيان مع مطامح الحكم وورغباتهم في التوسع ، كما انه دفع نحو التوسع الامبراطوري .

وآن الذي حدث بعد قيام دولة مصر الاسلامية ان هذه الدولة نجحت في احتلال بلاد الشام ، اما اخفقت في الاحتفاظ بالقسم الشمالي من هذه البلاد ، وكان من اهم اسباب الاخفاق : بعد الشمال عن مصر ، ووجود قبيلة كلاب التي حرصت على المحافظة على استقلالها في ديارها ، ثم سياسة الامبراطورية البيزنطية التي ابتغت ان لا تكون حدودها المباشرة مع دولة اسلامية قوية ، بل أرادت ان يكون بينها دولة صغيرة حاجزة ، وهكذا حافظت على استقلالها ، واخذ الكلابيون يحاولون اقامة دولة مستقلة فيها . لكن طبيعة تركيب قبيلتهم ثم وجود الدولة الحمدانية في الموصل حرمهم من ذلك ، وساعد على قيام الدولة الحمدانية ، في حلب ، وهكذا غدت مدينة حلب مركزاً لدولة صغيرة تحكم شمال بلاد الشام ، وتطلع الى احتلال الجنوب ، وفي نفس الوقت بذلت دول مصر الاسلامية المستقلة قصارى جهدها للاحتفاظ بجنوب بلاد الشام وسعت دائماً لاحتلال الشمال ، وعلى هذا الاساس استمر النزاع بين حلب ودمشق ، وتوضح هذا بشكل ملحوظ في القرنين الرابع والخامس / هـ / العاشر والحادي عشر / م / هـ .

وأثناء هذا الصراع ازداد اضمحلال مدينة حمص ، وساعد على ذلك تعرضها في القرن العاشر لغزوات بيزنطية التي هدمتها . ودمرت منطقةها اكثر نحو الانحدار - والاضمحلال وصارت منطقة حياة ارض الصراع بين دمشق وحلب وساعد هذا الصراع على دفع حياة وتقدمها ، ولما لم يوصل الصراع بين حلب ودمشق الى نتائج حاسمة دائمة لصالح أحد الطرفين ، فقد استفادت منطقة حياة من ذلك ، وبدأت تتحول منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من حقن للصراع الى منطقة عازلة بين القوتين المتصارعتين ، وتطورت مدينة حياة من بلدة صغيرة كانت تابعة لجند حمص ، وبدأت تتحول الى مدينة من أبرز مدن الشام وأكبرها .

ومما زاد من أهمية مدينة حماة وساعد على بروزها موقعها الاستراتيجي الهام ، واحاطتها بعدد من المراكز الحصينة مثل : شيزر ، وكفر طاب ، وغيرها ، ثم مرور نهر العاصي بها وسقايته لسهولها ، مما وفر لها موارد اقتصادية تدفع بذوي المطامح للاستيلاء عليها ، وتستطيع تحمل نفقات دولة مستقلة ذات ادارة وجند وبلاط خاص بها .

وبعد ما دخلت جموع الصليبيين بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد لم تستطع هذه الجموع الاستيلاء على مدينة حماة ، كما ان حصن شيزر كان قد نجح من احتلاله أيضاً ، وتمركز الصليبيون غير بعيد عن حماة ، وصارت أحد مراكز مقاومة الاحتلال الصليبي .

وفي الوقت الذي رفع فيه الخطر الصليبي من شأن مدينة حماة ، وجد خطر آخر من شأنها أيضاً ، وجاء هذا من تمركز قوى الدعوة الاسماعيلية الجديدة - الحشيشية - في عدد من القلاع والحصون والمراكز الواقعة في غربي حماة ، ولقد وجه الاسماعيليون نشاطهم ضد السلطات السنية للسلطة السلجوقية ، ثم ضد وراثتها من بعدها ، وصارحت حماة نتيجة لذلك أبرز مراكز رصد النشاط الاسماعيلي والتصدي لمخاطره .

ومن المعروف أن بلاد الشام قد تعرضت في النصف الثاني للقرن الحادي عشر للميلاد لهجرة التركمان التي ترافقت مع قيام السلطنة السلجوقية ، ولقد أثر انسياح التركمان على الوضع السياسي والبشري والقبلي والاجتماعي والحضاري والاقتصادي والديني لبلاد الشام وأطراف الفرات ، والتوجه جنوباً ، واستقر الكثير من القبائل العربية في المناطق الواقعة الى الشرق من مدينة حماة ، وكانت هذه القبائل في حركة دائمة وفي صراع داخلي وخارجي متواصل ومؤثر في نفس الوقت ، ورفع وجود القبائل من شأن حماة . حيث أصبحت سوقاً لوارداتهم وصادراتهم .

واستدعى هذا وجود سلطات قوية في حماة لتحدد من نشاط القبائل ولترصد تحركاتها وهكذا توفر مع الايام لجهاه جهاز إداري خاص ، وتبئات جميع الظروف لقيام دويلة مستقلة بها .

واستمرت الحال هكذا الى ان قامت الامبراطورية الايوبية التي اسسها صلاح الدين الايوبي واقامها على تركة دولة الاتابكة ، ولم ترث امبراطورية صلاح الدين املاك الاتابكة فقط بل ورثت اسس حكهم التي نبعت من نظام السلطنة السلجوقية التي كانت

عبارة عن اتحاد دويلات كل واحدة منها تحكم من قبيل امير عشيرة تركمانية ، او قائد قوة عسكرية ، وكان قد تطور في عهد السلطنة السلاجوقية نظام الاقطاع العسكري ، وعندما قامت دولة صلاح الدين أخذت بأنظمة السلاجقة وطبقتها .

وكانت امبراطورية صلاح الدين في ايامه عبارة عن اتحاد يضم عددا من الدول المتفاوتة الاحجام ، وبعد وفاة صلاح الدين استمر الوضع ذاته ، انما مع فارق هو : توضيح ما كانت بوادره قد ظهرت في اواخر ايام صلاح الدين ، فقد بدأ آنذاك واضحا للعيان ضعف هذا النظام وكثرة معائمه ، فقد تصارع اصحاب الدول بين بعضهم البعض وضد السلطنة المركزية التي اتخذت من القاهرة قاعدة لها ، واستمر النزاع بين دمشق وحلب ، وبعد زوال الحكم الايوبي وقيام حكم المماليك لم يتغير هذا النمط ، ذلك ان دولة المماليك التي اتخذت من مصر قاعدة لها ، بذلت قصارى جهدها للحفاظ على حكمها لبلاد الشام .

وكان لقيام غزوات المغول ، وتأسيس حكم الايلخانيين وغزواتهم المستمرة اثر كبير في استمرار اهمية مدينة حماة وتقدمها .

وكان من جملة الدول الايوبية التي قامت زمن صلاح الدين دولة حماة ، فقد اقطع صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب حماة ، وذلك اثناء عمله في سبيل تصفية الدولة الاتابكية وفي سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م زاده على حماة المعرة ، وكفر طاب ومنبج ، وميا فارقين وحل تقي الدين عمر هذا لقب المظفر ، وصارت من تيمته مرتبة ملك ، وفي سنة ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م توفي الملك المظفر هذا ، وكان صلاح الدين ما يزال حيا ، وعقب وفاته ورثه ابنه محمد بلقب الملك المنصور ، وارسل الملك المنصور الى صلاح الدين يخبره بوفاة ابيه ، ويعلمه بقتيامة مكانه وراثته ، فرفض صلاح الدين الاعتراف به لكنه ما لبث ان تراجع وقرر الملك المنصور حماة ، وسلمية ، والمعة ، ومنبج ، وقاعة نجم . وجلب هذا الاعتراف الرسمى من السلطان - الامبراطور الى الوجود شرعيا دولة حماة الايوبية ، وحولها من اقطاعية عسكرية الى ملكة وراثية .

ومنع الايام أخذت هذه المملكة تتخلى عن ممتلكاتها في الجزيرة وغيرها مقابل ممتلكات قريية من مدينة حماة ، وتورط ملوك هذه الدولة في منازعات افراد البيت

الأيوبي أحياناً ، ووقفوا موقف الحياد أحياناً أخرى ، حيث شغلوا دور الوسيط المهادن بين المتنازعين ، وقد منح هذا الدور ملوك حماه احتراماً خاصاً ، ووهبهم مكاناً علياً بين الحكام الأيوبيين ، ويبدو ان ملوك حماه استطاعوا ان يقيموا علاقات تهادت مع جيرانهم الحشيشية في المغرب ومع امراء القبائل البدوية في الشرق لذلك نعمت دولتهم بالاستقرار ، مما ساعد مملكتهم على الرفاه والتقدم .

وبعدما زالت السلطنة الأيوبية في مصر ، ولحقها دويلات بني ايوب في شمال بلاد الشام وجنوبها ، استمرت مملكة حماه الأيوبية وبقية حية ، ولعل مرد ذلك الى النزاع بين حلب ودمشق ثم لبشاط قبائل البدو العربية ، خاصة الفئات المنحدرة من قبيلة طيء وتحالفاتها ، وكانت هذه القبائل تفضل التعامل مع ملك مستقل في حماه من ان تتعامل مع نائب تابع للسلطنة ولعل السلطة ورغبت للسبب نفسه استمرار وجود مملكة في حماه تستطيع بطاقتها الذاتية التعامل مع قبائل البدو ، وتتمكن من كف عاديهم بطرائقها الخاصة ، والاخذ بمثل هذا المنهج امر معروف في تاريخ بلاد الشام وبعده .

ويمكن ان يضاف الى هذا ما سبق الاشارة اليه وهو غزوات المغول الايلخانيين مع نشاط المماليك ضد ارمينية ، فقد كانت حياة قاعدة هامة من قواعد رصد المغول والتصدي لهم ، كما انها كانت محطة هامة للقوات التي كانت تذهب ضد ارمينية .

الامير :

ان مصدرنا الاسامي بالنسبة لحياة ابي الفداء هو ما تناثر من اخبار ، ذكرها عرضاً في ثنايا القمم الاخير من كتابه في التاريخ الموسوم بالمختصر في اخبار البشر ، ففي جمادى الاولى لسنة ٦٧٢ هـ / تشرين ثاني ١١٧٣ م ولد أبو الفداء اسماعيل بن علي ابن محمود في مدينة دمشق ، ذلك ان اهل من الاسرة الأيوبية لمدينة حماه جاؤوا دمشق في تلك السنة جاقلين بسبب تواتر اخبار تحرك حملة مغولية كبيرة نحو بلاد الشام .

لكن يبدو ان هذه الاسرة لم تقم طويلاً في دمشق ، بل عادت ادراجها الى حماه بعد زوال الخطر المغولي ، وليس لدينا في المصادر المتوفرة ما يروي لنا شيئاً من اخبار طفولة ابي الفداء انما يبدو - قياساً - انه تلقى منذ طفولته المبكرة ما كان يتلقاه ابناؤه طبقة في عصره من ثقافة عربية اسلامية عامة ، وتدريبات عسكرية وخبرة سياسية .

ويشير أبو الفداء إلى أن عمه الملك المنصور أحمد صاحب حماء توفي سنة ٥٦٨٣ هـ - ١٢٨٤ م خلفاً لابنه المظفر محمود ، وعند تنصيب هذا الملك الجديد تسلم اعترافاً من السلطان المملوكي في القاهرة وأرقى هذا الاعتراف بعدد من التشاريف - الخلع - وكان أبو الفداء من جملة أمراء البيت المالكي الذين لبسوا تشاريف السلطان .

لقد كان أبو الفداء كما يبدو ثاني ثلاثة ذكور ولدوا لأبيه الملك الأفضل ، وهم بالإضافة إليه : بدر الدين حسن الذي كان أكبر منه بثلاث سنين . ثم أسد الدين عمر .

وكان الملك الأفضل هذا شبه شريك لابن أخيه الملك المظفر في ملك حماء ، وقد توفي الملك الأفضل سنة ٥٦٩٢ / ١٢٩٢ م ، وفي أيام حياة الملك الأفضل وبعد وفاته كان أبو الفداء أبرز أبناء أبيه ، لذلك كان ينوب عن والده ويقوم ببعض المهام عوضاً عنه ، وعلى سبيل المثال نجده يذهب في السنة التي توفي بها والده إلى مقابلة السلطات المملوكية الأشرف خليل بن قلاوون ، ويقدم له بعض الهدايا باسم أبيه ، وبعد وفاة الملك الأفضل التحق أبو الفداء بخدمة ابن عمه الملك المظفر وبدأ يحتل المكانة التي كانت لأبيه في المملكة ، ذلك أنه بعد وفاة أبيه مباشرة إعطاه الملك المظفر أمرة طبلخاناه وأربعين فارساً .

وبعد ما أصبح مؤرخنا واحداً من كبار ضباط جيش حماء الإيوني أخذ يشارك في جميع الأعمال القتالية التي كان يقوم بها هذا الجيش منفرداً أو مشاركاً ضمن جيوش السلطنة المملوكية . ففي سنة ٥٦٩٧ / ١٢٩٨ م كان ضمن الحملة المملوكية ضد أرمينية - سيس - وأثناء وجود هذه الحملة في أرمينية أصيب ابن عمه الملك المظفر بمرض ولم يكن بصحته طيبه ، فقام أبو الفداء بمعالجته « فشفاه الله تعالى وإعادة إلى العافية » وتشير هذه الحادثة إلى أن الطب كان من جملة المعارف التي درسها أبو الفداء وأجاد معرفتها ، وتحتوي مصادرنا إشارات أخرى مشابهة فيها إن أبا الفداء كان في الطب طبيبياً ، كما أجاد معارف فنون أخرى ، ذلك إن ثقافته كانت ثقافة موسوعية راقية ، ورفيها دليل على أن الحضارة العربية زمن أبا الفداء كانت حضارة متأزلة تدب فيها الحياة ، لذا كانت ذات أبعاد كثيرة وجوانب مبدعة ، تسيطر عليها أصول العقلية العربية وتتحكم بها .

وفي سنة ٥٦٩٨ / ١٢٩٩ م شارك أبو الفداء في أعمال السلطنة المملوكية العسكرية واستعداداتها الحربية بغية التصدي لحملة مغولية كانت متوقعة ، وفي السنة هذه المعرفة - م - ٤

بالذات أصيب مع ابن عمه المظفر بمرض حاد نجا هو منه بعد أن كاد ان يؤدي به ، لكن الملك المظفر كان أقل حظاً منه ، ويحدثنا أبو الفداء بنجر ما وقع قائلاً : « وفي هذه السنة أعني ثمان وتسعين وسمائة ... توفي صاحب حياة السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود . وكان مرضه حمى محرقة ، وكان سبب ذلك ، مع فراع العمر انه كان غاوباً برمي البندق واتفق له فيه صعوبات حسنة ، فأراد أن يرمي النسر من طيور الواجب ، فقصد جبل غاروز ، وهو جبل مطل على قسطنطين ، وكان ذلك في شدة الحر ، وقتل حماراً وتركه على موضع بذلك الجبل ، وعمل في أغصان الشجر كوخاً ، وكان يجلس في الكوخ ، وأنا معه ، ومموك له ، ومن يشاهده في رمي البندق ، وكان يدخل الى الكوخ في السحر ويظل فيه الى الظهر ولا يتكلم انتظاراً لنزول النسر على جيفة الحمار ، وكنا نشم نبت تلك الجيفة ، واتفق نزول النسر في تلك الحالة ، ولم يقدر له رمية ، ثم عدنا الى حماه فابتدأ بنا المرض ، وبلغت الموت ، وفي مدة مرضي مرض الملك المظفر وعادني وهو قد ابتدأ به المرض ، ثم بعد بضع عشر يوماً توفي » .

وكان لوفاة الملك المظفر المفاجئة هذه نتائج كبيرة على مستقبل ملكة حماه الايوبية بعده ، ذلك انه كان شاباً لم يبلغ الثانية والاربعين من عمره ، ويبدو انه لم يكن له ولد يستطيع وراثته ، وكانت السلطنة المملوكية تعاني من عدد من ازيمات الصراع على السلطة بين عدد من الامراء . وكان هناك حاجة الى بعض الشواغر الوظيفية العالية لتملاء ببعض قادة المالكين ترصية واسكناً ، وكانت وفاة الملك المظفر وشغور عرش حماه فرصة اهتمت بها السلطنة ، وقد ساعد السلطنة ومكنتها من النجاح هو ان افراد البيت الايوبي لم يتفقوا على ترشيح واحد منهم كي يملأ عرش حماه .

وقامت السلطنة بتعيين نائب لها يحكم ملكة حماه ، وبعد مدة ابدلته بآخر ، واستمرت تفعل هذا قرابة اثني عشرة سنة ، ولقد امضى ابو الفداء هذه المدة كلها في حماه ولم يترك حماه الا حينما كان يذهب في مهمة من المهام ، او حين كان يمضي لزيارات قصيرة لدمشق ، وحينما ذهت في سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م الى الاراضي المقدسة لتأدية قرينة الحج ، ووما هو جدير بالملاحظة انه عرج في طريق عودته من حجه على فلسطين فزار القدس والحليل .

صار ابو الفداء في هذه الفترة ابرز شخصيات حماه ، واخذ يسعى لاستلام مقاليد

الامور فيها ، واحياء حكم اسرته المندثر ، وقد اتصل بالسلطنة اكثر من مرة ، فوعد خيراً ، وفي سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م اضطر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الى ترك القاهرة والقدوم الى الكرك حيث أخذ يعد العدة لاستعادة عرشه ، وفي سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م جاء الناصر الى مدينة دمشق فالتحق به ابو القداء . وسافر في ركبته مسانداً الى القاهرة ، وبعد ما استعاد الناصر عرشه ، كاد أبو القداء أن يستعيد ملكة آباءه لولا تدخل احد المهالك الكبار واسمه أسنمر الذي طالب بنبياة حماه لنفسه ، وسبب هذا وقوع النزاع بينه وبين أبي القداء لذلك استقر الاخير في مدينة دمشق ولم يذهب الى حماه .

وفي السنة التالية ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م سافر الأمير عيسى بن مهنا ، امير عرب الشام وقبائلها الى القاهرة ، وهناك اجتمع بالسلطان الناصر وطلب منه تعيين ابي القداء لحكم حماه فاستجاب السلطان .

الملك

في الثامن عشر من جمادى الاولى لسنة ٧١٠ هـ / ١٣ تشرين اول ١٣١٠ جاء الى أبي القداء مرسوم سلطاني بتعيينه نائباً للسلطنة ليقوم بحكم ملكة حماه ، وبعد مضي اكثر من شهر وبعد زوال بعض العقبات ، دخل أبو القداء مدينة حماه وتسلم زمام الامور فيها بلقب الملك الصالح عماد الدين ، وبعد ان استقر قليلاً في منصبه الجديد جهز نفسه وتوجه نحو القاهرة حيث قابل السلطان وقدم بعض الهدايا ، وقد لاقى في القاهرة ترحيباً واستقبالاً حسناً ، وافتم أبو القداء بتمتين علاقاته بالسلطان المملوكي فقام بزيارته مرة ثانية سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م وعاد بعد أن مكث قليلاً الى مقر حكمة وهو يحمل رتبة جديدة ولقباً جديداً أيضاً ، فقد قوض اليه السلطان حكم حماه ملكاً لائيباً ولقبه بالملك المؤيد « وحكمه في حماه يفعل فيها ما يجتاز من اقطاع وولاية من غير مراجعة ، وأذن له أن يخطب له بجماه واعمالها على ما كان عليه الملك المنصور » .

ليس في حياة ابي القداء وحكمه لملكه حماه ما يشير الانتباه من حوادث هامة ، حيث ان المملكة كانت امورها مستقرة ، وقد تمتع أبو القداء بحب أهل حماه ، وكان هو حاكماً هادئاً يقيم بالعدل ويبدو انه لم يتسم بالشره وحب المال والمظهر ، فقد كان رجل ثقافة وعلم اكثر منه رجل احتراف لسياسة والحكم ، واستطاع ابو القداء أن يقيم علاقة طيبة وطيدة مع السلطنة في القاهرة ، وكان يحظى باحترام السلطان ومحبة ، وقد زار

أبو الفداء القاهرة أكثر من مرة قابل خلالها السلطان وقدم له الهدايا ، هذا ونحن لانملك معلومات اكيدة تتعلق بدفع اية ضرائب حولية للسلطنة ، وقد قام أبو الفداء أثناء فترة حكمه بتأدية فريضة الحج مرتين ، قام للمرة الأخيرة سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م بها برفقة السلطان ، وبعد الانتهاء من الحج عاد مع السلطان الى القاهرة وهناك قام الاخير بمنح أبي الفداء رتبة جديدة هي رتبة السلطنة . ويخبرنا المقرئ عن ذلك بقوله : « وتوجه مع السلطان للحج ، فلما عاد عظم في عين السلطان لما رآه من آدابه وقضائه وعلومه ، واركبه في يوم الخميس سابع عشر من المحرم سنة عشرين وسبعمائة بشعار السلطنة » .

وبعد ما نال أبو الفداء المرتبة الجديدة صار يخاطب في المراسلات الرسمية بمخاطبة خاصة من قبل السلطان المملوكي ومن قبل نواب السلطنة في بلاد الشام ، وزار أبو الفداء مصر بعد تسلطه ثلاثة مرات كانت آخرها سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م ، وفي السنة التالية ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م فقد والدته ، وبعد ذلك بأربع سنوات توفي أبو الفداء في جماد سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، وذلك بعد مرض ألم به ، وقد دفن بعد وفاته في مسجد كان شيده سنة ٧٢٧ هـ ، وهذا المسجد ما يزال قائماً في حماه ، ويعرف باسم مسجد الحيات .

المؤرخ

عرفت بلاد الشام نهضة علمية وثقافية رائعة ، وتوضحت هذه النهضة منذ القرن العاشر وتمثلت هذه النهضة في اعمال عدد من اعلام الفكر من شعراء وادباء ورجال لغة ، وفقهاء وفلاسفة ، كما تمثلت بكتابات عدد من المؤرخين . وكانت معرفة الذهان من أبرز مراكز النشاط الفكري في بلاد الشام ، وفي المعرفة ظهر عدد كبير من المؤرخين من أشهرهم : أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب ، وابن زريق يحيى بن علي التنوخي ، وكان ابن المهذب من تلامذة ابي العلاء ، كما توفي ابن زريق في العشرستين الأولى للقرن الثاني عشر للميلاد .

وقد كتب ابن المهذب تاريخاً للاسلام وقف معظمه لأخبار بلاد الشام ، كما كتب ابن زريق تاريخاً وقف معظمه لأخبار سلاجقة بلاد الشام والحمة الصليبية الاولى .

وقد أحاط بمعرفة الذهان عدد من المراكز الثقافية ، لعل من أشهرها بلدة كفر طاب ، وقد عاش في هذه البلدة وحكمها الاسرة المنقذية ، وفي اواخر القرن الحادي

عشر للميلاد ملكت هذه الاسرة حصن شيزر ، وقد ظهر بين أفراد هذه الاسرة عدد من الامراء العلماء ، وقامت في شيزر حركة ثقافية رائعة تأثرت بمعة النعمان وحلب وغيرهما ، ومن اشهر امراء الاسرة المنقذية الذين كتبوا في التاريخ ، الاخوة الثلاثة ، اسامة بن مرشد ، وعلي بن مرشد ، ومنقذ بن مرشد . وقد كتب منقذ تاريخاً جعله ذيلاً لتاريخ ابن المهذب ، كما كتب علي بن مرشد كتاباً في التاريخ عرف به : أما اسامة الذي كان أوسع اخوانه شهرة ، فقد كان أيضاً اكثرهم إنتاجاً في ميدان التاريخ والأدب .

وبعد ما دخل الصليبيون بلاد الشام لأول مرة ، استولوا — فيما استولوا عليه — على معرة النعمان وهدموها ، وشردوا اهلها ، وقتلوا معظمهم ، كما استولوا على كفر طاب وجعلوها تعاني نفس مصير معرة النعمان ، ودفع هذا اعداداً كبيرة من اهالي البلديتين الى الهجرة الى مدينة حماة والاستقرار فيها ، وقبيل قيام الامبراطورية الايوبية بسنوات قليلة تدمت شيزر بفعل زلزال عنيف ، وسبب هذا ذهاب عدد من سكانها الى حماة .

وهكذا تجمع في حماة عدد من العلماء والكتاب كما تجمع بها بعض المكتبات الغنية ، وعندما قامت الدولة الايوبية في حماة ، كانت هناك يوادر للنهضة العلمية فيها ، وقد احتضن ملوك حماة هذه النهضة وساعدوا على دفعها نحو الامام .

وظهر في حماة زمن الدولة الايوبية عدد كبير من العلماء كتبوا في فنون مختلفة ، كان من بينهم جملة من المؤرخين منهم ابن ابي الدم ابراهيم بن عبد الله ، ابي واصل الحموي . محمد بن سالم ، ومحمد الحموي ، وكتب ابن ابي الدم تاريخاً للإسلام يعرف عادة باسم التاريخ المظفري) وقد وقفت على عدد من النسخ الخطية له ، كما وقفت على ترجمة فارسية له . وكتب ابن واصل كتاب « مفروج الكروب في اخبار بني ايوب » ، وقد شرع في طباعة هذا الكتاب منذ سنين مديدة في القاهرة ، كما كتب محمد الحموي تاريخاً عرف بالتاريخ المنصوري ، وقد نشر هذا الكتاب بالتصوير في الاتحاد السوفياتي .

لقد تأثر أفراد من البيت الأيوبي الحاكم في حماة بالحركة الثقافية في مدينتهم ، كما تجمع لديهم مكتبات كبيرة ، ولاشك ان ابا القداء كان امراء البيت الايوبي ثقافة ومعرفة ، وكانت ثقافته ثقافة موسوعية شملت فنوناً عديدة مثل الطب ، وعلم الهيئة والفقه ، والأدب ، والجغرافيا والتاريخ ، وقد كتب ابو القداء وصنف في معظم الفنون نثراً وشعراً .

ولعل أهم ما أنتجه أبو الفداء كان في ميدان الجغرافيا والتاريخ ، واسم كتابه في الجغرافيا : تقويم البلدان ، وقد لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة منذ فترات مبكرة في أوروبا ، وعلى الأخص في فرنسا وروسيا .

ويروى بأنه كتب في التاريخ كتاباً في تاريخ جهاه ، نحن لانملك عنه أية معلومات في الوقت الحاضر ، وكتاباً دعاه باسم « المختصر في اخبار البشر » وقد وصلنا هذا الكتاب وطبع أكثر من مرة وفي أكثر من مكان ، إنما طبعات غير علمية صحفت نصه الى حد التشويه ، مما يجعل الحاجة ماسة لتحقيق الكتاب من جديد ونشره بشكل علمي دقيق .

ولقد اوضح أبو الفداء في مقدمة كتابه دوافعه الى تأليفه وغاياته منه ، كما اثبت اسماهم المصادر التي عاد اليها بالتأليف . وجاء ذلك بقوله : انه سنج لي ان اورد في كتابي هذا شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية ، يكون تذكرة يقضي عن مراجعة الكتب المطولة . ثم ذكر اسماهم مصادره ، ومعظم هذه المصادر قد وصلنا ، ومن اهمها كتاب السكامل في التاريخ لابن الاثير الجزري ، وقد اعتمد أبو الفداء على هذا الكتاب اعتماداً شبه كامل ، ونحنا نحوه في ترتيب رواية الحوادث ترتيباً حولياً .

وقد توقف ابن الاثير في كتابه عند حوادث سنة ٦٢٨ هـ ، وكما كان ابن الاثير قد صنع عند تأليف كتابه الكامل في التاريخ ، حيث اخذ كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري فاختصر ما جاء به من اخبار ، ثم اخذ يكمل رواية احداث تاريخ الاسلام حتى ايامه ، كذلك فعل أبو الفداء ، حيث اختصر مادة ابن الاثير ، ثم اكمل رواية حوادث تاريخ الاسلام حتى سنة ٧٣٠ هـ / ١٢٣٠ م . وكما حدث مع ابن الاثير حين دون حوادث ما بعد الطبري ، حيث اهتم بشكل رئيسي باخبار موطنه في منطقة الجزيرة والموصل ، كذلك فعل أبو الفداء حيث تجده يولي اخبار بلاد الشام وخاصة مملكة جهاه عناية خاصة .

هذا وكما كان الحال بالنسبة لابن الاثير حين اكتشفت مصادره الاولى ، خاصة كتاب الطبري منها ، لم ينقص ذلك من قيمة كتابه ولا من قيمة المادة التي اختارها من كتاب الطبري لأن لذوق الاختيار اهمية خاصة ، كما ان طريقة الاختيار ذات فائدة كبيرة في التعرف الى ابن الاثير المؤرخ وما تمتع به من حس تاريخي وتقدي ، هذا الشيء ذاته ينطبق على عمل أبي الفداء .

ويبدو لنا أبو الفداء من ثنايا كتابه ، مصنفاً عادياً ، غلبت عليه صفة الجمع والتدوين الامين ، ليس له فلسفة خاصة ، أو نظرة خاصة نحو حوادث التاريخ العام ، والتاريخ الاسلامي بشكل خاص ، كل ذلك على الرغم من انه كان رجل سياسة وحكم ، وصاحب خبرة عسكرية، وله ثقافة واسعة ، ثم ان العصر الذي عاش فيه كان عصر فلسفة عربية للتاريخ ونظرة مقومة .

ان هذا لاينفي حقيقة هامة هي ان كتاب أبي الفداء مصدر أساسي من مصادر التاريخ الاسلامي ، خاصة فيما يختص بالعصر الايوبي والمملوكي ، ويحتاج هذا الكتاب الى تحقيق علمي حديث ونشر يليق ومكانته ومكانة مؤلفه .

صدر حديثاً

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

بلوغ الأمل في فن الزجل

تأليف : تقي الدين أبوبكر بن حجة الحموي

تحقيق : الدكتور رضا محسن القرشي

تصدير : الاستاة الدكتور عبد العزيز الأهواني

منهج

أجيب الفداء

في البحث

الدكتور حسن الساعاتي

تقديم :

في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وعلى وجه التحديد في سنة اثنتين وسبعين وستمائة (١٢٧٣ ميلادية) ، ولد اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر ، الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء صاحب جواهر . ومما يستحق الذكر أن ميلاده قد حدث بعد فترة قصيرة من وفاة علم من أعلام الاسلام ، وواحد من كبار المفسرين ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، مؤلف الجامع لأحكام القرآن ، الذي توفي سنة إحدى وسبعين وستائة (١٢٧٣ ميلادية) . وعلى الرغم من أن أبا الفداء لم يكمل

الستين سنة هجرية من عمره ، فانه عاش حياة حافلة بالأحداث . فقد ولد أميراً من سلالة الأيوبيين ، في مدينة دمشق التي كانت أسرته قد انتقلت اليها . وكان عمه الملك المنصور حاكماً على حماه وقتذاك . فلما شب دخل في خدمته ، واشترك معه فيما نشبه من حروب مع الصليبيين . وفي سنة عشر وسبعمائة (١٣١٠ ميلادية) ولاء الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطنة حماة ، وجعله صاحبها يفعل بها مايشاء ، دون تعقيب من القاهرة كرسي الرئاسة ، ولقبه بالملك الصالح ، ثم بالملك المؤيد ، عندما حج معه وعاد بصحبته الى القاهرة ، وبعد أن لمس منه ما زكاه لذلك . وقد قال ابو المحاسن في المنهل الصافي عن أبي الفداء إنه « كان ملكاً عالماً عادلاً ، سخياً جواداً ، مدحاً عاقلاً ، ديناً خيراً ، ذا رأي ، وتدبير ، ومعرفة وسياسة ، مع الحلم والرياسة ، صاحب معروف وصداقات . ذكياً ، وفاضلاً ، ذا همة عالية ، ونفس زكية ، محباً لأهل العلم والخير ، كثير الاكرام لهم ، يعطي العطايا الجزيلة ، ويميز على المدائح بالجوائز السنية » . (١)

وعلى الرغم من مشاغل أبي الفداء الكثيرة ، وتدبيره شؤون مدينة حماة والمناطق المجاورة لها ، واهتمامه ببناء العائزات الكثيرة ، فانه كان شغوفاً بالاطلاع والبحث والتعمق في معارف شتى . وفي ذلك يقول أبو المحاسن ، « ولم يزل المذكور بجمة مكباً على الاشتغال والتصنيف ، وحضرته محط رجال أهل العلم من كل فن ، ومنزلاً للشراء والفضلاء ، على أنه هو إمام بارع مقلد ، ماهر في الفقه ، والتفسير ، والأصلين . والنحو ، والتاريخ ، وعلم الميقات ، والفلسفة ، والمنطق ، والطب ، مع الاعتقاد الصحيح ، والعروض ، والأدب ، والنظم ، والنثر » . (٢) وقد أقام هذه المعرفة الواسعة على قاعدة وطيدة من معارف حصلها في صغره ، إذ « حفظ القرآن العزيز ، وعدة كتب ، وبرع في الفقه ، والأصول ، والعربية ، والتاريخ ، والأدب » . (٣)

وقد روي عن واسع اضطلاع و عميق معرفته الشيء الكثير . من ذلك ما ذكره الشيخ جمال الدين الاسنوي في طبقاته ، إذ قال : « اتفق قدومه الى الديار المصرية في

(١) نقلاً عن تصدير « م . رينو » (M . Renaud) و « البارون ماكوكوكين ديسلان » (Le Bon Mac Gockin de Slane) لكتاب تقويم البلدان الذي قام به بتصحيحه وطبعه ، بدار الطباعة السلطانية بباريس ، سنة ١٨٤٠ ميلادية ، ص ١١٤١٠ .

(٢) نقلاً عن المصدر نفسه ، التصدير ، ص ٩ ، ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، التصدير ، ص ٩ .

في بعض السنين ، واستدعاني الى مجلسه على لسان الشيخ زين الدين بن القوبع ، فحضرت معه وصحبتنا الصلاح بن البرهان الطبيب المشهور . فوقع الكلام اتفاقاً في عدة علوم . فتكلم فيها كلاماً محققاً وشاركناه في ذلك ، ثم انتقل الكلام الى علم النبات والحشائش فكلمنا وقع ذكر نبات ذكر صفته الدال عليه ، والارض التي ينبت فيها والمنفعة التي فيه ، في الاستطراد في ذلك استطراداً عجيبياً . وهذا الفن الخاص هو الذي يتبجح به الطبيبان الحاضران ، وهما ابن القوبع وابن البرهان ، فان اكثر الأطباء لا يدرون ذلك . فلما خرجا ، تعجبا الى الغاية ، وقال الشيخ ركن الدين ، ما أعلم أن ملكاً من ملوك المسلمين وصل الى هذا العلم « (١)

ولئن كان كثير من الملوك والسلاطين في العصور الماضية ، قد ألموا من بعض المعارف والعلوم بطرف ، فان أبا الفداء كان في ذلك مبرزاً ، فقد ضرب بسهم وافر في شتى العلوم وبخاصة الفقه ، والطب ، والحكمة ، وكان عميق المعرفة بعلم الهيئة (٢) وقد أثبت ابن الوردي في تنزيهه لكتاب الفداء في التاريخ جدارة أبي الفداء وغزارة علمه ، فقال « وكان سخياً محباً للعلم والعلماء ، متمناً يعرف علوماً . ولقد رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون أنه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه » (٢)

ولأبي الفداء مؤلفات في علوم متنوعة ، أولها في الجغرافية ، وعنوانه كتاب تقويم البلدان ، الذي فرغ من تأليفه في سنة احدى وعشرين وسبعمائة (١٣٢١ م) (٣) والثاني في التاريخ بعنوان كتاب المختصر في أخبار البشر ، الذي جمع فيه من الأخبار ما تسنى له جمه حتى غاية سنة تسع وعشرين وسبعمائة (١٢٣٩ م) ، فقام بتذييله ، ابتداء من سنة ثلاثين وسبعمائة (١٢٣٠ م) ، ابن الوردي الى نهاية سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٣٥٠ م) (٤) . وثالث مؤلفاته في الفقه تحت عنوان الحاوي وهو نظم في فقه الإمام محمد ابن إدريس الشافعي ، ربما كان القرض من وضعه أن يحفظه طلاب العلم

(١) نقلا عن المصدر نفسه ، التصدير ص ١٠ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، التصدير ، الصفحة نفسها .

(٣) أبو الفداء ، كتاب المختصر في أخبار البشر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت

١٩٥٦ ، ج ٧ ، ص ١٢٢ .

(٤) انظر تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٣٥ .

(٥) انظر أبو الفداء ، كتاب المختصر في أخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

في سهولة ويسر . وقد أمكننا الاطلاع على هذه المؤلفات الثلاثة . ورابع مؤلفاته في الفلك ، وعنوانه الموازين ، الذي يقول عنه « رينو » و « البارون ديسلان » انه قد يكون ذلك النظم في الفلك المحفوظة نسخة منه في مكتبة «بودليان» في أكسفورد (١) أما المؤلف الخامس والآخر ، فقد كتبه في علوم وفنون متنوعة ، واختار الكناش عنواناً له ، وهو يشتمل على عدة كتب متفرقة : الأول في النحو والتصريف ، والثاني في الفقه ، والثالث في الطب ، والرابع في التاريخ ، والخامس في الاخلاق والسياسة والزهدي ، والسادس في الأشياء ، والسابع في فنون مختلفة ، وقد استطعنا الاطلاع على مخطوط الكتاب الأول في النحو والتصريف ، ووجدنا ذكر الكتب السبعة الأذفة المذكور مخطوطاً على هامش الصفحة الأولى (٢) .

والحق أن شهرة أبي الفداء العلمية ، قد قامت على كتاب تقويم البلدان ، الذي عرف في أوروبا على أنه جغرافية أبي الفداء وكتاب المختصر في أخبار البشر . فقد كان لها قراء ومعجبون ، ليس في الشرق فحسب ، بل أيضاً في أوروبا ، التي ترجم بعض

(١) انظر كتاب تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٣٠ ، حاشية ٢ .

(٢) في الصفحة الأولى من الكتاب الأول في النحو والتصريف ، كتب الناسخ علي خيرى بن عمر المصري هذه الديباجة في الخامس من شعبان سنة ست وثلاثمائة وألف هجرية ، « كتاب الكناش للملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء اجماعيل بن الأفضل علي الايوبي الشهير بصاحب حماة ، المتوفى سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة . ذكره العلامة الكتبي في ذيل ابن خلكان في ترجمة الملك المذكور . أما صاحب كشف الظنون فقد ذكره . إلا أنه قال « لم أقف على مؤلفه » . ويظهر أن هذه النسخة كانت ملكاً لصاحب الكشف المذكور ، كما يرشدها إليه الخط الواقع عليها المشابه لخطه ، إذ قد عاينته في بعض مصنفاته بدار الخلافة العثمانية العلية . ولتعلم أن هذه النسخة هي نسخة المصنف ، وهي الكتاب الاول في في النحو والصرف من الكتاب المشار إليه بما أنه مرتب على سبعة كتب ، كما تراه في الخطبة . ولست أدري إن كان المؤلف أم الكتاب كله ، أو مات قبل ذلك والله اعلم » . وقد أخطأ « رينو » و « البارون ديسلان » حينما كتبا أن أبا الفداء ألف مجموعة من عدة أجزاء في الطب بعنوان الكناش . انظر كتاب تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٣٠ . ومخطوط الكتاب الاول في النحو والتصريف ، وكذلك مخطوط نظم الحاوي في فقه الشافعية موجودان بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

باحثيها أجزاء منها ، وذلك لما تميزا به من الدقة والاحاطة والوضوح . ويعد كتاب تقويم البلدان من أقدم الكتب العربية التي عرفت في أوروبا واهتمت بها ، وذلك لأن أبا الفداء اتبع فيه طريقة مبتكرة في عرض البيانات عن البلدان ، في شكل جداول لم يستخدمها جغرافي غيره من قبل . وقد قسم القسم الأكبر من كتابه ، وهو الخاص بالأقاليم ، إلى ثمانية وعشرين قسماً ، كل منها خاص باقليم منها . ويظهر أبو الفداء اهتماماً خاصاً بالشام والبلدان المجاورة لها . أما القسم الأصغر من الكتاب فيحتوي على عرض عام للأرض بعامتها ، والأقاليم السبعة ، والمعمر من الأرض ، كما يتضمن أيضاً المنهج الذي وضعه لكتابه . أما كتاب المختصر في أخبار البشر فتكمن أهميته الخاصة فيما حواه من أخبار عن الأيوبيين والمماليك ، وعمما تعرض له العالم العربي من أخطار الصليبيين والنتار ، وعن زوال حكم الأيوبيين نهائياً من بلاد الشام ، وعن العلاقات بين مصر والبلاد الإسلامية الأخرى . ويقول « رينو » و « البارون دوسلان » عن هذا الكتاب إنه أهم الكتب التي تناولت تاريخ العرب الضخم ، التي نشرت في أوروبا ، وقد ترجم إلى اللاتينية مقسماً إلى قسمين ، وأنه قد حوى أخباراً ما كان يتسنى معرفتها بدونه (١) .

وقد اهتدى بصدق حدسه إلى انه لن يعمر طويلاً ، فكان يقول ، « ما أظن أني أستكمل الستين سنة من العمر ، فما في أهلي من استكملها » (٢) . وتوفي في أوائل الستين من عمره ، في الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنين وثلاثين وسبعائة هجرية . وما يستحق الذكر أن المؤرخ وعالم الاجتماع العربي ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، قد ولد في غرة رمضان من السنة نفسها . فكما عوضت الأمة الإسلامية عن وفاة القرطبي ، أحد كبار الفقهاء والمفسرين ، بولد أبي الفداء ، فذلك عوضت عن وفاة هذا الملك العلامة ، الذي جمع بين علوم الدنيا والدين ، بميلاد ابن خلدون .

القواعد العامة لمنهج أبي الفداء :

نود ، بادئ ذي بدء ، أن نؤكد اننا نقصد بالمنهج في بحثنا هذا ، المسلك الذي سلكه أبو الفداء في البحث ، عند تأليف كتبه التي ذكرناها آنفاً ، والتي أمكننا الاطلاع

(١) انظر كتاب تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٢٩

(٢) المصدر نفسه ، التصدير ، ص ١٠

عليها . ولا نعني بالمنهج ما أصبح مصطلحاً عليه منذ القرن السابع عشر ، من أن المنهج هو « الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة ، تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته ، حتى يصل إلى نتيجة معلومة » (١) . ومعنى ذلك أننا نقصد من استعمالنا اصطلاح المنهج ، ما يفهم منه بالمعنى العام ، وهو كل طريقة تؤدي إلى غرض معلوم يراد تحصيله (٢) . ذلك لأن أغراض أبي الغداء من تأليف ما كتب كانت معلومة ؛ سواء في ميدان الجغرافية أو ميدان التاريخ ، أو الميادين الأخرى التي طرقها . فلقد كان هدفه في ميدان الجغرافية ، وضع تقويم للبلدان في أقاليم شتى ، يمتاز بدقته ووضوحه من ناحيته ، ويخوله من المقائض التي شابت مسا ألقه الجغرافيون قبله في الموضوع نفسه من ناحية أخرى . وكان هدفه في ميدان التاريخ ، جمع مسادة تاريخية وفيرة ذات دلالة ، وعرضها في إيجاز ووضوح . وكان غرضه من الكدش ، عرض مذكرات يجمع فيها أهم ما كان معروفاً عن الموضوعات المختلفة التي تناولها ، دون الدخول في التفاصيل . وكان هدفه من وضع نظم الحاوي ونظم الموازين ، تقديم المادة الأساسية في كل من الموضوعين ، في صورة ميسرة لطلاب العلم ، تسهل عليهم الحفظ من ناحية ، وسرعة تذكرها من ناحية أخرى .

أما القواعد العامة لمنهج أبي الغداء ، فنقصد بها المبادئ التي جعلها أساساً لجمع مادته العلمية من ناحية ، ثم عرضها للقراء من ناحية أخرى . هذه المبادئ هي الوفرة في جمع البيانات ، والدقة في تفسيرها وتفنيدها ، والإيجاز في عرضها والوضوح في تناولها . وقد أمكننا بلورة هذه القواعد العامة لمنهج أبي الغداء ، بعد قراءة متفحصه لما تيسر لنا الحصول عليه من النتائج . وسنحاول في بحثنا هذا شرح وجهة نظرنا وبيان أفكارنا بخصوص هذه القواعد .

القاعدة الأولى :

الوفرة في جمع البيانات : تظهر الوفرة في البيانات التي جمعها أبو الغداء ، في كثرة المصادر التي استقى منها مادة كل بحث من بحوثه . فقد رجع في تأليف كتاب معجم

(١) عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ،

١٩٦٣ ، ص ٥

(٢) انظر المصدر نفسه . ص ٦

البلدان الى كتاب صورة الارض لأبي القاسم محمد بن حوقل ، (١) وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، لأبي عبد الله محمد بن محمد الادريسي ، (٢) وكتاب المسالك والممالك لأبي القاسم عبد الله بن احمد بن خردادبة . (٣) وهذه الكتب الثلاثة هي بعض الكتب التي قرأها أبو الفداء ، والمؤلفة في البلاد ونواحي الارض من الجبال والبحار وغيرها . وقد اطلع أبو الفداء على زيجات وكتب مؤلفة في الاطوال والعروض التي تقع عليها المدن ، (٤) كما قرأ كتابا في تصحيح الاحماء وضبطها ، مثل كتاب الانساب للسمعاني ، وكتاب المشترك وضعها والمختلف صقها لياقوت الحموي ، (٥) وكتاب مزيل الارتياح عن مشيبه الانتساب ، وكتاب القيمصل ، وكلاهما لأبي المجد احمد بن هبة الله الموصلني . (٦) ويذكر أبو الفداء كذلك انه اطلع على كتاب القانون المسعودي لأبي الريحان محمد بن احمد البيروني ، (٧) وكتاب المسالك والممالك المعروف بالعزيمي ، للحسن بن احمد الهلبي ، (٨) وكتاب رسم الربع المعمور ، المنسوب الى بطليموس ، (٩) وكتاب تحرير المناظر لإقليدس ، لنصير الدين الطوسي ، (١٠) وقد ذكر له أبو الفداء مؤلفا آخر عنوانه

(١) انظر كتاب تقويم البلدان ، ص ١ . ولم يذكر أبو الفداء عنوان كتاب ابن حوقل . وما يستحق الذكر ان بعض مخطوطات كتابه هذا تحمل عنوان كتاب المسالك والممالك ، انظر الدليل البليوجرافي القيم الثقافية العربية : مراجع للدراسات العربية ، مطبوعات مركز تبادل القيم الثقافية ، الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة «يونيسكو» القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٥٣٤ .

(٢) انظر كتاب تقويم البلدان ، ص ١ . وقد أشار أبو الفداء إلى هذا الكتاب على انه في الممالك والمسالك .

(٣) انظر المكان نفسه ، ولم يذكر أبو الفداء عنوان كتاب ابن خردادبة .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٩

(٥) و (٦) انظر المصدر نفسه ، ص ٢

(٧) انظر المصدر نفسه ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ .

(٨) و (٩) انظر المصدر نفسه . ص ٢٢

(١٠) انظر المصدر نفسه ، ص ٥ . والذي يجعلنا نرجح الاشارة الى هذا المصدر

أن أبا الفداء أشار الى النصير الطوسي عندما كان يتحدث عن قرب الشمس من الارض وعظم جرمها وشدتها شعاعها وأثرها ، وأنه ضعف هذا التعليل

التذكرة . (١) والشيء الذي يدعو الى الدهشة والتساؤل هو ان ابا الفداء لم يذكر كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي الذي فرغ ال اليفه سنة ٦٢١ هجرية ، (٢) اي قبل فراغ ابي الفداء من تأليف معجمه بمائة عام بالضبط ، اذ كان ذلك في سنة ٧٢١ هجرية . وربما يعزى ذلك الى انه لم يعلم به او لم يستطع الحصول عليه ، على الرغم من انه قد اثبت قراءته لمؤلفه الآخر ، الذي ورد ذكره آنفاً .

وقبلاً يتعلق بمؤلفه الثاني كتاب المختصر في أخبار البشر ، يورد ابو الفداء أهم المصادر التي رجع اليها في مقدمة كتابه بوضوح وتسلسل فيقول: « فاخترتة واختصرته من الكامل ، تأليف الشيخ عز الدين علي المعروف بابن الأثير الجزري . . . ومن تجاريب الأمم ، لأبي أحمد بن مسكويه ، ومن تاريخ أبي عيسى أحمد بن علي المنجم المسمى بكتاب البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان . . . ومن التاريخ المظفر للقاضي شهاب الدين بن أبي الدم الحموي . . . ومن تاريخ القاضي شمس الدين ابن خلكان المسمى بوقيات الأعيان . . . ومن تاريخ اليمن للقمي عمارة . . . ومن تاريخ القيروان المسمى بالجمع والبيان للصنهاجي ، ومن تاريخ الدول المنقطعة لابن أبي منصور . ومن تاريخ علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المقرئ الاندلسي والمسمى لذة الأحلام في تاريخ امم الاعجام . . . ومن كتاب ابن سعيد المذكور ، المسمى بالمغرب في أخبار اهل المغرب . . . ومن مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، للقاضي جمال الدين بن واصل . . . ومن تاريخ حمزة الأصفهاني ، ومن تاريخ خلاط تأليف شرف بن أبي المطهر الانصاري ، ومن سفر قضاة اسرائيل وسفر ملوكهم من أصل الكتب الاربعة والعشرين الثابتة عند اليهود بالتواتر » (٣) .

وتدل كثرة المصادر التي رجع اليها أبو الفداء في كتابيه : تقويم البلدان ، والمختصر في أخبار البشر ، على وفرة البيانات الجغرافية والتاريخية التي اختار منها مادته . وهي وفرة توقع المؤلف ، وبخاصة إذا كان من أمثال أبي الفداء ، في حيرة

(١) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥

(٢) انظر الدليل البليوجرافي للقيم الثقافية العربية : مراجع الدراسات

العربية ، ص ٥٣٨ .

(٣) كتاب المختصر في أخبار البشر ، ص ١٠ ، ١١

شديدة ، وتجهله يعاني معاناة كبيرة ، لاختصار هذه البيانات كلها من ناحية ، واختيار المناسب والضروري منها بعد تفنيده من ناحية أخرى ، إذا كان يكتنفه الغموض ، أو يهوده شيء من التناقض . وهذه مهمة يسيرة على الباحث المدقق والدارس المحقق . لكن أبا الفداء قد قام بالمهمة خير قيام ، فأحسن الايجاز ، واجاد الانتقاء .

القاعدة الثانية :

الدقة في تفسير البيانات وتفنيدها : لقد امتاز انتاج أبي الفداء بالدقة الفائقة ، وذلك راجع للأمانة العلمية التي كان يتحلى بها ، ولمنطقه السليم في تفهم الامور ، من ذلك مثلاً قوله عن طريقة تأليف كتاب تقويم البلدان : « وحدونا حذو ابن جزلة في كتاب تقويم الابدان في الطب وسمينا كتابنا هذا تقويم البلدان » (١) . ومعزى ذلك انه يريد تصحيح ما كتبت عن مواقع البلدان من خطوط الطول والعرض، وكذلك تصويب نطق اسمائها ، وذكر مواصفات عنها لم تتوافر في كتب من سبقوه . ويشير الى ذلك بقوله : « فاني لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الأرض من الجبال والبحار وغيرها ، لم أجد فيها كتابا موفيا بغرضي . فمن الكتب التي وقفت عليها في هذا الفن ، كتاب ابن حوقل، وهو كتاب مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفيا، غير أنه لم يضبط الاسماء ، وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض ، فصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة . ومع جهل ذلك لا تحصل فائدة تامة . . . وأما الزيجات والكتب المؤلفة في الأطوال والعروض ، فانها عرية عن تحقيق الاسامي وعن ذكر صفات المدن، وأما الكتب المؤلفة في تصحيح الاسماء وضبطها ، . . . فانها اشتملت على ضبط الاسماء وتحقيقتها من غير التعرض إلى الأطوال والعروض . ومع الجهل بالأطوال والعروض يجهل سمت ذلك البلد ، فلا يعرف الشرقي منها الغربي ولا الجنوبي ولا الشمالي . ولما وقفنا على ذلك وتأملناه ، جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في الكتب المذكورة ، من غير أن ندعي الاحاطة بجميع البلاد أو بغالبا فان ذلك أمر لامطمع في الاحاطة به» . (٢)

وينقد أبو الفداء غالب واضعي الكتب المؤلفة في الأطوال والعروض من الزيجات

(١) كتاب تقويم البلدان ، ص ٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ١ ، ٢

وغيرها ، لأنهم « لا يحافظون فيها على إثبات الأماكن في مواضعها من الأقاليم ، بسبل يشبتون بعض أماكن الاقليم في الاقليم الاخر . ومن تأمل ذلك وكشفه ، تحقق صحة ما ذكرناه » . (١) وينبذه القارىء إلى انه قد راعى ذلك ، وأثبت كل مكان في إقليمه . (٢) . وعندما يورد أسماء أعجمية كثيرة ، غربي بلاد قسطنطينية ، يقول ، « وجميع هذه الاسماء الأعجمية قد حقتناها بالضبط في اخرجداول هذا الكتاب » . (٣) وفي الحديث عن بحر ورنك ، يذكر أنه لم يجد له ذكرا الا في مصنفات أبي الريحان البيروني ، وفي التذكرة للنصير ، فأثبتته وفق ما ذكره البيروني (٤) . وعندما تناول أنهار بلادالترك ، قرر أنها أنهار عظيمة ، وأنها معروفة للتجار المسافرين فيها ، ولكن غالب المؤلفين قد أهملها ، أما هو فقد أثبتتها حسبما تلقاها من شاهدها على قدر الطاقة . (٥) ويبدل ذلك على أن أبا الفداء كان لا يكتفي بما يطلع عليه في شق المؤلفات في الميدان الذي يكتب فيه ، بل كان أيضاً يرجع إلى اهل الخبرة يستقي منهم البيانات ويستوثق منهم عما يكون قد جوه منها . (٦)

(١) المصدر نفسه ، ص ١٠

(٢) انظر المكان نفسه

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥

(٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٣

(٦) ومثال ذلك ما يذكره أبو الفداء عن باب المنذب ، إذ يقول : « وحكى لي بعض المسافرين أن باب المنذب دون عدن ، وهو عتق في جهة الشمال بيعة الى الغرب على نحو مجرى وجبال المنذب في بر السودان ، وترى جبال المنذب من جبال عدن على بعد ، وهو غاية ضيق البحر هناك » . المصدر نفسه ، ص ٢٤ . وكذلك يذكر عن نهر الإنل العظيم ، الذي يقال إنه اكبر أنهار البلاد التي تحيط ببحر الخزر ، « وقد حكى لي بعض التجار الذين ركبوا هذا البحر أنهم لما انتهوا في الشمال إلى آخره تغير عليهم الماء المالح الصافي بياه متغير اللون ، فقليل لهم هذا ماء الإنل حيث اختلط بالبحر » . المصدر نفسه ، ص ٣٦ . وكذلك يقول أبو الفداء في موضع آخر عند الحديث عن بيرين بالقرب من الحسا والقطيف واليامة ، « وقد أخبرني من أتق به من أهل تلك البلاد . » = المعرفة - ٥

ومن الأمثلة على منتهى دقته في تفنيد البيانات والحكم عليها ، تحقيقه لجبل القمر في أواسط أفريقية ، إذ يقول : « جبل القمر المذكور قد اختلف في ضبطه ، فبعضهم يجعله مضافاً الى القمر الذي في السماء ويفتح القاف والميم . وقد رأيت في كتاب ياقوت الذي ساهه المشترك وضعاً مختلفاً صقماً ، مضبوطاً بضم القاف وسكون الميم . وذكره ابن مطرف في الترتيب ولم يضبطه ، بل قال هو مشتق من قمر الطرف ، وهو جبل في الخراب الجنوبي ، وعرضه إحدى عشرة درجة جنوبي من خط الاستواء ومنه منابيع نيل مصر من عشر مسيلات تنحدر منه ، ولم يثبت وصول أحد اليه ، بل شاهدوه من بعد . قال النصير الطوسي في التذكرة انهم شاهدوه من بعد وهو أبيض من الثلج الذي عليه . وهو عندي مستبعد ، فإن عرض إحدى عشرة درجة في غاية الحرارة ، ويعتبر من عرض إحدى عشرة الشالي ، وهو عرض عدن من اليمن ، فإن وقوع الثلج في مثل عرض عدن لم يسمع به في زمن من الأزمان ، والجانب الجنوبي مثل الشالي بل أشد حرارة لحضيض الشمس « ١ » . ولئن دل ذلك على شيء فأنما يدل على أن أبا الفداء كان ينقل من المصادر التي يرجع اليها بعقل ناقد متفحص ، مسليء بالمعرفة في شتى العلوم ، وعلى الخصوص علم الهيئة الذي برع فيه .

وفي شرح أبي الفداء لترتيب كتاب تقويم البلدان ، تظهر دقته في تفسير أمور تبدو مختلفة أو جديدة بالمقارنة بما هو وارد في كتب التقاويم السابقة على كتابه . أما الأمر الأول فهو تصنيفه الأقاليم صنفين : أقاليم حقيقية ، وأقاليم عرفية . ويقصد بالأقاليم الحقيقية أحد الأقاليم السبعة التي سبق له توضيحها ، « ٢ » ويعني بالأقاليم العرفية « كل ناحية أو مملكة تشتمل على عدة كثيرة من الأماكن والبلاد ، مثل الشام والعراق وغيرها . وقد يكون الاقليم العرفي بعضاً من الاقليم الحقيقي ، وقد يكون بعضاً من

المصدر نفسه ، ص ٨٥ . ويقول أبو الفداء بخصوص بعض البيانات عما يذكر من التفاوت في عمران الأرض « ولكن امثاله من المعارف موكل الى الخبر من جانب الثقة » . المصدر نفسه ، ص ١١ .

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ٦٥

(٢) يقول أبو الفداء فيما يتعلق بالأقاليم السبعة ، « اعلم ان معظم العمارة يقع بين ما يجاوز عشر درجات في العرض الى حدود الخمسين . فقسمها أهل الصناعة بالأقاليم السبعة ليكون كل اقليم تحت مدار تتشابه احوال البقاع التي فيه » ، المصدر نفسه ، ص ٧

إقليمين مثل الشام ، فإن بعضه من الاقليم الثالث وبعضه من الربع . وقد يشتمل الاقليم العرفي على أبعاض الأقاليم السبعة ، كما يحكى عن الصين «١» . وأما الامر الثاني فهو استخراج العروض لبعض الأماكن وأطوالها ، وهي الأماكن التي لم يقع له أطوال عروضها فكان يقرب فيها ويستخرج أطوالها وعروضها على أساس بعدها في القرب أو الشرق أو الشمال أو الجنوب عن أماكن معروفة العرض والطول «٢» . وأما الامر الثالث فهو بيان عذره لما يبدو في كتابه من اختلاف في الاطوال والعروض . ويقول في ذلك «وربما تجد في كتابنا هذا طول بلد بعينه مختلفاً وكذلك عرضه ، والعذر فيه انني نقلت الاطوال والعروض من القانون للبيروني ، ومن كتاب الاطوال والعروض للفرس ، ومن كتاب ابن سعيد المغربي ومن كتاب رسم الربع المعمور ، وهذه هي الكتب المعتمد عليها في هذا الفن ؛ وقلما تتفق هذه الكتب على عرض مكان بعينه او طوله ، بل لا بد من الاختلاف فيها . وقد نقلنا نحن من مجموع هذه الكتب وهي غير متفقة ، فحصل في كتابنا اختلاف في الاطوال والعروض » (٣) .

وكذلك تظمر دقة ابي الفداء في تفسير البيانات وتفنيدها في كتاب المختصر في اخبار البشر في مواضع هتي . فقد ضمن المقدمة ثلاثة امور تدل على توخي الدقة ، التي هي عماد كتب الاخبار والتاريخ . فيذكر في الامر الاول « انه ينبغي لتأمل التواريخ القديمة ، ان يعلم ان الاختلاف فيها بين المؤرخين كثير جدا » (٤) ويضرب مثالا لذلك الاختلاف الكبير بخصوص تاريخ ولادة المسيح . وكذلك فيما يتعلق بما بين الهجرة والطوفان من سنين . ويقول ان السبب في ذلك أن الحوادث الغابرة لا تعلم الا من التوراة ، والتوراة ، كما بين ابو الفداء في الامر الثاني ، مختلفة على ثلاث نسخ (٥) ويشرح اسباب هذا الاختلاف تحت ما اسماه الامر الثالث . الذي يشير فيه الى جدول

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٢

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ٧٣

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٠ ، ١٠٠

(٥) كتاب المختصر في اخبار البشر ، ج ١ ، ص ١١

(٦) انظر المكان نفسه .

اقترحه يتضمن ما بين التواريخ المشهورة من المدد ، ويقول ، « ومق اردت معرفة ما بين اي تاريخين منها فادخل في الجدول الى البيت الذي يلتقيان فيه ، ومهاكان فيه من العدد فهو ما بينها بعد الاجتهاد البالغ في تحقيقه وتحريره » (١) .

وتجلى دقة ابي الفداء في ذكر حكام بني اسرائيل وملوكهم ، الذي كثير الغلط فيه لبعده عنده ، ولكونه باللغة العبرانية ، السبب الذي يجعل الطبق بالفاظه على وجه صحيح امرا عسيراً . ويقول في ذلك : « ولم اجد في نسخ التواريخ التي وقعت لي في هذا الفن ما اعتمد على صحته ، لان كل نسخة وقفت عليها في هذا الفن وجدتها تخالف الاخرى إما في اسماء الحكام وإما في مدد استيلائهم . ولليهود الكتب الاربعة والعشرون ، وهي عندهم متواترة قديمة ، ولم تعرب الى الآن بل هي باللغة العبرانية فأحضرت منها سفري قضاة بني اسرائيل وملوكها . واحضرت انسانا عارفا باللغة العبرانية والعربية وتركته يقرأها ، واحضرت بها ثلاث نسخ ، وكتبت منها ما ظهر عندي صحته ، وضبطت الامعاء بالحروف والحركات حسب الطاقة » . (٢)

ويبلغ ابو الفداء شأراً بعيداً في الدقة والتفنيذ والضبط ، عندما يقرر ان النقص بين المدة التي حسبها هو نفسه بين وفاة موسى وابتداء ملك بختنصر والمدة التي حسبها غيره من المؤرخين ، وهو نقص يزيد على ست وعشرين ، إنما حصل من إسقاط اليهود كسورات المدد المذكورة ، ثم يقرر انه « من المستبعد ان يملك الشخص عشرين سنة او تسع عشرة سنة مثلاً ، بل لا بد من اشهر او ايام ، مع ذلك فلما ذكروا لكل شخص مدة صحيحة سالمة من الكسر نقصت جملة السنين المذكور اعني ستاً وعشرين سنة وكسورا » (٣) وهكذا نظهر دفته في ضبط التواريخ والمدد التي تفصل بين الاحداث بعضها وبعض .

ودقة ابي الفداء في تفصي البيانات الصحيحة والاخبار الصادقة ، قد جعلته يترك الخوض في موضوعات تضطرب البيانات الخاصة بها . من ذلك على سبيل المثال ، ماروي عن ملوك بني عاد ، وكثرة الاختلاف في ذكرهم ، الامر الذي جعل ابا الفداء يضرب

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٣

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢ ، ٣٣

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٣

عنه ، لان جميع ما ذكر عنهم مضطرب غير قريب للصحة . «١» ولقد كان ذلك يتفق ايضاً مع القاعدة الثالثة التي جعلها اساساً لمنهجه في البحث ، وهي الاختصار في العرض والإيجاز في السرد ، كما سنبين فيما بعد .

القاعدة الثالثة :

الاختصار في العرض : لقد كان شغل أبي الفداء الشاغل في تأليف ما ألف من كتب ، التزام الاختصار في عرض البيانات التي أمكنه الحصول عليها . والأمر اللافت لنظر قارئ كتبه ، هو إيجازه الشديد في خطبة كل كتاب ، ودخوله مباشرة إلى لب الموضوع . كما أنه يذكر صراحة وفي وضوح لا لبس فيه ، انه انما يكتب مختصرات ، تكون بمثابة مذكرات يكون فيها الغناء عن مطالعة الكتب الكبيرة في كل موضوع من الموضوعات التي عالجها . ولذلك جعل عنوان كتابه في التاريخ : كتاب المختصر في اخبار البشر . وقال في خطبة كتابه هذا ، « انه سنح لي أن أورد في كتابي هذا شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة يغنيني عن مراجعة الكتب المطولة ، فاخترته واختصرته من ... » (٢) . وما تجدر ملاحظته ايضاً اختياره كلمة « أخبار » في العنوان بدلاً من كلمة « تاريخ » . فالأخبار تدل على الإيجاز في الرواية ، بعكس التاريخ الذي يدل على الاضافة والتوسع .

وفي كتاب تقوم البلدان ، يقول أبو الفداء ، بعد أن ذكر أهم الكتب في جغرافية البلدان وأشار إلى مواطن القصور فيها : « ولما وقفنا على ذلك وتأملناه ، جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في الكتب المذكورة من غير أن ندعي الاحاطة ، بجميع البلاد أو يعالينا ، فان ذلك أملاً لا مطمع في الاحاطة به » (٣) . ولما كان أبو الفداء قد اتخذ من الاختصار في عرض البيانات قاعدة له في البحث ، فانه قد التزم بها حتى صار يخشى إيراد أية بيانات يرى انها غير مناسبة ، أو غير ضرورية ، أو غير مفيدة ، كما انه كان عزوفاً عن تكرار البيانات التي يوردها . ويظهر ذلك في كتاب تقويم البلدان في مواضع كثيرة ، منها على سبيل المثال قوله عند الحديث عن المعمورة من الأرض

(١) انظر المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٢٢

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠

(٣) كتاب تقويم ، ص ٢ .

والمغمور منها تحت الماء ، وانه لو استحال عنصر إلى عنصر آخر كان بقدره ، « ولا يليق بهذا الكتاب بسط القول في العناصر أكثر من هذا القدر ، فان ذلك أليق بالكتب الحكيمية ، وفيما أوردنا الكفاية فيها نحن بصدده « (١) وعندما يذكر ديار مصر، ويتناول الحديث عن نهر النيل ، يسلك عن الاسترسال قائلاً : « وقد تقدم ذكره مع ذكر الأنهار في صدر الكتاب فأغنى عن الاعادة » (٢) .

وكذلك في كتاب المختصر في اخبار البشر ، التزم ابو الغداء قاعدة الاختصار في العرض ، وكثيراً ما كان يسك عن الاسترسال في سرد الاخبار للأسباب التي اوردناها آنفاً . وهناك امثلة كثيرة على ذلك ، منها قوله في نهاية المقدمة : « واما تاريخ فيليبس فهو مشهور ، وقد ارخ به بطليموس في المسحطي غالب ارضاده ، ولكننا تركناه للاختصار لعربه من تاريخ الاسكندرية لانه متقدم على تاريخ الاسكندر بانتي عشرة سنة ، ... وأما أزدشير بن بابك فبين ملكه وبين الاسكندر خمسمائة واثنان عشرة سنة تقريباً وبينه وبين الهجرة اربعمائة واثنان وعشرون سنة ، تركناه للاختصار ايضاً . (٣) ومنها ايضاً ما ورد في حديثه عن نسخ التوراة التي اصحبها واثبتا النسخة المنقولة لبطليموس اذ ينهي الحديث بقوله ، « وقد تقدمت الاشارة الى هذه النسخة والى النسخة التي بيد اليهود الآن والى نسخ السمرية في مقدمة هذا الكتاب ، فأغنى عن الاعادة » (٤) . وعند الحديث عن البطالسة الذين حكموا بعد الاسكندر . يوجز قائلاً : ولكن نذكر منهم ها هنا ما تدعو الحاجة الى ذكره » . (٥) وقد ذكر صراحة خشية من التطويل السقي دفعته الى الايجاز حتى عند ايراد اخبار خاصة به ، فقال عن كتاب تقليده بمملكة حماة والمعرة وبارين « ولولا خوف التطويل لاوردنا التقليد عن آخره . لكننا نذكر منه فصولاً يحصل بها الغرض طلباً للاختصار » . (٦)

ولقد كان ابو الغداء يخصص الروايات التي يجمعها ، ويقفل منها ما يراه غير مستقيم

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(٣) كتاب المختصر في اخبار البشر ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٤) ، (٧) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٨١ .

مع المنطق . ومثال ذلك موقفه مما قيل عن الطبقة الأولى من ملوك الفرس ، وهي الطبقة القديمة التي تسمى « الفيشداذية » ، إذ يأتي الحديث عنهم في اقتضاب شديد قائلا : « وقد نقل عن مدد ملكهم وحروبهم أمور يأبأها العقل ويجهسا السمع ، فأضربنا عنها لذلك ، وذكرنا ما يقرب الى الذهن صحته » . (١) ويشبه ذلك أيضا موقفه من الروايات عديمة الفائدة في الموضوع الذي يكتب فيه . ومثال ذلك ما ذكره عند الحديث عن « زرادشت » صاحب تعاليم الفرس الدينية الاولى ، إذ قال موجزا ، « وزرادشت من أهل قرية من قرى أذربيجان . ولهم في خلق زرادشت وولادته كلام طويل لافائدة فيه فأضربنا عنه » . (٢)

وحرص أبي الغداء على التزام الإيجاز في عرض الأخبار جعله يميز بين ما يليق إنثائه في كتابه فيثبته وما لا يليق فيتركه ، لأنه ورد مفصلاً في كتب أخرى متخصصة . ومثال ذلك ما ذكره عند الحديث عن البراهمة أصحاب الفكرة ، إذ قال : « والبراهمة لا يقولون بالنبوات وينفونها بالكلمة ، ولهم على ذلك شبه مذكورة في الملل والنحل لا تليق بهذا المختصر » « ٣ » وقد ورد ذلك في نهاية رواية عن أفكارهم وأسلوبهم في التفكير لم تتعد ستة أسطر . وكذلك فعل عند الحديث عن مملكة بنارس ، آخر ممالك الهند ، وملوكها ، إذ قال في اقتضاب شديد : « ولها ملوك وقد أكثر المصنفون فيها الكلام مما لا يليق بهذا المختصر » « ٤ » .

وان الباحث ليتساهل عن دوافع التزام أبي الغداء الإيجاز في بحوثه ، فقد يكون ذلك راجعاً لسببية تمتاز بها شخصيته ، وهي الاقتصاد في الحديث وذكر ما قل ودل . وربما يكون لهدف يريد أن يحققه وهو التخفيف على القارئ بكتابة مذكرات في الموضوعات التي جعلها محاور لبحوثه . وقد صرح هو نفسه بذلك ، كما سبق أن أشرنا ، في خطبة كتاب المختصر في أخبار البشر ، كما أنه يتضح في كتب التكناش السبعة ، وكذلك في نظميته الحاوي والموازن ليسهل على طلاب العلم الفهم والحفظ ثم التذكر . وقد يكون ذلك من

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٩ .

شيمة العلماء من الملوك الذين يجمعون بين مشاغل البحث والتأليف ومشاغل الملك وتصريف أمور الرعية . وربما يفسر ذلك بأن أبا الفداء كان يؤلف تأليف المعلم لتلاميذه ، فهو لذلك يلتزم الاجياز ، ولكنه أيضاً يجتهد في أن تكون المادة التي يعرضها في كتبه واضحة في تناولها سهلة في عرضها ، كما سنبين في القاعدة الرابعة من قواعد البحث التي اعتمد عليها في تأليفه .

القاعدة الرابعة :

الوضوح في تناول البيانات وعرضها : تمتاز كتابة أبي الفداء بوضوح ارادي ، ونقصد بذلك التزامه بتوضيح ما يكون غامضاً منعاً للبس وسوء الفهم ، وكذلك اجتهاده في تيسير الصعب الذي يحتاج من القارئ الى عملية إعمال فكر شاقة ، قد لا توصله بالضرورة الى الرؤية الكاملة التي يصورها المؤلف . فأما في منع اللبس وسوء الفهم ، فإن أبا الفداء كان صريحاً واهمياً في تحقيقاته ، كما فعل ، على سبيل المثال ، عندما كان يتحدث عن بطون كنانة ، إذ قال : « ومن بطون كنانة الأحابيش وكان الحليس بن عمر ريس الأحابيش نوبة أحد . ومن لم يقف على ذلك اذا سمع ذكر الاحابيش في نوبة احد ظن انهم من الحبشة ، وليس كذلك ، بل هم عرب من بني كنانة ، كذا ذكره في العقد ، وهؤلاء إخوة النضر بن كنانة وولدهم » (١) . وكذلك فعل أبو الفداء بخصوص نسخ التوراة الثلاث ، وهي السامرية والعبرانية واليونانية ، ليبين ما بينها من اختلافات كبيرة في التواريخ ، ويقرر الركون الى النسخة اليونانية المعتمدة من المحققين من المؤرخين ، إذ أنها ، على النقيض من النسختين الاخرتين ، ليس بها ما يقتضي الانكار من جهة الماضي من عمر الزمان . وهي توراة نقلها اثنان وسبعون حبراً ، قبل ولادة المسيح بقريب ثلاثمائة سنة ، لبطليموس اليوناني ... لذلك اعتمدنا على هذه التوراة دون غيرها » (٢) .

وقد فعل أبو الفداء الشيء نفسه في كتاب تقويم البلدان ، فبذل جهداً كبيراً في توضيح أمور ملتبسة ، منها ما يتعلق بفروق الزمن بالنسبة للسائرين القادمين من المشرق ، والذين يسرون في الوقت نفسه قادمين من المغرب ، والمقيمين الذين يستقبلون هؤلاء

(١) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٢ .

وأولئك . ويبدأ شرحه بذكر جملة جديدة للدلالة وهي : « مسألة لتبنيه الدهن على ما نحن فيه » (١) . وكذلك فعل ليوضح التفاوت بين رأي القدماء ورأي المحدثين في طول الاقاليم السبعة ، ومساحة كل إقليم ، ودور الأرض ، وأنه راجع الى الخلاف بينهم في الاصطلاح على الذراع والميل والفرسخ . وأن هذا الخلاف حقيقي بالنسبة للذراع ، « لأنه عند القدماء اثنتان وثلاثون إصباعاً ، وعند المحدثين أربع وعشرون إصباعاً ، وذراع القدماء أطول من ذراع المحدثين بثاني أصابع . وأما الميل فهو عند القدماء ثلاثة آلاف ذراع وعند المحدثين أربعة آلاف ذراع ، والخلاف بينهم فيه انما هو لفظي ، فان مقدار الميل عند الجميع شيء واحد وان اختلفت اعداد الاذرع .. » (٢) . وقد وضع كذلك على طريقته، الفرق بين الاقليم الحقيقي والاقليم العرفي ، كما سبق أن ذكرنا في القاعدة الثانية الخاصة بالدقة في تفسير البيانات وتفنيدها . ويقول في تحديد الاقاليم العرفية ، أعلم ان الامر في تحديد الاقاليم العرفية لايجري كما يجري في تحديد الدار أو البستان ونحوهما ، لان غالب الدور والبساتين تكون قطعاً مربعة أو متساوية الجوانب . وليس الامر في الاقاليم العرفية كذلك ، فان بعض جوانبها يكون مداخلا لاقليم آخر وبعضها يكون فيه تقويس وبعض جوانبها أعرض من الجانب الآخر . والذي يحدد المكان انما يحدده بالجهات الاربع وهي الشرق والغرب والجنوب والشمال ، وذلك لايفسده في الاقاليم العرفية على ما ذكرناه » (٣) .

ولقد كان كلف أي الفداء بالوضوح في بسط الآراء هو الذي هداه إلى الابتكار والتقنين . فقد كان اول جغرافي يجدول المعلومات عن البلدان على وضع التقويم على حد تعبيره . وقد جعل في كل جدول بيتاً لضبط الأسماء ، « فان في هذه الاسامي أسماء أعجمية لايتبدى اليها بغير ضبط ، وكذلك في الأسماء المشهورة أسماء قد غيرتها العامة ... » (٤) . وهذه الجداول المبتكرة تمكن من بسط البيانات في إيجاز واضح على القارئ جد يسير . وهذا هو الشيء الأصيل المبتكر في كتاب تقويم البلدان . وكذلك في كتاب المختصر في أخبار البشر ، يقرر أبو الفداء أنه اقترح جدولاً يتضمن ما بين التواريخ المشهورة من

(١) كتاب تقويم البلدان ، ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

المدد . ويرد ف قائلاً ، « ومتى أردت معرفة ما بين أي تاريخين منها فادخل في الجدول الى البيت الذي يلتقيان فيه ، ومهما كان فيه من العدد فهو ما بينهما بعد الاجتهاد البالغ في تحقيقه وتحريره » (١) . ولذلك استحق عن جدارة مقاله ابو المحاسن فيه ، كما سبق أن ذكرنا في التمهيد ، أنه « إمام بارع مفنن » .

خاتمة :

ذلك منهج أبي الفداء في البحث ، التزم به في مؤلفيه الكبيرين القيمين في الجغرافية وفي التاريخ . فاستحق أن يكون رائداً من الرواد المسلمين الأوائل في مبادئ المعرفة المتنوعة ، الذين بزغوا نجوماً وضاءة في سماء الفكر ، في زمان لم يكن فيه ذكر في العالم شرقية وغربية الا لعلماء الأمة الاسلامية المتراامية الأطراف . وليس الاحتفال بذكرى مولد ابي الفداء تكريراً له ، بقدر ماهو إحياء لتراثنا القومي ونشره بين العامة والخاصة ، ليتبينوا ما فيه من أصالة ويتدبروا ما فيه من إبداع وإثراء للمعرفة الانسانية .

ولنذكر القارئ بان العصر الحاضر هو عصر العلم والتقنية (التكنولوجيا) ، الذين يتعاونان في كل مجالات التنمية لتحقيق المجتمع العدالي ، الذي تسعى مختلف النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة الى تحقيقه . ومن سمات العلم والتقنية في عصرنا هذا وفرة البيانات ، وتقديدها في إنجاز ووضوح ؛ لأن المجتمع المعاصر أصبح يمتاز بالسرعة في التحصيل والتفكير والتخطيط والانجاز . وهذه كلها أسس التغيير السريع المدبر للمجموعات والجماعات . ولقد سلك أبو الفداء منذ قرابة سبعمائة عام ، طريق التأليف الخصب ، الموجز الدقيق ، الواضح ؛ فليكن رائداً لنا ، نحن العرب ، في الاقتصاد في الحديث والكتابة ، والاكتفاء بما قل ودل ، في إنجاز غير مخل .

المؤرخ أبو الفداء

ونزعته
العلمية

الدكتور كامل عياد

يعتبر أبو الفداء ، الملك المؤيد صاحب حياة ، من ألمع الشخصيات في تاريخ العرب والاسلام . فهو احد الامراء الايوبيين الذين حكموا مصر وبلاد الشام اكثر من ثمانين عاماً وامتازوا بالشجاعة وأهلوا بلاء حسناً في محاربة الصليبيين وطردهم من هذه البلاد .

وقد برهن أبو الفداء على كفاءة فائقة في ادارة أمانة حياة . فكان كثير العناية بمصالح الناس ، شديد الاهتمام بعمران البلاد وازدهارها . كذلك أظهر مهارة ولباقة

في علاقاته السياسية مع سلاطين المماليك الذين كانوا ، بعد الايوبيين ، يتعاقبون بسرعة في تولي السلطة ، ثم إنه كان ، مثل الكثيرين من امراء الايوبيين ، ينظم الشعر الجيد ويحب أهل العلم والادب فيقرهم اليه ويشجعهم ويحيزهم بسخاء على مدائحهم له ، بل كان قد خصص رواتب دائمة لبعض الشعراء مثل ابن نباتة .

على ان أبا الفداء انما اشتهر في الدرجة الاولى بأنه هو نفسه كان من كبار العلماء العرب . ويتفق المؤرخون الذين بحثوا في سيرته على أنه قد شارك في علوم وفنون كثيرة من فقه وفلسفة وطب وغير ذلك وأن اجد ما كان يعرفه علم الهيئة . ويذكر الرواة إنه نظم كتاب (الحاوي الصغير) في الفقه الشافعي تأليف نجم الدين عبد الغفار الغزويني وألف كتاباً صغيراً في (الموازين) وكتاباً في الطب من عدة مجلدات بعنوان (الكناش) . وينسب اليه أيضاً مؤلفات أخرى مثل (الطائف السنية في التواريخ الاسلامية) . الا أنه لم ينتقل اليها من آثاره سوى بعض الاشعار وكتابين مشهورين هما : (تقويم البدان) و (المختصر في تاريخ البشر) .

يتبين من الأخبار أن أبا الفداء كان يمارس الطب عملياً في بعض الاحيان : فنراه مرة يعالج ابن عمه الملك المظفر ، صاحب حماة قبله ، لما مرض في طريق العودة من الحرب في الاناضول حتى شفي (١) ، ومرة أخرى مرض ولده الملك الأفضل محمود وكان يرافقه في رحلته الى مصر فأرسل اليه السلطان رئيس أطبائه الذي صار يأتي اليه بكرة وعشبة فيجده حاضراً ليجت معه في المرض ويقدر الدواء ويمزجه بيده في دست من الفضة . وقد اضطر رئيس الاطباء الى أن يعترف بمهارته في الطب ويقول له : « ياسيدي ، والله ما محتاج الي ، وما أجيء الا امتثالاً لأمر السلطان » (٢) .

ويذكر الشيخ الآسنوي في كتابه (طبقات الشافعية) انه اتفق قدوم ابي الفداء الى الديار المصرية في بعض السنين فاجتمع في مجلسه عدد من العلماء بينهم الطبيبان المشهوران زين الدين بن القوبع والصلاح بن البرهان . وقد جرى البحث في عدة علوم ثم انتقل اتفاقاً الى علم النباتات والحشائش ، فكان أبو الفداء ، كلما ذكر نبات ، تكلم على صفاته

(١) أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر . طبعة استانبول سنة ١٢٨٦ هـ مجرية

المجلد ٤ صفحة ٣٦ .

(٢) ابن شاکر الکتبي ، ذوات الوفيات . طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ المجلد ١

صفحة ١٧ .

والارض التي ينبت فيها والمنفعة التي فيه مع الاستطراد في ذلك استطراداً عجيباً . وهذا الفن كان مما يتيح للطبيين المذكوران بالتحصص فيه بيما أكثر الاطباء يجهلونه ، لذلك أظهرنا ، بعد الخروج من المجلس ، منتهى التعجب وقال ركن الدين بن ابقولع (١) :

« ما علم أن ملكاً من ملوك المسلمين وصل الى هذا العلم . » (٢)

ويروي ابو الفداء عند ترجمته لحياة الشيخ جمال الدين بن واصل ، قاضي القضاة في حياة ، الذي كان مرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والهيشة بالاضافة الى اصول الدين والفقه والتاريخ إنه كان في شبابه يتردد كثيرا الى ابن واصل ليعرض عليه ما يحله من اشكال كتاب (اقليدس) ويستفيد منه معارف اخرى . (٣)

إن الاتجاه العلمي في تفكير أبي الفداء الذي تشير اليه امثال هذه القصص لهذه بوضوح في كتابيه : (تقويم البلدان) و (المختصر في تاريخ البشر) .

أما كتاب (تقويم البلدان) الذي انتهى ابو الفداء من تأليفه في سنة ٧١١ هـ / ١٣٢١ م . فهو ليس ، كما ادعى أحد المستشرقين عبارة عن مجموعة هزيلة نقلت من المصادر القديمة (٤) ، بل إنه موسوعة مبتكرة تعتمد على دراسات الجغرافيين العرب المشهورين أمثال (البيروني) و « ابن حوقل » و « الشريف الادريسي » و « ابن سعيد المغربي » تتضمن محاسنهم وتتحاشي الكثير من أخطائهم .

وقد اشتهر الكتاب في العصور التالية حتى نال ثقة جمعة الباحثين وقام الكثيرون بتلخيصه والتعليق عليه واقتبس عنه « القلقشندي » أجزاء كثيرة من كتابه المشهور « صبح الاعشى . ثم ترجم الكتاب في اواخر القرن السادس عشر الى اللغة التركية (٥) وبعد أن ترجمت أقسام منه الى اللغة اللاتينية منذ القرن السابع عشر ترجم كله الى الفرنسية

(١) المختصر في تاريخ البشر ٣/١٩٦

(٢) ابن تغري بردي ، « المنهل الصافي » في ترجمة ابي الفداء

(٣) المختصر ٤/٢٩ - ٤٠

(٤) المستشرق الهولاندي « كرامرس Krmers » في كتاب « تراث الاسلام -

Legacy of Islam » طبعة اوكسفورد سنة ١٩٣١ ص ٩١

(٥) ترجمة الى التركية محمد بن علي سباهي زاده كما ذكر حاجي خليفة في كتاب

كشف الظنون ، المجلد ٢ ص ٣٩٣ « طبعة فلوغل »

في منتصف القرن التاسع عشر . ومؤخرا نرى عالما كبيرا مثل الاستاذ « سارتون G. Sarton » صاحب الكتاب المشهور « مدخل الى تاريخ العلم » يصف أبا الفداء بأنه كان أعظم عالم جغرافي في عصره . «١» وليس من شأني هنا أن اتولى البحث في خصائص كتاب « تقويم البلدان » .

وحيدا لو أقدم الاختصاصيون من الجغرافيين العرب على دراسة الكتاب وتحليل محتوياته وبيان قيمته العلمية ومكانته في تاريخ علم الجغرافيا .

وحسي في حديثي هذا أن أحاول وصف كتاب (المختصر في تاريخ البشر) وأن أستعرض الأمور التي امتاز بها أبو الفداء المؤرخ والتي تم عن نزعتة العلمية ..

يلاحظ منذ البداية أن أبا الفداء إنما أراد أن يجمع « شيئا من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة تفنيه عن مراجعة الكتب المطولة » ويقول في المقدمة ، إنه اختاره واختصره على الاخص من كتاب (الكامل في التاريخ) تأليف عز الدين بن الأثير .

من المعروف أن ابن الاثير في كتاب الكامل إنما اختصر بدوره (تاريخ الانبياء والملوك) للبصري مسج اضافة فصول عن أيام العرب ومعلومات عن المقرب ثم سجل الاحداث التي وقعت بعد عصر البصري الذي كان قد توقف عند سنة ٣٠٢ هـ فوصل ابن الاثير حتى سنة ٦٢٨ هـ .

وعلى الرغم من أن كتاب (الكامل) قد اعتبر خير ما ألف من الحوليات في التاريخ الاسلامي لما امتاز به من مسادة غزيرة وهتجويب حسن وأسلوب شيق ولغة واضحة وتعابير دقيقة ، فإن ابن الاثير قد غفل عن بعض الامور الهامة ووقع في كثير من الأخطاء عدا انه كان يحمل في الغالب ذكر مصادره وينحرف ويتحيز أحيانا عند عرض الحوادث .

وقد لاحظ أبو الفداء هذه الشوائب وعرف ان كتاب « الكامل » ليس كاملا من جميع الوجوه . وكان طبيعياً أن عالماً محققاً ، واسع الاطلاع مثله لا يمكن أن يقتصر على النقل والاقتباس ، بل لا بد له من أن يسعى الى التأكد من صحة الاخبار وضبط

G. Sarton. Introduction to the History of Science (١)

vol. III p 793 — 799

التواريخ والاسماء بالرجوع الى مصادر موثوقة كلها وجد الى ذلك سييلا . وهذه الغاية فقد استعان بمجموعة من المؤلفات القيمة قلما نجد لبعضها ذكراً عند غيره من المؤرخين فعلاوة على كتب معروفة مثل « تجارب الأمم » لابن مسكويه و « وفيات الأعيان » لابن خلكان و « المغرب في أخبار أهل المغرب » لابن سعيد المغربي و « تاريخ اليمن » للفيقيه عمارة اليميني ، يشتمل ثبوت المراجع بالأخص على « كتاب البيان عن تاريخ سني الزمان على سبيل الحجية والبرهان » لأبي عيسى بن المنجم ثم « تاريخ سني ملوك الأرض » لحمزة الأصفهاني .

هذا لا بد من التساؤل ، من هو أبو عيسى بن المنجم ؟ لقد ورد ذكره في كتاب الفهرست لابن النديم « ١ » الذي يروي أخبار آل المنجم جميعاً ويقول أن جد الأسرة يحيى بن أبي منصور هو فارسي اشتغل بالنجوم وأسلم على يد المأمون . وقد نبغ عدد من أولاده وأحفاده ، فاشتهر بعضهم بالأدب ورواية الشعر وللتأليف في مختلف الفنون ومضامنة الخلفاء ، ثم يقول ابن النديم ؛

« ومن أفاضل آل المنجم أبو عيسى أحمد بن علي بن يحيى ، له من الكتب (كتاب تاريخ سني العالم) . « دون أن يذكر شيئاً عن تاريخ مولد المؤلف أو موته أو عن محتوى الكتاب . ولكنه في ترجمة أخيه أبي عبد الله هارون يخبرنا أن هذا توفي في سنة (٢٨٨) . وعلى الرغم من أن (تاريخ) أبي عيسى لم يكتب له الانتشار ولم يصل إلينا إلا إنه يمكننا أن نتفق مع المستشرق (روزنتال) Fszanz Rosenthal الذي يقول في كتابه (علم التاريخ عند المسلمين) (٢) إن أبا عيسى بن المنجم قد ألف كتابه (تاريخ سني العالم) قبل الطبري بعدة عقود وإن هذا التاريخ ربما كان بحثاً مرقباً حسب السنين على النمط اليهودي - المسيحي يبدأ منذ الخليفة وهبوط آدم والطوفان ويروي قصص الأنبياء وأخبار الفرس والروم وإنه ربما لم يتطرق إلى تاريخ الإسلام قط . .

ومها كان الامر فان أبا الفداء في القسم الاول من « المختصر في تاريخ البشر » الخاص بالامم القديمة يعتمد كل الاعتماد على كتاب أبي عيسى بن المنجم . ويبدو أن أبا

(١) ابن النديم ، الفهرست . طبعة القاهرة ١٣٤٨ صفحة ٢٠٧

(٢) روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين « ترجمة الدكتور احمد صالح العلي »

طبعة بغداد ١٩٦٣ ص ١٠٣

عيسى قد استقى معلوماته من مصادر مريانية وبزنطية . فهو عند تحديد تاريخ (هيلين) و (موسى) مثلاً يستند الى كتاب (الرد على جوليان) الذي ألفه (كيرلس - Cyrillis) رئيس أساقفة الاسكندرية في النصف الاول من القرن الخامس الميلادي . وهو يقول : « المنقول عن أصحاب السير من اليونان أن « أميرس » « أي هومروس » الشاعر اليوناني كان موجوداً في سنة « ٥٦٨ » « لوفاة موسى . » (١) ونلاحظ أن مثل هذا التحديد الزمني ينطبق على التقديرات الحديثة .

وبوجه عام فإن الاخبار التي اقتبسها أبو الفداء عن أبي عيسى بن المنجم فيما يتعلق باليونانيين والرومان تمتاز بالدقة وتقرب كثيراً من الصحة خلافاً لما يذكره أكثر المؤرخين العرب من قصص خيالية وأساطير . وقد أقدم أبو الفداء مرة واحدة على معارضة رواية أبي عيسى ولكن من المصادفات الغريبة أنه كان هو المخطئ في هذه الحالة . فقد قال أبو عيسى بن المنجم « إن جميع العلوم العقلية مأخوذة عن اليونانيين مثل العلوم المنطقية والطبيعية والآلهية والرياضية . وكان العالم بهذه العلوم يسمى فيلسوفاً وتفسيره محب للحكمة . ومن فلاسفتهم « طاليس » الملطي الذي كان في زمن « بخت نصر » . » وهذا صحيح . ولكن أبا الفداء رجع الى كتاب الملل والنحل للشهرستاني الذي ذكر أن الفيلسوف اليوناني « ايندقليس » كان في زمن « داود » والفيلسوف « فيثاغوراس » كان في زمن « سليمان » وأنه أخذ الحكمة من معدن النبوة . وهنا أخذ أبو الفداء بحسب التواريخ القديمة فتبين له أن « بخت نصر » قد عاش بعد سليمان بأكثر من « ٤٠٠ » سنة واستنتج من ذلك ان قول أبي عيسى بأن الفلسفة اليونانية ظهرت في عهد « بخت نصر » غير مطابق لما ذكره الشهرستاني الذي اعتمد هنا على روايته دون مبرر «٢» .

أما (حمزة الأصفهاني) الذي كان ، على الرغم من نزعتة الشعبية ، مشهوداً له بالفضل والمعرفة الواسعة والنظرة الفاحصة والآراء الجريئة فقد تأثر أبو الفداء بطريقته العلمية في ضبط التواريخ وتحقيقها . وهو في كتابه (تاريخ سني ملوك الأرض) يذكر ملوك الفرس والروم وغيرهم فضلاً عن أنساب حمير وسائر دول العرب من غسان ولخم وكندة . وكان اهتمامه منصرفاً الى تحقيق سني الولادة والوفاة . وفي كتابه قائمة بأسماء الكتب الفارسية الكثيرة التي استقى منها معلوماته .

(١) المختصر ١/٨٨

(٢) المختصر ١/٨٨

لاحظ أبو الفداء أن الأخبار المأخوذة عن المؤرخين قبل الإسلام مضطربة جداً لانهم كانوا يؤرخون من ابتداء ملك كل من تلك منهم، فكثرت بدايات تواريخهم . وكان هذا ، كما قال حمزة الاصفهاني ، « سبباً في فساد تواريخهم فساداً لا مطمح في اصلاحه مع ما انضم الى ذلك من بعد العهد وتغير اللغات وقدم الكتب المؤلفة في هذا الفن ، فصار تحقيق التواريخ القديمة متعذراً أو في غاية التعسر » (١) .

وقد تأثر أبو الفداء أيضاً بأبحاث (أبي الريحان البيروني) الذي يعتبر من أكبر العلماء والمفكرين المسلمين . على أن أبا الفداء قد اقتصر على كتاب واحد هو (القانون المسعودي) في الهيئة والنجوم الذي استفاد منه عند تأليف (تقويم البلدان) فاقتبس عنه خطوط الطول والعرض وأوصاف كثير من المدن ونقل رأي البيروني في مساحة الأقاليم السبعة ومقارنته بين أبحاث الهنود واليونانيين وتصريحه القائل : « الروم والهند أصدق سائر الأمم عناية بهذه الصناعة (يقصد علم الهيئة ووصف العمورة) ولكن الهند لا يبلغون غاية اليونانيين فيعترفون لهم بالتقدم ولثله غيل الى آرائهم ونؤثرها » (٢) .

كذلك اقتبس أبو الفداء عن (القانون المسعودي) بعض المعلومات التاريخية المتعلقة بقياسرة الرومان (٣) . وكان من المنتظر أن يستفيد أبو الفداء من كتابين آخرين للبيروني لها صلة وثيقة بالتاريخ هما : أولاً كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) الذي يبحث في تقاويم وعصور الأمم القديمة ، وثانياً كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) الذي يبحث في فلسفة الهنود وآرائهم الدينية . الا ان الكتاب الثاني لا يأتي ذكره أبداً عند أبي الفداء ، الذي يعتمد في الفصل الخاص بأهم الهند وطوائفهم على الشهرستاني . أما كتاب (الآثار الباقية) فإنه يشير اليه مرة واحدة وذلك عند شرح اسم اليهود فينقل عن الشهرستاني قوله بأن هذا الاسم مشتق من هاد الرجل أي رجوع وثاب وإنه إنما لزمهم لقول موسى : إنا هدنا اليك أي رجعنا وتضرعنا . ثم يضيف ما قاله البيروني من أن ذلك ليس بشيء وأن اسم اليهود إنما أطلق عليهم نسبة الى يهوذا ، أحد الأسباط ، فان الملك استقر

(١) المختصر ٤/١

(٢) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، طبعة « رينو » باريس ١٨٤٠ ص ١١

(٣) المختصر ٦٤/١ - ٦٥

في ذريته وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة كما يوجد في كلام العرب . وهناك مؤلف آخر للبيروني يذكره أبو الفداء مرة واحدة أيضاً هو كتاب الجواهر (١) .

من المعروف ان المؤرخين المسلمين قد استوحوا طريقة التاريخ على السنين من المؤرخين الاغريق والسرمان المسيحيين الذين اتبعوا بالاخص الاسقف (اوسيبوس Ousebius) في كتابه التواريخ (Echronicles) الذي نشر في اوائل القرن الرابع وقد ظل مؤلفوا الحوليات في بلاد الغرب ايضا يعتمدون عليه حتى القرن الرابع عشر اذ يبدأون تاريخ العالم بالخليقة وهبوط آدم ثم الطوفان ونوح وتتابع سائر الانبياء والملوك . وقد وضع (اوسيبوس) جداول زمنية تحدد التواريخ الهامة من ولادة ابراهيم الى وفاة موسى ومن عهد داود الى بخت نصر والى قسطنطين كما حاول تلسيق هذه التواريخ مع مختلف انظمة التقويم من كلدانية وفارسية ويونانية ورومانية . وكان (اوسيبوس) يعتمد بالدرجة الاولى على التوراة . ونرى البيروني في كتابه (الآثار الباقية) يشير الى (اوسيبوس) فيقول : « كان اصحاب المسيح عليه السلام يحتاجون الى تقديم المعرفة بفصح اليهود يستنبطون منه اول الصوم فكانوا يستفتون اليهود فيه ويسألونهم عنه . وهم للعداوة بينهم كانوا يخبرونهم بخلاف الحقيقة ليضلوم . . ومع ذلك لم تكن تواريتهم متفقة الى ان تجرد لحسابهم كثير من حسابهم فحسبوها على ادوار مختلفة واعمال متنوئة . والذي اجمعوا على استعماله هو الجدول الذي يسمونه (خرائيقون) وزعموا ان (اوسيبوس) ، اسقف قيسارية حسبه مع ٣١٨ نفرأ من الاساقفة في السنودس الاول اي المجمع المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥ . (٢) .

وقد استند ابو الفداء أيضاً الى التوراة واعتبرها من اهم المصادر لمعرفة للتواريخ القديمة ، كما وضع جدولاً يتضمن التواريخ المشهورة بالنسبة الى الهجرة . على أن أبا الفداء قد لاحظ الاختلاف الكبير بين نسخ التوراة الثلاث المتداولة وهي : السامرية واليهودية واليونانية . فقل ان الاولى والثانية مفسودتان وأن المهققين من المؤرخين قد اختاروا التوراة اليونانية التي ليس فيها ما يقتضي الالكار من جهة الماضي من عمر الزمان . ثم انه يشير الى الاسطورة التي نسجت حول نقل هذه التوراة من العبرانية في

(١) المختصر ١٠٢/١

(٢) البيروني ، الآثار الباقية من العصور الخالية ، طبعة « سخاو » لايبزيغ

عهد الملك بطليموس الثاني « فيلادلفوس » (٢٨٥ - ٢٤٧ قبل المسيح) ، اذ تروي الاخبار ان القيم على كتب متحف الإسكندرية أخبر الملك بأنه قد جمع أحسن الآثار من اداب الشعوب في ٩٩٥ كتاباً ولكن ليس بينها ، مع الأسف ، أعظم كتاب في العالم أي التوراة ، فطلب الملك من رئيس الكهنة في القدس ارسال نسخة من أسفار موسى الخمسة ومعها « ٧٢ » عالماً فرض عليهم العزلة كل واحد منهم في حجرة حتى انتهوا من الترجمة ولما قورنت النسخ المترجمة تبين أنها جميعاً مطابقة بعضها مع بعض . وقد سميت هذه التوراة اليونانية Septuaginta أي السبعينية .

ويقول ابو الفداء (١) إنه اعتمد على هذه التوراة دون غيرها في تحديد المدة بين هبوط آدم والظوفان وما بين الظوفان ومولد ابراهيم الخليل ثم بين هذا ووفاة موسى . على أن أبا الفداء يهود في مكانين آخرين الى القول بأنه اعتمد على نسخة التوراة العبرانية في سبيل ضبط الأسماء . فهو يصرح (٢) : « وهذا الفضل ، أعني فصل (حكام بني اسرائيل وملوكتهم) قد كثرت القلط فيه لبعده عهده ولكونه باللغة العبرانية فتعسر النطق بالفاظه على الصحة . ولم أجد في نسخ التوراة التي وقعت لي في هذا الفن ما اعتمد على صحته لأن كل نسخة وقضت عليها وجدتها تخالف الأخرى إما في اسماء الحكام واما في عددهم واما في مدد استيلائهم . . . وللله والكتب الاربعة والعشرون وهي عندهم متواترة ، قديمة ولم تعرب الى الان ، بل هي باللغة العبرانية فأحضرت منها سفري قضاة بني اسرائيل وملوكها وأحضرت انسانا عارفاً باللغة العبرانية والعربية وتركته يقرأها وكتبت منها ما ظهر عندي صحته وضبطت الأسماء بالحروف والحركات حسب الطاقة . . » ثم يقول (٣) : « وقربنا في ضبط هذه الاسماء غاية ما أمكننا . فان فيها احرفاً ليست من حروف العربي وفيها إمالات ومدات لا يمكن أن تعلم بغير مشافهة . لكن ما ذكرناه من الضبط هو اقرب ما يمكن . فليعلم ذلك . »

والى جانب المصادر الرئيسية السابقة كان أبو الفداء يرجع في موضوعات معينة الى الكتب الاختصاصية . فهو ، مثلاً ، بعد ان نقل أسماء قرعنة مصر الاولين وأخبارهم

(١) المختصر ٦/١

(٢) المختصر ٢١/١

(٣) المختصر ٣٢/١

عن تاريخ ابن سعيد المغربي أراد اتمام السلسلة بمراجعة كتاب خاص بمؤك مصر في قديم الزمان لمؤلف اسمه « ابن حنون الطبري » لا نعرف عنه اليوم شيئاً . ثم ينتقل الى كتب اليهود التي تذكر أن فرعون الذي غزا بني اسرائيل على أيام الملك « رحبعم » بن سليمان هو « شيشاق » أي « ششوق » الاول مؤسس الاسرة الليبية ، ويعلن أبو الفداء على ذلك قائلاً : الاول وهو الاصح ، أي اصح من اسم « بولة » الذي يذكره ابن حنون (١) .

وفي الفصل الخاص بأمة اليونان نقل أبو الفداء تراجم حياة فلاسفة اليونان الكبار سقراط وأفلاطون وأرسطو عن الشهرستاني ثم استعان بكتاب « تاريخ الحكماء » لابن القفطي في سبيل معرفة أسماء الفلاسفة اليونانيين المتأخرين وعلى الاخص الذين عاشوا منهم في الاسكندرية واشتغلوا بالعلوم الرياضية والطب (٢) .

مشهدا راجع أبو الفداء مصادر عديدة ومشهدا سعى الى استقصاء المعلومات ومقارنتها وتحصيلها فيما يتعلق بالأمم القديمة كذلك فعل القسم الثاني من كتابه أي قسم التواريخ الاسلامية . فكان في كثير من الموضوعات يرجع الى مؤلفات الاختصاصيين لتسلافي النقص أو تصحيح الأخطاء لدى ابن الأثير . هكذا نراه عند الكلام على غارة « التتر » التي يصفها بأنها أعظم مصيبة نكب بها المسلمون يعتمد على كتاب « تاريخ ظهور التتر » تأليف محمد بن أحمد النسوي الذي كان كاتب الانشاء لدى جلال الدين بن محمد خوارزم شاه والذي رافقه في حروبه مع التتر وأصبح أخير الناس بأحوال الخوارزمين وجيرانهم فنقل عنه أبو الفداء وصف بلاد الصين ونشأة جنكيزخان (٣) .

ويعتمد أبو الفداء على (كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان) لأبي العرب الضاهجي في تصحيح تاريخ مقتل أبي عبد الله الشيعي ، داعية المهدي مؤسس الدولة الفاطمية إذ أورده ابن الأثير في سنة (٢٩٦) في حين يذكر الضاهجي ان ذلك كان في سنة (٢٩٨) ويضيف أبو الفداء قائلاً : « وهو الأصح عندي ، كما ذكر ذلك ابن

(١) المختصر ٦١/١

(٢) المختصر ٩٠/١

(٣) المختصر ١٢٩/٣ و ١٥٤

خلكان أيضاً» (١) . وعند البحث في دولة بني حماد بإفريقية يقتبس أبو الفداء معلوماته من كتاب الضهاجي أيضاً (٢) .

أورد ابن الأثير موت محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، صاحب حلب في سنة (٤٦٩) . وهنا يقول أبو الفداء : « لكنني وجدت في (تاريخ حلب) تأليف كمال الدين المعروف بابن العديم أن محموداً المذكور مرض في سنة ٤٦٧ وحدث به قروح في الأمعاء مات بها في تلك السنة فملك بعده ابنه نصر الذي لم يذكر ابن الأثير تاريخ مقتله بينما قال ابن العديم إن ذلك كان يوم الأحد مستهل شوال سنة (٤٦٨) (٣) .

حقاً إن تفكير أبي الفداء كان يسيطر عليه الاتجاه الرياضي . فهو مولع بحساب التواريخ ومقارنتها وضبطها . ولنذكر مثلاً آخر : لما رأى أبو الفداء أن ابن الأثير قد ذكر قلعة (شينر) القريبة من حماة مدعياً أنها لم تزل لبني منقذ يتوارثونها من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب ، صرح بأن الأمر ليس كذلك لأن ابن مرداس توفي سنة (٤٢٠) بينما كان تلك بني منقذ لشينر في سنة (٤٧٤) أي بعد مدة أربع وخمسين سنة . ويضيف أبو الفداء قائلاً : « ونحن نورد أخبار بني منقذ محققة حسبما نقلناها من تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد وهو أفضل بني منقذ » (٤) .

كان أبو الفداء، كما تقدم ذكره ، يتردد الى قاضي قضاة حماة جمال الدين بن واصل للدراسة . والمعروف ان ابن واصل الذي اشتهر بكتابه « مفرج الكروب في اخبار بني ايوب » كان قد توجه في سنة ٦٥٩ هجرية « ١٢٦١ ميلادية » رسولاً من قبل الملك الظاهر بيبرس الى الامبراطور « مانفريد » . وقد اشتهر أبو الفداء الفرصة ليسأله عن مشاهداته في ايطاليا ويجمع مادة لكتابه في التاريخ فعلم منه ان كلمة امبراطور معناها ملك الأمراء وان مملكة « مانفريد » تشمل جزيرة صقلية وبلاد « ابولية » و « لومباردية » من البر الطويل « اي ايطاليا » وان الامبراطورية « مانفريد » كان مثل والده « فريدرين الثاني » مصافياً للمسلمين ومحباً للعلوم . وقد اكرم ابن واصل الذي صنف له كتاباً في المنطق بعنوان « الامبروزية » نسبة الى الامبراطور . وذكر ابن واصل انه اقام في

(١) المختصر ٧٠/٢

(٢) المختصر ١٣٨/٢

(٣) المختصر ٢٠٢/٢

(٤) المختصر ٣٣/٣

مدينة من مدائن « أبولية » تبعد عن رومية مسيرة خمسة أيام [يقصد بذلك « فوجيا »]
 وإن هناك بالقرب منها مدينة تسمى « لوجارا » « اي Iu cera » أهلها كلهم مسلمون ،
 كان قد نقلهم الامبراطور « فريدريك الثاني » من صقلية ليكونوا حرساً خاصاً له .
 وكانت أكثر اصحاب الامبراطور « مانفريد » مسلمين ويعلن في معسكره بالأذان
 والصلاة (١) .

ولنتقل الآن الى ناحية اخرى تدل على نزعة ابي الفداء العلمية ويتجلى فيها حسه
 التاريخي ونعني بذلك محتوى كتاب « المختصر في تاريخ البشر » . فما هي المواد التي كان
 يختارها أبو الفداء من المصادر الموجودة بين يديه وما هي طريقته في انتقاء
 هذه المواد ؟

من المعلوم ان الاخبار التي تتناولها الأجيال ويدونها الرواة كثيرة تشمل اموراً
 متنوعة جداً من تعاقب الملوك والحكام والقادة ووصف الحروب والثورات والانقلابات
 وتسجيل نصوص القوانين والمرامات والمعاهدات ثم تراجم احوال الفلاسفة والعلماء
 والادباء والشعراء والاشادة بالاعمال العمرانية والآثار الفنية وذكر الكوارث الطبيعية من
 زلازل وفيضانات وأوبئة وبجاعات وغير ذلك .

هذه الحوادث ليست جميعها مهمة تستحق الحفظ ، كما إن الاخبار عنها ليست
 دوماً موثوقة ، صحيحة . وقد امتلات كتب التاريخ بكثير من القصص
 الخرافية والاساطير .

ان المؤرخ الحقيقي هو الذي يستطيع تمييز الاخبار الصادقة من الكاذبة والذي
 يعرف الاحداث الهامة التي ينبغي تسجيلها قبل غيرها . ولا شك في ان ابا الفداء كان
 قادراً على نقد الرواة وتمحيص الأخبار واختيار المواد اللازمة كما يدرك ان اهمية الحادث
 التاريخي تقاس بمدى تأثيره في الاوضاع الحاضرة والمستقبلية .

وإذا كنا لا ننكر ان (المختصر في تاريخ البشر) يتضمن بعض الحوادث النافذة
 والاخبار المشبوهة والقصص السخيفة فلا بد من الاعتراف بان هذه الشوائب قليلة وانه
 عند مقارنته مع نظائره يبرهن على نزعة علمية ونظرة انتقادية وتفكير عقلائي . انه

بالاجمال ، يتنازع على كثير من سائر كتب التاريخ باقتصاره على الامور الهامة والاختبار الصحيحة .

إن ابا الفداء ، بعد ان ينقل قصص الانبياء كما كانت تروى اذ ذاك كافة المؤلفات التاريخية في الشرق والغرب بالاستناد الى شهادة الكتب الدينية ، يبدأ في ذكر طبقات ملوك الفرس فيقول إنهم يقسمون الى أربع طبقات وإن ملوك الطبقة الاولى القديمة « تروي عن مدد ملكهم وحرورهم أمور يأبأها العقل ويحجبها السمع فأخبر منا عنها لذلك ولم نذكر الا ما يقرب الى الذهب صحته » . (١) وفي الواقع يدعي المؤرخون مثلاً أن « جم » حكم مدة سبعمائة سنة وثلاثة أشهر وأن الملك « بيوراسب » حكم مدة ألف سنة . ولكن ابا الفداء لم يشر الى ذلك ، بل وجه اهتمامه الى اساليب الادارة والسياسة لدى ملوك الفرس ولخص مبادئ ديانة « زرادشت » ثم تعاليم « مزدك » التي تدعو الى التساوي في الاموال بين الناس والاشتراك في النساء (٢) وتؤمن بالتنجيم والطلاسم والتي كان لها تأثير في آراء بعض الفرق حتى العهد الاسلامي مثل القرامطة .

وعند ذكر القبط نقل ابو الفداء عن كتاب « طبقات الامم » لصاعد الاندلسي قوله : إن سكان مصر كانوا اهل ملك عظيم في الدهور الخالية وظهر بينهم علماء بضروب العلوم خاصة الطبقات والنيروجات والكيمياء وانهم كانوا اخلاطاً من الامم ما بين قبط ويونان وعمايق وروم وغيرهم وذلك لكثرة من تداول عليهم فان اكثر من تلك مصرم الغرياه (٣) .

ولما تكلم على اليونان قال إنهم كانوا طوائف قبل « فيلبس المكدوني » ثم بعد ان ذكر الاسكندر وخلفاءه استعرض فلاسفة اليونان ويبحث في آرائهم ومؤلفاتهم .

وفي الفصل عن ملوك الرومان يبحث في القياصرة وفتوحاتهم بينما اقتصر في الفصل عن أمم الهند على ذكر مختلف الفرق والطوائف والمذاهب . ثم قال عن أهل الصين بأنهم أحسن الناس سياسة وأكثرهم عدلاً وأحذقهم في الصناعات ولا سيما في النقش والتصوير .

(١) المختصر ١/١

(٢) المختصر ١/٥٣

(٣) المختصر ١/٥٩ و ٨٦

كان أبو الفداء يكتفي بالصفات العامة التي اشتهرت بها مختلف الأمم لانه لم يكن في استطاعته أن يعرف عنها تواريخ مطبوعة . لذلك نراه عندما يذكر بلاد « عاد » التي تعرف بالاحقاف يقول: « لقد كثر الاختلاف في أمرم وجميع ما ذكر من ذلك مضطرب، غير قريب للصحة فأضربنا عنه » (١) . وعند ذكر مالوك كندة يروي قصة أمرى القيس التي ورد فيها أن ملك الروم دس له السم في حلة فقال : « وهذا عندي من الخرافات » (٢) .

وفي الحقيقة كان أبو الفداء يتحاشى دوماً رواية القصص الخرافية التي كانت تزخر بها كتب المؤرخين المعاصرين له والتي كان يجهر بكافحتها . وقد نقل عن ابن الاثير أن الناس بالموصل في سنة « ٦٠٠ » أصابهم وجع في حلوقهم فشاع أن امرأة من الجن يقال لها أم عنقود مات ابنها وأن كل من لا يعمل مأمناً يصيبه هذا المرض فكان النساء وأولاد الناس يلطمون على عنقود ويقولون : يا أم عنقود اهزينا ، قد مات عنقود وما درينا . ثم يضيف أبو الفداء قائلاً : « وإنما أوردنا هذا لان رعاغ الناس الى يومنا هذا وهو سنة « ٧١٥ » يقولون بأم عنقود وحديثها ، ليعلم تاريخ هذا الهديان متى كان » (٣) .

بقدر ما كان أبو الفداء يعرض عن رواية الاساطير والخرافات والقصص العجيبة كان يحرص على الاكثار من الاخبار والاجتات العلمية . هكذا عندما ذكر في حوادث سنة (٢٥٩) وفاة محمد بن موسى بن شاكر احد الاخوة الثلاثة الذين يقول « انه كانت لهم هم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل (اي الميكانيك) والموسيقى ، اخذ يبحث في المهمة التي عهد بها اليهم الخليفة المأمون وهي تحقيق ما ورد في كتب الاوائل عن دور الارض (اي محيطها) . فشرح بالتفصيل كيف ساروا الى صحراء سنجان ومسحوا طول الدرجة فظهر انها ٥٦ ميلا وثلاثا الميل ، ثم قارن ذلك بما اثبتته (بطليموس) في كتاب الجسطي « ان التفاوت يبلغ عشرة اميال وان ذلك انما يرجع الى الخلل في العمل إذ لا يمكن الاحتراز عن المساهلة والمساهة تارة في استقامة المشي وتارة من جهة المدرج وغير ذلك » وفي الاخير يعاق أبو الفداء على بعض ما نقله احد المؤرخين « من ان الذي وجد في ايام المأمون لخصه الدرجة ستة وستون ميلا وثلاثا الميل » قائلاً :

(١) المختصر ١/١٠٣

(٢) المختصر ١/٧٩

(٣) المختصر ٢/١٩٤

وهذا غير صحيح . فان ذلك هو حصة الدرجة على رأي القدماء . واما في ايام المأمون فقد وجد ان حصة الدرجة ستة وخمسون ميلا وثلاثا ميل وبضرب هذه الامثال في ثلاثمائة وستين وهي درجات الفلك يكون الحاصل (٢٤) الف ميل وقد تحقق ذلك في علم الهيئة . (١)

ولما سجل أبو الفداء بين حوادث سنة « ٦٤٩ » وفاة الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم المعروف بتمعاسيف وصفه بأنه كان اماماً في العلوم الرياضية وأنه اشتغل بالديار المصرية والشام ثم سار الى الموصل وقرأ على الشيخ كمال الدين موسى بن يونس علم الموسيقى ثم عاد الى الشام وتوفي بدمشق (٢) وكان قبيل ذلك عند ترجمة حياة الملك المظفر تقي الدين محمود بن المنصور قال عنه انه كان يحب أهل الفضائل والعلوم وانه استخدم الشيخ علم الدين قيصر الذي بنى له أبراجاً مجاهرة وطاحوناً على النهر العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جمع الكواكب المرصودة ، وعملت هذه الكرة بجهاة ، وقال القاضي جمال الدين بن اصيل : « وساعدت الشيخ علم الدين على عملها . وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسأل عن مواضع دقيقة فيها » (٣)

ويذكر المؤرخون أن الامبراطور « فريدريك الثاني » كان ، بعد رحيله من القدس ، بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضية فعرضها الملك على الشيخ علم الدين الذي كتب جوابها (٤) .

ويبيد أبو الفداء اهتماماً كبيراً بالمدارس فيذكر مثلاً كيف ابتدأ الوزير نظام الملك بعمارة المدرسية النظامية في بغداد سنة « ٤٥٧ » وفرغ من ذلك سنة « ٤٥٩ » ، « ١٠٦٧ ميلادية » وتقرر التدريس بها للشيخ أبي اسحق الشيرازي وكيف اجتمع الناس يوم الافتتاح لحضور الدرس ولكن تأخر الشيخ أبو اسحق لانه سمع شواذاً ان

(١) المختصر ٥٢/٢ ؛ تقويم البلدان ص ١٤

(٢) المختصر ١٩٥/٣

(٣) المختصر ١٨١/٣

(٤) المغريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . طبعة دار الكتب المصرية .

أرض المدرسة مغصوبة وكيف تولى الشيخ يوسف بن الصباح إلقاء الدروس بها مسدة عشرين يوماً ثم اجتهدوا بأبي اسحق حتى قبل التدريس بها (١) .

كانوا المؤرخون العرب قد بدأوا منذ صدر الاسلام يهتمون بتراجم أحوال الصحابة والتابعين ورواة الحديث فنشأت كتب « الطبقات » الأولى لهؤلاء ثم اتسعت دائرة الاهتمام فشملت الفقهاء والمتصوفين والنحاة والشعراء والأدباء والفلاسفة والأطباء وغيرهم. وفي هذا الصدد أبدى المستشرق النمساوي « شبرنغر Sprenger الملاحظة التالية: « من المبادئ الاساسية النبيلة عند العرب والمسلمين احترام الذات والكرامة الشخصية فان لكل فرد قيمته ومكانته ، لذلك فان الكتب التي ألفها المسلمون في التراجم والالساب تفوق في عددها كل ما كتبه الامم الاخرى السابقة والمعاصرة لهم معاً . »

ولم يقتصر الامر على كتب التراجم، بل ان التواريخ العامة وبالأخص الحوليات جميعاً تشتمل على تراجم حياة الكثيرين من « الأعيان » . ومثل غيره من الحوليات كان ابو الفداء أيضاً يذكر ضمن حوادث كل سنة المشاهير الذين ماتوا فيها . الا ان هناك فرقاً بينه وبين اكثر المؤرخين الذين كانوا يحشرون اكبر عدد ممكن من اسماء الاشخاص سواء كانوا بارزين حقاً أو مجرد مشتغلين بالقراءة والحفظ أو الخطابة والوعظ أو الفقه والقضاء ، فقد كان ابو الفداء يقتصر على الشخصيات البارزة من كبار علماء اللغة والادباء والشعراء وكان يؤثر على الأخص الاطباء والفلاسفة .

كان ابو الفداء بارعاً في تصوير حياة هذه الشخصيات بكلمات قليلة تبرز الصفات المميزة ، كما كان يروي عن أبطاله بعض القصص والاشعار التي تعكس البيئة والظروف التاريخية ولا تخلو أحياناً من لكمة ظريفة أو دعابة لطيفة .

هكذا كتب أبو الفداء ترجحات وافية ، جيدة لأبي بكر الرازي والفارابي وابن سينا ونصير الدين الطوسي ثم للشافعي والاشعري وسيبويه والفرا والجاحظ . وقد تكلم بأسباب عن الامام فخر الدين الرازي الذي يقول عنه إنه كان أرواح زمانه في المعقولات والاصول ويروي كيف ثار عليه فقهاء الكرامية. والخنفية بمرارة في ما وراء النهر ونسبوه الى الزندقة ومذهب الفلاسفة فاضطر الى الاتصال بصاحب غزنة ثم بالسلطان خوارزم

شاه اللذين حظي لديمها وينقل من نظم فخر الدين الرازي الابيات التالية (١) :

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويروي أبو الفداء قصة أمين الدولة ابن التلميذ الذي كان طيب دار الخلافة في عهد المفتي ويصفه بأنه كان حاذقاً ، فاضلاً ، ظريف الشخص ، عالي الهمة ، يصيب الفكر ويقول عنه إنه كان شيخ النصارى وقسيسهم وله في الادب يد طولى وكان متفنناً في العلوم وخلف تصانيف حسنة منها كتاب (اقراباذين) وهو المعتمد عليه عند الاطباء . ومن معاصري ابن التلميذ ابو البركات بن ملكات الحكيم صاحب كتاب المعتبر في الحكمة وكان بينهما تنافس كما يقع كثيراً بين أهل كل صنعة . وكان أبو البركات يهودياً ثم أسلم في آخر عمره . وكان متكبراً بخلاف ابن التلميذ الذي نظم فيه هذه الابيات :

لنأ صديق يهودي ، حباقتيه
إذا تسكلم تبدو فييه من فييه
يتيميه والسكلب أعلى منه منزلة
كأنه بعد لم يخرج من التيميه (٢)

وعند ذكر محمد بن عبد الملك بن زهر الاندلسي - الاشبيلي الذي كان فاضلاً في الادب وكان طبيباً مثل والده عبد الملك وجده الوزير والفيلسوف زهر ، يروي أبو الفداء هذين البيتين اللذين نظما في ابن زهر :

قل للوبا أنت وابن زهر
قد جزقنا الحد في النكايه

(١) المختصر ٣/١٠١ - ١٠٢ و ١١٨

(٢) المختصر ٣/٤٥

ترققسا بالسورى قليلاً

في واحد منكها كفاية (١)

وفي حوادث سنة (٥٨٤ هـ) يذكر أبو الفداء وفاة محمد بن الكاتب المعروف بالتعاويذي الشاعر المشهور الذي شاعت قصائده في الغزل والنسيب والذي له خير ذلك أشياء حسنة أيضاً منها الابيات التي صنعها على إثر مصادرة جماعة من اهل الدراوين في بغداد وهي :

يا قاصداً بغداد جز عن بلدة

للجور فيها زجرة وعتاب

إن كنت طالب حاجة فارجع فقد

سدت على الراجي بها الأبواب

والناس قد قامت قيامتهم فلا

أنساب بينهم ولا أسباب

والمرء يسلمه ابوه وعرسه

ويخوننه القرباء والأحباب

لا شافع تقني شفاعته ولا

جان له مما جناه متاب (٢)

واخيراً يتعرض أبو الفداء في حوادث سنة ٦١٢ الى الوجيه المبارك بن أبي الازهر الذي اشتغل بعلم العربية وولي تدريس النحو بالمدرسة النظامية وكان حنبلياً ثم انتقل الى مذهب أبي حنيفة ثم صار شافعيّاً فقال فيه ابو البركات زيد التكريتي :

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة

وإن كان لالتجدي اليه الرسائل

تمدهيت للنعمان بعد ابن حنبل

وفارقتنه إذ اعوزتك المآكل

(١) المختصر ٣ / ١٠٢

(٢) المختصر ٣ / ٨٠

وما اخترت رأي الشافعي تديناً
ولكنما توى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لاشك صائر
الى مالك فافطن الى ما أنت قائل (١)

قبل الحكم على قيمة كتاب أبي الفداء من الوجهة التاريخية العالمية لابد لنا من الاعتراف بأن (المختصر في تاريخ البشر) ينقصه الكثير من المزايا التي نجدها في كتاب ابن الأثير (الكامل في التاريخ) مثل تنوع المعلومات ووفرة الوثائق والتوازن بين مختلف العصور والأقاليم والتعليقات والتأملات حول الاحداث الهامة والاسلوب الجميل في عرض الوقائع بصورة متسلسلة ، متماسكة .

وفي الواقع لم يفكر أبو الفداء ، بادىء الأمر ، في تأليف كتاب شامل . فلم يضع مخطوطاً لأجزاء الكتاب وفضوله ولم يقصد توجيه الكلام الى القراء وشرح آرائه في احداث التاريخ . فهو انما قام بتدوين بعض التواريخ « تكون تذكرة له تغنيه عن مراجعة الكتب المطولة » . وقد كتب هذه المذكرات بأسلوب بسيط ، بل جاف ومختصر للغاية . ثم أخذ يسعى الى تمحيص الاخبار التي جمعها وحاول ربط بعضها ببعض .

وقد اختصر التواريخ القديمة في خمسة فصول تقع في « ١٠٠ » صفحة ثم أتبع ذلك بالتواريخ الاسلامية مرتبة على السنين وملخصة من ابن الأثير فخصص « ٢٤٠ » صفحة للمدة الطويلة منذ ظهور الاسلام حتى بداية الحروب الصليبية « أي مدة ٥٠٠ سنة » في حين أن الفترة التالية ومدتها « ٢٤٠ » سنة فقط قد شغلت « ٣٧٠ » صفحة .

على الرغم من هذه العيوب فقد نال كتاب أبي الفداء شهرة واسعة سواء في العالم الاسلامي أو في بلاد الغرب . وفي حياة أبي الفداء نفسه أقدم بعض العلماء على كتابة ذيول له مثل ابن الوردي ثم ابن حبيب الدمشقي وابن الشحنة الحلبي . وفي الغرب نشر قسم التواريخ الاسلامية مع ترجمة لاتينية منذ اوائل القرن الثامن عشر ثم نشر القسم الأول في القرن التاسع عشر مع ترجمات لاتينية وفرنسية وانكليزية . وفي سنة ١٨٥٦ ترجم الكتاب في الهند الى لغة الاوردو .

السبب في هذا التقدير هو أن أبا الفداء استطاع اختصار مجموعة من الكتب التاريخية القيمة ضاع بعضها وألف منها خلاصة مكثفة ، منقحة . وإذا كان الباحثون في الوقت الحاضر لم يعودوا يرجعون الى كتاب المختصر في تاريخ البشر كمنبع للمعلومات عن العصور القديمة والاسلامية الاولى بعد أن نشرت المصادر الأصلية ، المفصلة ، فإن القصول الاخيرة من الكتاب ، المتعلقة بالحصار الذي عاش فيه المؤلف ولا سيما زمن الحروب الصليبية وعهد الأيوبيين والخوارجيين والتتر والماليك ، مازالت تستحق كل اهتمام لان قسماً كبيراً من حوادث هذه الفترة قد شاهدها أبو الفداء بنفسه واشترك فيها مباشرة ، مثل حصار قلعة المرقب (١) وحصار طرابلس (٢) ، أو اطلع عليها من الشهود المعاصرين وقد أحسن وصفها بأسلوب مبين ، واضح ، دقيق ، بعيد عن التزويق والتنديق ، عدا انه كانت شديد الحرص على ضبط التواريخ وتحديد أوقات الحوادث بذكر اليوم من الشهر القمري والشعبي معاً في كثير من الاحيان . ثم ان أبا الفداء يمتاز باقتضاره على الشؤون الهامة التي يعرضها بطريقة موضوعية ، حيادية . ولعل من أهم العوامل التي دفعت المستشرقين الى الاعتماد على كتاب المختصر في تاريخ البشر هو التزام المؤلف بهذه الطريقة حتى عندما نسردها حوادث الحروب الصليبية دون أن يبدو عليه شيء من التعصب والانحياز ..

لقد كان أبو الفداء يتمسك بالحياد وقول الحق حتى عندما يتكلم على أقاربه من أمراء الأيوبيين . فنراه مثلاً لا يتردد في وصف الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بأنه كان عسوقاً لرعيته (٣) . في حين أن مؤرخاً آخر كتب بعد أبي الفداء يقول عن شيركوه انه كان من احسن الملوك سيرة ، طهر بلاده من الخمر والمكوس والمنكرات ، فكانت في غاية الأمن والعدل ، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب (البدو) أن يدخل بلاده الا أهانه غاية الاهانة (٤) . واذا كنا لا نستغرب من شيخ مثل ابن كثير أن يمدح صاحب حمص ، للأسباب التي اشار اليها ، قبل نهم أبا الفداء بأنه قد تأثر بعلاقات التناقص المشهورة

(١) المختصر ٤ / ٢٢

(٢) المختصر ٤ / ٢٤ - ٢٥

(٣) المختصر ٣ / ١٧٣

(٤) عماد الدين بن كثير : البداية والنهاية في التاريخ - طبعة القاهرة ١٣٨٨

بين حمص وحماة فتحامل على جاره ؟ ولكن يبدو أن أبا الفداء كان على حق في وصف قريبه بالتعسف اذ نرى المؤرخ (ابن واصل) ايضاً يقول عن الملك الجهاد شيركوه « انه كان عنده حيف وعسف وانه خرب بذلك حمص وأطرافها فتفرق اهلبا في البلاد » (١) .

ويمكن أن نلمس روح الحياء والانصاف لدى أبي الفداء في انتقاده للمؤرخ المشهور أبي الفرج ابن الجوزي الذي كان كثير الوقعة في العلماء ويضرب أبو الفداء مثلاً على ذلك ترجمه على عبد الكريم السمعاني صاحب كتاب (الأنساب) ثم يقول : « وانما ذنب السمعاني عند ابن الجوزي هو أنه شافعي . فان ابن الجوزي لم يبق على احد غير الحنابلة » (٢) .

ان نزعة أبي الفداء العلمية وطريقته الانتقادية ، الموضوعية ، الحياضية — كل ذلك يدفعنا الى أن نتم بشخصية هذا العبقري وندرس آثاره ولتين قيمتها العلمية وتبرز مكانته في تاريخ الحضارة البشرية ...

(١) المقريزي ، كتاب السلوك صفحة ٣٢٥ .
 (٢) المختصر ٣ / ١٠٦ .

أبو الفداء

وتعليق التاريخ

الدكتور عمر فروخ

إذا استعرض الباحث كتب التاريخ العامة ، ابتداء بكتاب « فتوح البلدان » للبلاذري (ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) وانتهاء بالكتاب العظيم « كتاب العبر » لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥) - على ما بين هذه الكتب من تفاوت في الشمول أو الصحة أو الدقة أو الملائمة - فإن هذا الباحث ليعجب أن يرى كتاب « المختصر في أخبار البشر » لابي الفداء (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١) يبرز بروزاً واضحاً ثم يكثر الاهتمام به منذ أيام

أبي الفداء الى إيماننا نحن . فكيف استحق هذا الكتاب الصغير المختصر أن يثبت على اختلاف نزعات القراء وتباين معايير المؤرخين ؟

إذا كانت الشهرة حظوظاً، كما يقول ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م)، فإن ذلك حكم يصدق في الأدب الذي عناه ابن رشيق ولا يصح في البحث العلمي الذي نحن بسبيله . إن المعانين للأدب إنشاءً وتأريخاً ومناقشة لا يستطيعون - لطبيعة الأدب شعراً في الأكثر ونثراً في الأقل - أن يخضعوا مناهجهم وأحكامهم للدقة والثقة اللتين تخضع لهما العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على كثرة ثم العلوم الاجتماعية كالتاريخ والسياسة والاقتصاد على قلة . وإذا أنا أتيت بهذه الموازنة هنا - بين كتب العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية من جانب وكتب العلوم الاجتماعية والأدبية من جانب آخر - فلأن كتاب « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفداء من أقرب كتب التاريخ ، وهي ميدان البحث هنا ، الى نطاق العلم .

ان معظم المؤلفين في معظم فروع المعرفة يذكرون في مقدمات كتبهم غاياتهم من تأليف كتبهم ثم يبسطون أشياء من المنهاج الذي يريدون أن يتناولوا به الموضوعات التي سترد في كتبهم . لقد فعل ذلك عبد الله بن المقفع (ت ١٤٢ هـ = ٧٤٩ م) في كتابه « كتيبة ودمنة » أول الكتب المؤلفة التي وصلت إلينا ، ثم ما زال يفعل ذلك كل مؤلف الى أيامنا هذه ، وان كان كتابه أحياناً لا يحتاج الى بسط اسبب تأليفه . جاء في مقدمة الحلقة الثانية عشرة من سلسلة أعلام العرب: « القلقشندي في كتابه صبح الاعشى: عرض وتحليل » بقلم الدكتور عبد اللطيف حمزة (١) ما يلي (ص ٣ - ٤) :

« ان ثقافتنا العربية ... خليقة بأن يعنى بها ... بحيث نعتبر أنفسنا آثمين في حق عروبتنا اذا نحن تركنا تراثنا العربي القديم مكتوباً بخطوط أصحابه وأعلامه معروضاً بطريقتهم التي كانت ملائمة للعصر الذي عاشوا فيه . ومن هنا يدعونا داعي العروبة ، من آن لأن ، الى أن نعود الى هذا التراث فنقوم بنشره ... ثم لا يكفيننا نشر هذا التراث القديم ... حق نأخذ في عرضه كذلك بطريقة حديثة تلائم أذواق الجيل الذي نحن فيه . وللأجيال التي تأتي بعدنا أن تفعل فعلنا » .

(١) عبد اللطيف حمزة .

وسمع أن هذا الرأي من الدكتور عبد اللطيف حمزة يحتمل الجدل ، فإنه بلا ريب يمثل اتجاهها له مبرراته في أحوال كثيرة .

تعليل التاريخ - أو فلسفة التاريخ ، كما يقول الكتاب الغربيون - منهج وضعه على الاسس العلمية عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ = ١٤٠٥ م) لم يسبقه الى ذلك سابق في الشرق وفي الغرب . ان فيتو الايطالي (١٦٦٨ - ١٧٤٤ م) ، وقد ولد بعد وفاة ابن خلدون بقرنين ونصف قرن ، لما وضع كتابه في تعليل التاريخ ساه « العلم الجديد » (١) . ومعنى هذا أن هذا العلم « تعليل التاريخ » كانت جديداً في الغرب الاوروي . ولم يدر فيتو أن العالم المسلم عبد الرحمن بن خلدون قد سبقه الى أحسن من آرائه وأتم (٢) قبل قرنين ونصف قرن من الزمن .

ومن الحق أن يسمى هذا العلم « مصطلح التاريخ » كما ساه الدكتور أسد رستم (ت ١٩٦٥ م) وجعله مبينياً على « مصطلح الحديث » (٣) . ان العلماء المسلمين ، لما بدأوا يروون أحاديث رسول الله منذ أيام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م) ، قد حرصوا على الاستيثاق من عدالة رجال السنن وعلمهم ومن صحة المتن أو كلام الرسول المروي . وقد وضع علماء الحديث في الأزمنة المتعاقبة قواعد وشروطاً تعدد المنهج العلمي المثالي في هذا الباب وتقيدوا نظرياً وعملياً بتلك الشروط تقيداً تاماً . ان

Principi de una scienza nuova d intorna alla natura (١)

delle natione (Napoli , ottobre 1725 =

مبادئ علم جديد تنصل بطبيعة الأمم (نابولي ، تشرين الأول - أكتوبر عام ١٧٢٥ م) .

(٢) راجع « دراسات عن ابن خلدون » ، تأليف ساطع الحصري (الطبعة

الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٣) ص ١٨٩ وما بعده ، ثم ١٩٤ وما بعد ثم ١٩٩ :

« يتبين من التفاصيل التي ذكرناها آنفاً أن ابن خلدون يتفوق على فيكو تفوقاً كبيراً ،

من حيث شمول النظر ونزعة التعمق وطريقة البحث والاستقراء . . . واذا اخذنا فرق الزمن

ينظر الاعتبار فاننا نضطر الى التسليم بأن رجحان كفة ابن خلدون في ميزان المفاضلة

يصبح أكثر بروزاً وأشد بدهاء . ان مقدمة ابن خلدون كتبت سنة ١٣٧٧ للميلاد في

حين أن « العلم الجديد » نشر سنة ١٧٢٥ . . » (١٩٩ - ٢٠٠) .

(٣) مصطلح التاريخ ، وهو بحث في نقد الاصول ومحوري الحقائق التاريخية

وايضاحها وعرضها ، للدكتور أسد رستم (المطبعة الاميركية في بيروت ١٩٣٩) .

رواية الحديث في الاسلام لم تكن من باب العلم والتاريخ فحسب ، بل كانت من الامور الدينية فانت الكذب في رواية حديث رسول الله مع العمدة يخرج صاحبه من الاسلام . ويبيوئه مقعداً من نار جهنم(١) . ويحسن أن أورد هنا مقطعا من كتاب « مصطلح التاريخ » للدكتور أسد رستم « المقدمة ، الصفحة و - ز » :

« والواقع أن الميثودولوجية(٢) الغربية التي تظهر اليوم لأول مرة بشوب عربي(٣) ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث بل تمت اليه بصلة قوية . فالتاريخ دراية ورواية كما أن الحديث دراية ورواية . والتواعد التي وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل الى الحقيقة في الحديث تتفق في جوهرها واتجاهها والانظمة التي اكتشفها علماء أوروبا فيما بعد في بناء علم الميثودولوجية ولو أن مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى والعصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا في بناء علم الميثودولوجية حتى أواخر القرن الثامن عشر . وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكد لهم بأن ما يقاخرون به من هذا التجميل نشأ وترعرع في بلادنا . ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل باسمه وقواعده » .

استعرض الدكتور أسد رستم عدداً من أوجه التحقيق في عدد من كتب الحديث ثم توسع في الاستشهاد برسالة للقاضي عياض بن موسى بن عياض المقرئ السبقي « ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م » عالم المقرب وامام اهل الحديث في وقته . هذه الرسالة تتعلق بالمصطلح في الحديث وقد مدحها الدكتور رستم كثيراً واثنى على مؤلفها وأكثر الاستشهاد بفقراتها وتمنى أن يوفق في نشرها ، ولكن الفرصة لم تواته .

★ ★ ★

- (١) في الحديث الشريف: «من كذب علي عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» .
 (٢) الميثودولوجية ، طريقة للبحث على أسس معينة .
 (٣) يشير الدكتور أسد رستم الى أنه أول من عالج هذا الموضوع الغربي « بالخين المعجمة » في اللغة العربية .

ونأتي الآن الى تلمس اشياء من أوجه تعليل التاريخ عند أبي الفداء .

لم يضع أبو الفداء نظرية في تعليل التاريخ ، ولكنه جاء في مقدمة كتابه «المختصر في تاريخ البشر» . وفي ثناياه بعدد من الآراء والاحكام والتحقيقات والموازنات مما يهد في باب تعليل التاريخ على الحصر . ويحسن أن نشير هنا الى أن أبا الفداء توفي سنة ٧٣٢ للهجرة ، في السنة التي ولد فيها عبد الرحمن بن خلدون .

وبما أن أبا الفداء قد اعتمد كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير «ت ٦٣٠» السابقة على زمانه «تاريخ الرسل والملوك» (١) . للطبري «ت ٣١٠ - ٩٢٣ م» . فيصن أن أجيء هنا بغاية كل مؤلف من هذين المؤلفين من تأليف كتابها قبل أن اتوفر على الكلام على تعليل التاريخ عند أبي الفداء .

قال الطبري في مقدمة تاريخه (٢) :

« وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من ابتداء ربنا جل جلاله خلق خلقه... من انتهى الينا خبره.. من رسول له مرسل أو ملك مسلط أو خليفة مستخلف.. ووجل ما كان من حوادث الامور في عصره وأيامه ، اذ كان الاستقصاء (٣) في ذلك يقصر عنه العمر وتطول به الكتب... ولم نقصد بكتابتنا هذا قصد الاحتجاج لذلك (٤) بل لما ذكرنا من تأريخ الملوك الماضين ووجل من اخبارهم وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم وأيام الخلفاء السالفين وبعض سيرهم ومبالغ ولاياتهم والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم . ثم اني متبع اخر ذلك كلة... ذكر صحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم... ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين (٥) على نحو ما شرطنا من ذكرهم.

(١) يعرف أيضاً بعنوان «تاريخ الامم والملوك» .

(٢) طبعة ليدن «مصورة خياط ، بيروت ١٩٦٥» ص ٥ - ٧ .

(٣) الاستقصاء : تتبع الحوادث في أقصى تفاصيلها أو جمع جميع الحوادث .

(٤) لم نقصد الاحتجاج لذلك : إقامة الحجة (الدليل) على صحة ما أوردناه

عن الحوادث .

(٥) التابعون : الذين لم يدر كوا رسول الله ولكن أدر كوا أصحاب رسول الله

ثم ملحق بهم ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم وزائد في أمورهم للابانة عن حدث منهم. روايته ونقلت أخباره ومن رفضت منهم روايته ونبتت أخباره ، ومن وهن منهم. نقله وضعف خبره والسبب الذي من اجله نبذ من نبذ منهم خبره والعلّة التي من أجلها وهن من وهن منهم نقله

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه ماشرطت أني راسمة فيه إنما هو على ما رويت من الاخبار التي أنا ذاكرها فيه والاثار التي أنا ذاكرها فيه والاثار التي أنا مسندها الى رواياتها فيه دون ما ادرك بحجج العقول وأستنبط (١) . بفكر النفوس الا اليسير التقليل منه ، اذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من انباء الحادثن غير واصل الى من لم يشاهدتم ولم يدرك زمانهم الا باخبار المخبرين . ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين بما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا أديننا ذلك على نحو ما أدى إلينا . »

وقال ابن الأثير (٢):

« اني لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثرا للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيا ، مائلا الى المعارف والاداب والتجارب المودعة في مطاويها . فلما تأملت رأيتها متباينة في تحصيل الغرض يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل الى العرض : فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات (٣) ومختصر قد أدخل بكثير مما هو آت . ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات والمشهور من الكائنات ، وسود كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي (كان) الإعراض عنها أولى وترك تسطيرها أخرى... وقد أرخ كل منهم الى زمانه . (ثم) جاء بعده من ذيل عليه وأضاف المتجددات بعد تاريخه اليه . والشرفي منهم قد أدخل بذكر أخبار الغرب ، والقربي قد أهمل أحوال الشرق . فكان الطالب اذا

(١) استنبط : استخراج .

(٢) الكامل في التاريخ (نشر دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٣٨٥ هـ -

١٩٦٥ م) ، ص ٢-٦ .

(٣) استقصى الطرق والروايات : استقصى الروايات (حاول جمع كل الحوادث .

التي وصلت اليه علي صور مختلفة) بالطرق المختلفة (من طرق الرواة المتعددين) .

أراد أن يطالع تاريخاً متصلًا الى وقته يحتاج الى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الاخلال والامال .

فلما رأيت الامر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينها ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان ، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضاً الى وقتنا هذا .

« ولا أقول إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ ، ... ولكني أقول انني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ... »

« فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الامام أبو جعفر الطبري اذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف اليه . فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها . وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل السقي قبلها أو أقل منها ، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه . فقصدت أم الروايات فنقلتها وأضفت اليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه ، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً .

« فلما فرغت منه (١) أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعها وأضفت منها الى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه . ووضعت كل شيء منها موضعه ، الا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني لم أضف الى ما نقله أبو جعفر (٢) شيئاً الا ما فيه زيادة بيان أو اسم انسان أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله . وانما اعتمدت عليه من بين المؤرخين اذ هو الامام المتقن حقاً الجامع علماً وصحة اعتقاداً وصدقاً .

« على أني لم أنقل الا من التواريخ المذكورة (٣) والكتب المشهورة من يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونه . ولم أكن كالتحاط (٤) في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الخصباء والآلبي (٥) .

- (١) فلما فرغت منه: لما انتهت الحوادث المذكورة في كتاب « الكامل في التاريخ »
- (٢) أبو جعفر : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .
- (٣) المذكورة : الحمودة ، الموثوقة .
- (٤) الخابط : الذي يسير على غير هدى .
- (٥) الخصباء : صغار الخبارة . الآلبي جمع لؤاؤة . كمن يجمع الخصباء والآلبي : كمن يجمع الاشياء الثمينة والاشياء النافية (يعالج الأمور بغير معرفة) .

« على أني مقرر بالتقصير . فلا أقول ان الغلط سهو جرى به القلم ، بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم . وقد سميته اسماً يناسب معناه : الكامل في التاريخ . وقال أبو الفداء (١) :

« انه منح لي أن أورد في كتابي هذا شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة يفنييني عن مراجعة الكتب المطولة فاخترته واختصرته من الكامل لابن الاثير الجزري ومن تجارب الامم لابن مسكويه (٢) ومن تاريخ أبي عيسى (٣) أحمد بن علي المنجم المسمى بكتاب البيان عن سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان (٤) ومن التاريخ المظفري (٥) للقاضي شهاب الدين بن أبي الدم الحموي ، ومن تاريخ القاضي ابن خلكان المسمى وفيات الاعيان (٦) ومن تاريخ اليمن للفقهاء عمارة (٧) ومن تاريخ القيروان المسمى بالجمع والبيان للصنهاجي (٨) ومن تاريخ الدول المنقطعة

(١) تاريخ الملك المؤيد اسماعيل أبي الفداء صاحب حماة (المختصر في اخبار البشر) ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ، ١ : ٢ - ٤ .

(٢) ابن مسكويه (ويقال أيضاً : مسكويه) : أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ) ، له كتاب « تجارب الامم وتغاقب الهمم » (وهو مطبوع) .

(٣) أبو عيسى احمد بن علي المنجم (لم أهتم الى شيء عنه ولا الى شيء من كتابه المذكور) .

(٤) علي سبيل الحجة والبرهان (يبدو إنه كان فيه تحقيق لحساب التواريخ ولأزمان الحوادث) .

(٥) أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن أبي الدم الحموي (ت ٦٤٢ هـ) له التاريخ المظفري (وهو تاريخ مبسوط مفصل للشعوب الاسلامية في ستة مجلدات (موجود وقد طبعت أقسام منه) .

(٦) ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ، وكتابه « وفيات الاعيان » طبع مراراً .

(٧) ابو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان اليمني (ت ٥٦٩ هـ) ، له

« تاريخ اليمن » (وهو مطبوع) .

(٨) أبو محمد عبدالغزير بن شداد الصنهاجي (ت بعد ٥٤٠ هـ) له « كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان فيما فيها وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيان » (وبعضه منشور) .

لابن أبي منصور (١) ومن تاريخ على بن موسى بن محمد بن عبيد الملك بن سعيد المغربي الاندلسي المسمى لذة الاحلام في تاريخ أمم الاعجام ومن كتاب ابن سعيد المذكور (٢) المسمى بالمغرب (٣) ومن مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل (٤) ومن تاريخ حمزة الاصقحاني (٥) ومن تاريخ خلاط (٦) تأليف شرف بن ابي المطهر الانصاري ومن سفر قضاة بني اسرائيل وسفر ملوكهم (٧) وألفت التواريخ القديمة من هذا الكتاب على مقدمة وخمسة فصول . وأما التواريخ الاسلامية (٨) فرتبتها على السنين حسب تأليف الكامل لابن الاثير . ولما تكامل هذا الكتاب سميته المختصر في أخبار البشر .

في هذا المقطع من مقدمة كتاب « المختصر » اربعة امور : صنع نسخة موجزة تجمع التاريخ القديم والتاريخ الاسلامي ليستخدما المؤلف - اعتماد ابي الفداء كتاب الكامل لابن الاثير وكتباً اخرى سهاها - الاهتمام بضبط الحوادث من حيث وقوعها وتفصيلها ومن حيث زمانها .

- (١) لم أهد الى شيء عن ابن ابي منصور ولا عن كتابه .
- (٢) علي بن موسى المعروف بابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥ هـ) لم أهد الى شيء عن كتابه « لذة الأحلام » .
- (٣) يرد في كتاب نفتح الطيب لابن سعيد المغربي هذا مرة « المغرب في حلى » المغرب « ومرة « المغرب في أخبار المغرب » - وفي ما أخذ ابو الفداء في « المختصر في أخبار البشر » وفي ما أخذ المغربي في « نفتح الطيب » مايوحى بأننا أمام كتابين مستقلين لا أمام كتاب واحد يعرف بعنوانين . هذا موضوع يحتاج الى دراسة مستقلة .
- (٤) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم ابن واصل الجوهري (ت ٦٩٧ هـ) له كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » (وهو مطبوع) .
- (٥) أبو عبدالله حمزة بن الحسن الاصقحاني (ت قبيل ٣٦٠ هـ) له كتاب « تواريخ سفي ملوك الارض والالبياء » (وقد طبعت مختارات منه) .
- (٦) لم أهد الى شيء عن تاريخ خلاط هذا .
- (٧) سفر قضاة بني اسرائيل وسفر ملوك بني اسرائيل (راجع الكلام عليها في المتن ، ص) .
- (٨) التواريخ الاسلامية : الاحداث للتاريخية بعد مجيء الاسلام .

ذكر منهاج العمل . وفي ما يلي تفصيل هذه الامور ونقدها :

١ - ان الغاية الرئيسية من تأليف « المختصر » كانت رغبة ابي الفداء في انشاء تذكرة (نسخة موجزه : مختصرة) للتواريخ القديمة (الاحداث التي وقعت قبل مجيء الاسلام) وللتواريخ الاسلامية (الاحداث التي وقعت بعد مجيء الاسلام) ليستخدمها ابو الفداء شخصياً فيرجع اليها كلما احتاج الى مراجعة شيء من احداث التاريخ بدلاً من ان يرجع الى الكتب المطولة .

هذه الغاية (اختصار كتب التاريخ المطولة في مجلد واحد صغير) بهيدة عن الامكان وعن العمل المعقول . وأبعد من ذلك عن العقل أن يكون المجلد المختصر للاستخدام الشخصي ، ذلك لأن الجهد المبذول فيه أعظم جداً من النفع المرتجى منه . ولا ريب في أن أبا الفداء قد قلد في ذلك ابن الأثير لأن ابن الأثير كان قد ادعى أيضاً أنه ألف تاريخاً في اثني عشر جزءاً (نحو سبعة آلاف وخمسة مائة صفحة) ليكون تذكرة له يراجعه خوف النسيان (١ : ٢) .

غير أن ذكر هذه الغاية يخط أمام أعيننا منهج أبي الفداء في التأليف ويكشف لنا عن مدركه للتاريخ : أتى التاريخ عند أبي الفداء حوادث مادية متفرقة همنا منها « ما حدث » فقط ، أم التاريخ سلسلة متعاقبة من الأحداث ترمم أمام عيوننا صورة لتطور البيئة الاجتماعية بكل ما في تلك البيئة من النشاط الانساني .

يبدو لنا أن أبا الفداء لم يستطع أن يفهم بالشرط الذي شرطه على نفسه من إنشاء مختصر صحيح للتاريخ الانساني ، قبل الاسلام وبعد مجيء الاسلام ، ذلك لأن أحداث الحياة سبقتة حيفاً أصبح أميراً على حجة ثم ملكاً ، فلم يستطع أن ييلا السنين بما وقع فيها من الأحداث . من أجل ذلك رأيناه يؤرخ في سبع صفحات من الجزء الثاني (ص ١٣ - ١٩) لثلاث وعشرين سنة فيقول مثلاً (٢ : ١٨) : ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة فيها توفي العباس بن الأحنف الشاعر . . . ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة (٢ : ١٩) (ولم يذكر فيها شيئاً) ثم دخلت سنة اثنين وتسعين ومائة : فيها سار الرشيد من الرقة الى خراسان فنزل ببغداد وزحل عنها الى النهروان لخمس خلوت من شعيبان واستخلف على بغداد ابنه الامين . ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة . . . (٢ : ١٩) . فلا ريب عندنا في أن في هذا النوع من الاختصار إخلالاً شديداً .

ولا شك في أن أبا الفداء كان يشعر أحياناً بالحاجة الى الاختصار الصحيح فيقول

مثلاً (١ : ٨٢) : « وعدم مهلهل (فقد وضاعت أخباره) واختلف في صورة عدمه تركنا ذكره للاختصار ». ويقول أيضاً (١ : ٩٩ ص) ، والبراهمة لا يقولون بالنبوات زينفونها بالكلية . ولهم على ذلك شبه (٨) مذكورة في (كتاب الملل والنحل (٢) لا تليق بهذا المختصر » . وينقل أبو الفداء شيئاً من اعتقاد اليهود في الآخرة ومن الشواب والعقاب في رأيهم ثم يستطرد الى ذكر الزنا في التوراة (١ : ٩١ - ٩٢) ١٤ لا يتفق مع إرادة الاختصار .

٢ - ذكر أبو الفداء في المقدمة انه اختار كتابه « المختصر في اخبار البشر » من الكامل في التاريخ لابن الاثير (١ : ٢) . ثم انه قال (٣ : ١٥٨) ، في اخبار سنة ٦٣٨ للهجرة : « وفي هذه السنة انتهى التاريخ الكامل تأليف الشيخ عز الدين بن علي المعروف بابن الاثير الجزري المنقول غالب هذا المختصر منه ، فانه الفه من هبوط آدم الى سنة ثمان وعشرين وسائة » .

وذكر أبو الفداء في المقدمة ايضاً انه اختصر في كتابه « المختصر » اخباراً من افي عشر كتاباً سماها (راجع ، فوق ، ص) ومن سفر قضاة بني اسرائيل و (السفر السابع في التوراة) ومن سفر ملوك بني اسرائيل (وهما سفران : الحادي عشر والثاني عشر في التوراة) . ومعظم الكتب التي اخذ منها أبو الفداء معروف ومطبوع وبعضها طبع مراراً وبعضها طبع مختارات . غير ان أربعة من هذه الكتب لم اعرفها ، وهي (كما وصفها أبو الفداء) :

(أ) تاريخ ابي عيسى احمد بن علي المنجم المسمى بكتاب البيان عن تاريخ سني العالم على سبيل الحجة والبرهان ، وهو مجلد لطيف (١) .

(ب) تاريخ الدولة المنطقية لابن ابي منصور (٢) ، وهو نحو أربعة مجلدات .

(ج) تاريخ علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي الاندلسي المسمى كتاب لذة الاحلام في تاريخ امم الاعجام ، وهو نحو مجلدين .

(١) الشبه جمع شبيهة : جدال فيه تشكيك بأدلة جانبية .

(٢) الملل والنحل للشرسثاني (ت ٥٤٨ هـ) في الاغلب أو لابن حزم

(ت ٦٥٤ هـ) .

(٣-٢-١) وما بعد راجع ، فوق ، ص . الحواشي : (.

- (د) تاريخ خلاط (٣) تأليف شرف بن ابي المطهر الانصاري .
- (هـ) ثم ان ثمة مجالا للبحث والتحقيق في كتاب « المغرب » لابن سعيد : أهو كتاب واحد : المغرب في حلى (او في اخبار) المغرب ، أم هو كتابان احدهما « المغرب في حلى المغرب » وثانيها « المغرب في اخبار المغرب » ؟ (١) ولكن تحقيق هذا هنا بعيد عن نطاق هذا المقال ، فانا هنا معني بمناهج ابي الفداء في تحليل التاريخ لا بمصادر كتابه التي هي ، فيما أعتقد ، موضوع مستقل في برنامج هذا المهرجان .
- وابو الفداء لم يكتف بالأخذ من المصادر التي سماها في مقدمة كتابه ، بل استعانت بعدد آخر من المصادر نعرفها من الجمل التالية :
- ٧٥:١ وثقلت ذلك من مجموع بخط القاضي شمس الدين بن خلكان . ورأيت في تاريخ ابن الاثير خلاف ذلك .
- ٨٥:١ قال الشهرستاني : وعمرو بن لحي المذكور هو اول من جعل الاصنام على الكعبة ... وقد ذكر الشهرستاني ان ذلك كان في أيام سابور .
- ٨٥:١ انتهى النقل من كتاب العقد لابن عبد ربه .
- ومن الصحاح (٢) الأمة الجماعة هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع .
- ٩١:١ قال الشهرستاني في الملل والنحل : هاد الرجل اي رجع وتاب ... انتهى كلام الشهرستاني .

من كتاب خير البشر بخير البشر (٣) قال فيه : وليس في التوراة ذكر القيامة .

- (١) راجع شيئاً من مناقشة هذا الموضوع (باعتبار العنواين لكتاب واحد) : « المغرب في حلى المغرب » (حققه شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٥٣ م) ، ص ٢٣ وما بعد (من مقدمة المحقق) ؛ ثم راجع عدداً من ملاحظات للدكتور احسان عباس في حواشي « نفتح الطيب » (بيروت ، دار صادر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م) ، ١٠ : ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٣٧٢ ، ٧ ، ٣٣ .

- (٢) الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، ويعرف أيضاً بعنوان الصحاح (ويعتاون أخرى) لأبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) .
- (٣) خير البشر (بكسر الباء وفتح الشين) بخير البشر (بفتح ففتح : محمد رسول الله) لابن ظفر الصقلي (ت ٥٦٥ هـ) .

٩٤:١ من كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، قال : وللنصارى في تجسد الكلمة مذاهب .

٩٥:١ وما نقلناه من كتاب نهاية الادراك في دراية الافلاك للخرقي (١) .

٩٩:١ وما نقله المسعودي .

١٠٣:١ قال صاحب الاغاني (٢) : كان السبب في سكنى اليهود خيبر .

١٠٤:١ قال الشهرستاني في الملل والنحل .

١٠٦:١ وانشد بن عبد البر في كتاب الصحابة .

١١٣:١ كذا ذكر في العقد .

١١٨:١ فذكر صاحب السيرة (٣) وكثير من اهل العلم ان اول الناس اسلاما

بعدها (بعد خديجة) علي بن ابي طالب .

من المستغرب جداً أن أبا الفداء قد أولى التوراة وأخبار التوراة عناية كبيرة : كان الطبري قد أتى في كتابه في التاريخ بجملةصالحة من أخبار بني اسرائيل ، ولكن استناد الطبري في ذلك كان الى آيات القرآن الكريم والى الاحاديث الشريفة (فيما يتعلق بالازمنة التي مرت بين أحداث التاريخ القديم) . وكذلك فعل ابن الاثير ، وربما وجدنا في تاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير أخباراً مرجعها الى التوراة ، ولكن الطبري وابن الاثير أخذها من طريق الرواة المسلمين . وفي تاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير أخبار مأخوذة من غير نسبة الى راو ، والغالب أنها أخذت مما شاع من الآراء على لسان القصاصين . وربما استند ابن الاثير الى التوراة في رواية هذه الاخبار بشيء من

(١) بهاء الدين ابو محمد عبد الجبار بن محمد الخرقى (ت بعيد ٥٢٧ هـ) ، له

كتاب « منتهى الادراك في تقاسيم الافلاك » (بروكلمان : ١ : ٦٢٤ . الملحق ١ : ١٦٣) ، وهو عنوان آخر للكتاب نفسه .

(٢) أبو الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) .

(٣) السيرة (كتاب سيرة رسول الله) في الاصل لمحمد بن اسحق (ت ١٥١ هـ) .

والغالب أن أبا الفداء يعني أبا محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) صاحب (سيرة رسول الله) (وهي الى حد كبير منقولة من سيرة ابن اسحاق) .

التصديق أو بشيء كثير من الشك ، فيقول مثلاً : « وأما التوراة أن الله رفع ادريس (١ : ٤٠) ، وقال غيره من أهل التوراة (١ : ٨١) . وذكر خرافة تتعلق بمولد يعقوب وأخيه عيصو (١ : ١٢٦ - ١٢٧) أسندها الى السُدي ، وهو اسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكوفي (ت ١٢٨ هـ - ٧٤٥ م) وكان إخبارياً قصاصاً . والاشارة الى مولد عيصو ويعقوب موجودة في التوراة (سفر التكوين ٢٥ : ٢٥ وما بعد) . أما من أين جاء السدي بالتفاصيل الخرافية فالأغلب أنه سمعها من بعض القصاصين اليهود . والرواية نفسها عن السدي موجودة في تاريخ الطبري (١ : ٣٥٨ - ٣٥٩) .

وقد أحسن ابو الفداء صحتها لما أهمل خرافة العيص (عيصو) ويعقوب . وأبو الفداء قد خصّ التوراة بقدر وافر من عنصريته . لما أراد ابو الفداء أن يؤرّخ الاحداث العظام (هبوط آدم وولادة أبنائه وأحفاده والطفوقان ومقادير السنين بينها ثمّ بين بعثة كلّ نبي وآخر) قال (١ : ٣ - ٤) : « وسبب هذا الاختلاف أن (الاحداث) من هبوط آدم الى وفاة موسى ، لا يُعلم الا من التوراة . والتوراة على نسخ : السامرية والعبرائية واليونانية . أما (التوراة) السامرية فتنبئ . . . أن نوح قد ادرك من عمر آدم فوق مائتي سنة . فنوح (إذن) قد ادرك جميع آبائه الى آدم ، وهذا غاية المنكر ! فقد ظهر لك فساد هذه التوراة . وامسا التوراة العبرانية فتنبئ انّ نوحاً ادرك عمر ابراهيم الخليل ثمان وخمسين سنة . وهذا أيضاً غاية المنكر . فان نوحاً لم يدرك ابراهيم اصلاً ولا يجوز ذلك .

ثمّ يذكر أبو الفداء النسخة اليونانية من التوراة فيقول (١ : ١٠٥ - ١٠٦) :
وسفي هذه التوراة (العبرانية) تنقص عن التوراة اليونانية - وهي التي عليها العمل - ألفاً وأربع مائة وخمساً وسبعين سنة . . . وأمّا التوراة اليونانية فهي التي اختارها المحققون من المؤرخين نقلها (من اللغة العبرانية الى اللغة اليونانية) اثنتان وسبعون حبراً (من اليهود) قبل ولادة المسيح بقريب ثلاثمائة لبطليموس اليوناني الذي كان بعد الاسكندر بطليموس واحد (راجع أيضاً ١ : ٣٤ - ٣٥) .

ويبدو أن أبا الفداء كان يعرف النسخ الثلاث فأنه يستعرض أشياء في النسخة السامرية ، أو توراة السمرة كما يسميها أيضاً (٤ : ١) . ثم هو يذكر التوراة العبرانية ويقول انتها مفسودة (١ : ٤) ، ثم يزكّد ذلك على الصفحة التالية فيقول : « فقد ظهر فساد هذه التوراة العبرانية ، وهي التوراة التي بيد اليهود الى زماننا هذا وعليها اعتماد » .

ثم يتكلم على التوراة اليونانية فيقول « وهي التي عليها العمل » (١ : ٥) ، السطر (١٤) ، « وهي التوراة التي اختارها المحققون من المؤرخين » (١ : ٥٥ س) ، « فلذلك اعتمادنا على هذه التوراة دون غيرها » (١ : ٦ ، السطر ٢) . فلسخة التوراة المنقولة لبطليموس (أي الى اللغة اليونانية) أصحّ نسخ التوراة وأثبتها » (١ : ٣٥ ، السطر ١٦) .

ومع أن أبا الفداء يفسّر أحياناً عدداً من الأسماء العبرانية والفارسية باللغة العربية ، فإننا لا نستطيع أن نزعم أنه كان يقرأ التوراة باللغة العبرانية أو باللغة اليونانية . والمعقول أنه عرف الفروق بين هذه النسخ الثلاث من المصادر التي كانت بين يديه ، من تاريخ أبي عيسى احمد بن علي المنجم ، وهو المسمى « كتاب البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجّة والبرهان » . وربما كان بين يديه نسخة للتوراة بالعربية من نقل سعديا بن يوسف الفيومي المصري (ت ٩٤٢ م = ٥٣٣١ هـ) . وكان سعديا هذا مفكراً يهودياً من نشاطه الثقافي نقل التوراة الى اللغة العربية (١) .

وبذكر أبو الفداء انه استند في اخبار اليهود الى سفر قضاة بني اسرائيل (السابع في التوراة) والى سفر ملوك بني اسرائيل (وهو قسبان هما السفر الحادي عشر والسفر الثاني عشر من التوراة) ، وهو يذكر ان هذه الأسفار هي من الكتب الأربعة والعشرين الثابتة عند اليهود بالتواتر (١ : ٣) . وهو ينقل أيضاً من سوى هذه من كتب اليهود (١ : ١١٠) .

ولقد بدا لي أن اطيل في اتهام ابي الفداء بالتوراة على انها مصدر من مصادر التاريخ ، وخصوصاً فيما يتعلق بمقادير الأزمان التي مرت منذ الخليفة الى فجر التاريخ فإلى الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة ، لثلاثة اسباب :

(أ) لأن أبا الفداء أحب أن يأخذ عدداً من الأحداث مقيدة بأزمانها أخذاً

مباشراً من التوراة ، ما دامت هذه الأحداث تتعلق بأصحاب التوراة . ولقد غاب عن أبي الفداء أن التوراة ليست مصدراً تاريخياً موثقاً لأن معظم التاريخ اليهودي تاريخ مصنوع موضوع . وأبعد شيء عن التاريخ الصحيح تعيين أزمنة الحوادث التاريخية بالسنين المألوفة على ما نرى في التوراة .

(ب) لأن أبا الفداء قبل أن يستخدم المادة التاريخية الموجودة في التوراة عرض لشيء من النقد الخارجي (التفريق بين نسخ التوراة وحكاية نقل التوراة الى اللغة اليونانية) ولشيء من النقد الداخلي (مقارنة التواريخ المذكورة في التوراة بأمثالها في الازياج : جداول حركات الكواكب ومطالع النجوم) . ومع أن في طرفي المقارنة كثيراً من الوهم والفقه عن الحسبان الصحيح (في جعل عمر العالم بضعة آلاف من السنين فقط) فان محاولة أبي الفداء لجلاء عدد من الشكوك والسعي في تصحيح الأحداث والتواريخ - وان لم يصح له شيء منها - اتجاها علمي صحيح ومنهج تاريخي عاقل .

(ج) ان أبا الفداء قد أرسى لنا قاعدة جديدة في دراسة التاريخ :

ان المسلمين لم يحاولوا بعد دراسة اليهودية والنصرانية دراسة شاملة . هنالك أشياء من السرد الوصفي لتاريخ اليهودية وتاريخ النصرانية مفرقة عند ابن حزم والشهرستاني وعند ابن خلدون . وهناك شيء من الجدل والردود في الملل والنحل لابن حزم وفي أماكن أخرى ، من غير استيعاب ولا استنفاد . ويجس بنا اليوم أن نستجيب في ذلك لأبي الفداء : اذا كان المستشرقون من اليهود في الأكثر ومن النصارى في الأقل قد درسوا الاسلام وتاريخ الاسلام دراسة أراد معظمهم أن يشوه بها الاسلام وتاريخ الاسلام ، فما الذي يمنع العلماء المسلمين اليوم أن يدرسوا اليهودية والنصرانية وتاريخها دراسة موضوعية ، لا تحاول بها تقييظاً ولا تجريحاً وانما تقوم من خلال ذلك بمقارنة واقعة . فان الدراسات المقارنة مفيدة في تاريخ الحضارات بالإضافة الى أنها اليوم زي شائع تدعو اليه المؤسسات الدولية ويدعو اليه المفكرون التقدميون .

٣ - اهتمام أبي الفداء بالاستيثاق من الاحداث وبضبط تواريخها (راجع الرقم ٢ ، فوق : ص) .

٤ - ذكر منهج أبي الفداء في العمل (من أمور ذكرها في مقدمة كتابه ثم من أمور وردت في ثنايا كتابه) .

هاتان الخاصتان تدخلان في تعلييل التاريخ على الحصر ، وسيأتي الكلام عليها في مكانها .

* * *

فاذا كانت الكتب التي أخذ منها أبو الفداء معروفة أو اذا كان معظمها معروفا ، فما تكون قيمة « كتاب المختصر في أخبار البشر بعد ذلك ؟
يبقى لهذا الكتاب قيمتان رئيستان :

القيمة الأولى : ان هذا الكتاب يستأنف الحوادث المقصودة من تأليفه استئنفا مستقلا بعد سنة ٦٣٨ للهجرة (١٢٣٠ م) ، وهي السنة التي يقف عندها تاريخ الكامل لابن الاثير .

قال ابو الفداء (٣ : ١٥٨) : وفي هذه السنة (٦٢٨ هـ) انتهى (وقف) التاريخ الكامل تأليف الشيخ عز الدين علي المعروف بابن اثير الجزري المنقول غالب هذا المختصر منه ، فانه ألفه من هبوط آدم الى سنة ثمان وعشرين ومائة . وتوفي عز الدين المذكور في سنة ثلاثين ومائة

وفما يلي مثال من انتقال ابي الفداء من التتار عن ابن الاثير الى تميم تاريخ الكامل لابن الاثير (في ذكر جلال الدين خوارزمشاه - أو خوارزمشاه - ملك خوارزم في فارس وما وراء النهر . نهر جيحون في التركستان ، وامم جلال الدين خوارزمشاه : هلال الدين محمد بن تكش) :

قال ابن الاثير : لما انهزم جلال الدين من التتار على آمد نهب التتار سواد آمد وأرزن وميافارقين (١٢ : ٤٩٩) وخرجت (انتهت) هذه السنة (٦٢٨ هـ) ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ، ولانعلم هل قتل او اختفى أو لم يظهر نفسه خوفا من التتار أو فارق البلاد الى غيرها . والله أعلم . وفي اواخر هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعا للتتار وحلوا لهم الأموال والثياب وغير ذلك . وسبب طاعتهم ان جلال الدين لما انهزم على آمد من التتار تفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس . وفعل التتار بديار بكر والجزيرة واربل وخراسان ما فعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف في وجههم واقف . وملوك الاسلام منحجرون في الأثواب . وانضاف الى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لم يظهر له خبر ، ولاعلموا له حاله ، سقط في أيديهم وأذعنوا

للتتر (١٢ : ٥٠٢) وترددت رسلهم (رسل التتر) الى ديوان الخلافة والى جماعة من الملوك يطلبون منهم انهم لا ينصرون [الا ينصروا] خوارزم شاه (١٢ : ٥٠٣) واما جلال الدين فالى اخر سنة ثمان وعشرين وستمائة لم يظهر له خبر . وكذلك الى سلخ (آخر) صجر من سنة تسع (وعشرين وستمائة) لم نقف له على حال (١١ : ٥٩٣) .

واوضح ابو الفداء قصة جلال الدين فقال (٣ : ١٥٤ - ١٥٨) :

ولما تمكن التتر من بلاد اذربيجان سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسيير الى الخليفة (المستنصر بالله الذي تولى الخلافة من سنة ٦٢٣ إلى سنة ٦٤٠ للهجرة ، والذي جاء قبل المستنصر آخر الخلفاء العباسيين في بغداد) ويلتجىء إليه ويعتضد بولوك الأطراف على التتر ويخوفهم هاقبة امرم . فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كسبوه ليلًا . وخالطوا تخيمه . فهرب جلال الدين وقتل على ما نشرحه ... ومن تاريخ ظهور التتر فصنيف كاتب إنشاء جلال الدين النسوي المنشيء المقدم الذكر في سنة ست وعشرين . وسأمة ما اخترناه واثبتناه من اخبار خوارزم شاه محمد وابنه جلال الدين الملازمة للنسوي المذكور جلال الدين في جميع سفراته وغزواته الى ان كتب جلال الدين - والمنشيء المذكور كان معه ، ولذلك كان اخبر بأحوال جلال الدين ووالده من غيره - قال محمد المنشيء المذكور ...

وملخص ما بقي ان جلال الدين حارب التتر مدة طويلة وانتصر عليهم مراراً على بقاع كثيرة . ثم ان التتر تغلبوا عليه فحاصروه فاستطاع ان ينجو مهزوماً الى جبل عند قرية من قرى ميافارقين وفي ذلك الجبل اكراد يتخطفون الناس فأخذوه وشلحوه ثم قتلوه في حديث طويل ، في منتصف شوال من سنة ٦٢٨ . وقد كان ابن الأثير قد ذكر في آخر صفر من سنة ٦٢٩ (اي بعد ذلك بأربعة اشهر ونصف شهر) انه لم يعرف شيئاً عما آل إليه امر جلال الدين .

ومع هذا الاتجاه العاقل الحكيم في كتاب « المختصر في أخبار البشر » ، فان هذا الكتاب لا يزال ينوؤ بيسئتين رئيسيتين : سيطرة القصة وشيء من الغفلة عن العوامل القاعية في الاجتماع الانساني .

(أ) لا تزال القصة تسيطر على عدد من الجوانب في سرد التاريخ عن أبي الفداء ، فهو يحاول ما أمكن جمع أكثر ما يمكن من الحوادث في أقل ما يمكن من اللفظ

مع الميل الشديد الى تقييد تلك الحوادث بالتواريخ الدقيقة . ومع أن في هذا شيئاً من البراعة وحسن المعالجة للتاريخ سنتكلم عليها في باب حسنات أبي الفداء ، فان في هذا أيضاً من سوء ما يصرف المؤرخ عن فهم التاريخ — التاريخ الذي هو إدراك تطور الاجتماع الأنساني — الى جعل التاريخ مجموعاً من الأحداث المتركة . من ذلك مثلاً ما ذكره أبو الفداء من بعض أخبار اليمن ، قال (١ : ٧٢ - ٧٣) :

وكان أول ملك على العرب بأرض الحيزة مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن وهزان بن كعب بن الحارث بن مالك بن نصر بن الأزد ، والأزد من ولد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف قبل الأكرسة . ثم ملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعده أخوه جذيمة بن مالك بن فهم ، وكان به برص فكشوا عنه وقالوا جذيمة الأبرش . وعظم شأن جذيمة المذكور ، وكانت له اخت تسمى رقاش فهويت شخصاً من ايداد كان جذيمة قد اصطنعه ، وكان يقال له عدي بن نصر بن ربيعة . وهوما عدي المذكور ايضاً . وكان عدي المذكور متسلماً مجلس شراب جذيمة ، فاتفقت معه رقاش على ان يخطبها من اخيها جذيمة حال غلبة السكر عليه . ففعل ذلك واذن له جذيمة فدخل عدي برقاش . فلما اصبح جذيمة وعلم بذلك عظم عليه . فهرب عدي المذكور ...

هذ السرد لحوادث متلاحقة اكثرها من بنات الخيال محبب الى نفوس عوام الناس . لانها تعالج التاريخ من جانبه القصصي الخرافي : جعل الاقوياء ضعافاً والضعاف بارعين في انتهاز الغرض . ولا ينسى ابو الفداء ان يدخل الجن على مسرح روايته هذه . ان رقاش بعد ان حبلت من عدي وبنتها اخوها جذيمة . ولدت رقاش صبياً فسمته عمراً والبسته طوقاً . وترجم العرب ان الجن اختطف عمراً (ابن رقاش) ثم وجده شخصان يقال لهما مالك وعقيل فأحضراه الى جذيمة ففرح به جذيمة فرحاً عظيماً فقال لمالك وعقيل اللذين احضراه اقترحا ما شئنا ، فقالا : منادمتك ما بعيت وبقينا . فها اللذان يضرب بها المثل فقال كندماني ان هذا الذي ذكر ابو الفداء هنا لا يمثل ما جرى في التاريخ بقدر ما يمثل ما يجري في عقول العامة من الشر في الاحوال التي تكون الشعوب فيها ضعيفة جاهلة .

واسوأ من ذلك في السرد القصصي ذلك الاثر الذي تركه الاهتمام بالتوراة في تفكير ابي الفداء واسلوبه . قال ابو الفداء (١ : ١١٠) في خبر ولد اسماعيل :

وكان هناك (في مكة) قبائل جرهم فتزوج اسماعيل منهم امرأة وولدت له اثني عشر ولداً ذكرًا منهم قيذار .. ، ثم ولد لقيذار ابنه حمل بن قيذار ، ثم ولد لحمل نيت بن حمل — ويقال له نابت ، وقيل نبت بن قيذار ، وقيل نبت بن اسماعيل . وفي ذلك كلام كثير — ثم ولد لنبت سلامان بن نبت ، ثم ولد لسلامان الممسيح بن سلامان بن نبت ، ثم ولد للممسيح اليسع بن الممسيح ، ثم ولد لليسع أدد بن الممسيح ، ثم ولد لأدد ابنه أدد بن أدد ، ثم ولد لأدد ابنه عدنان بن أدد ، وقيل عدنان بن أدد . ثم ولد لعدنان معد ...

هذا سرد طويل مسهب (بفتح الهاء) لا فائدة منه في فهم التاريخ لأنه مصنوع موضوع . وقد بناه أبو الفداء على ما عرف في التوراة من سرد الانساب . وكان اجدر به ان يأخذ بالحديث الشريف الذي نهي عن تتبع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم فوق عدنان (١) ؟

ومن المأخذ على ابي الفداء انه يروي في عدد من الاحيان اخبار الامم كأنها اختيار اشخاص من افراد الناس او يروي حركة الزمن كأنها حركة فرد في احواله العادية . قال ابو الفداء (١ : ١٩) :

ثم اقبل موسى الى اهله فسار بهم نحو مصر حتى اتاها ليلا . واجتمع به هرون ، فسأله (هرون) من انت ؟ فقال انا موسى . فاعتنقا وتعارفا . ثم قال موسى : يا هرون ، ان الله ارسلنا الى فرعون فانطلق معي اليه . فقال هرون : سمعاً وطاعة ! فانطلقا اليه ، وراه موسى (اي ان موسى ارى فرعون) عصاه ثعباناً فاغراً فاه حتى خاف منه فرعون فأحدث في ثيابه .

لا ريب في ان هذه الحادثة ايضاً من روايات اليهود . وما كان لأبي الفداء ان يقلها على هذا الشكل البعيد عن مجرى التاريخ الواقع المشاهد في العادة .

ومن سيئات القصص الشهوي الاستطراد ، لأن المنطق في المراد يحتاج الى ثقافة ومرات . وقد نقل ابو الفداء عن كتاب « خير البشائر بخير البشر » (لابن ظفر الصقلي) ان التوراة ليس فيها ذكر بعث ولا جنة ولا نار ، وكل جزاء فيها انما هو معجل في الدنيا ...

وليس فيها (في التوراة) ذم الدنيا ولا الزهد فيها ولا وظيفة صلوات معلومة ، بل الأمر بالبطالة والقصص والهوى (١ : ٩٢) .

وبعد كلمة « الهو » ينتقل أبو الغداء بالاستطراد مباشرة الى قوله : وما تضمنته التوراة ان يهوذا بن يعقوب في زمان نبوته زنى بامرأة ابنه ... ثم يستمر في مثل ذلك نحو عشر أسطر لا صلة لها بقول ابن ظفر (ولو قاله ابن ظفر لكان مخطئاً) . فكيف يجوز لابي الغداء ان يقول : « ان فلاناً في زمان نبوته زنى ... » الا ان يكون ناقلاً من أخبار رواها اليهود من غير ان يترك لسليقته التاريخية ان يميز بين ما يجوز تأريخه وما لايجوز تأريخه، ومن الغريب ان يتفطن أبو الغداء لتمييز ذلك في التاريخ الاسلامي ولا يفطن له في التاريخ القديم !

(ب) وفي التاريخ القديم عند أبي الغداء أشياء من الغفلة عن العوامل الفاعلة في التاريخ الذي هو الكائنات(١) المشاهدة في الاجتماع الانساني . فهو لا يزال يقبل في التاريخ القديم خاصة محالات لا يقبلها العقل ومبالغات تكاد تكون خرافات ، وكان في صدر تاريخه لا يزال متأثراً بأخبار التوراة . من ذلك كله مثلاً :

١ - ٧ - ٨ ثم ان ابليس أراد دخول الجنة ليوسوس لآدم فمنعته الخزنة ، فعرض(٢) نفسه على الدواب أن تحمله حتى يدخل الجنة ليكلم آدم وزوجه . فكل الدواب أبى ذلك غير الحية فانها أدخلته الجنة بين ناهيها . وكانت الحية اذ ذاك على غير شكلها الآن .

١ : ١٦ - ١٧ ثم ان الله تعالى عاقب أيوب ورزقه [ورد الى امرأته شبهاً وحسناً] . وهذا افتراء من اليهود على الله وعلى العلم) [.

١ : ٤٦ أزدشير يمين (ملك فارس) غزا رومية في ألف ألف مقاتل !

١ : ٦١ دلوكة المشهورة بالعجوزة ، وهي من بنات ملوك القبط ، وكان السحر

قد انتهى اليها - وطال عمرها حتى عرفت بالعجوزة - وصنعت على أرض مصر من اول ارضها في حد أسوان الى آخرها سوراً متصلاً .

١ : ١٤ س و ابراهيم اول من اختتن ولبس المراويل .

(١) الكائنات جمع كائنة : الواقعة ، الحادثة التاريخية .

(٢) تقصد التوراة أن الحيوانات تستطيع أن تدخل الى الجنة وتخرج منها بكلها شامت .

١ : ١٩ فانطلقا (اي موسى وهرون) اليه (الى فرعون) واراها موسى عصاه ثعباناً فاغراً فاه حتى خاف منه فرعون فأحدث في ثيابه .

١ : ٢٠ ثم توفي موسى... قيل كان هو ويوشع يتمشيان فظهرت غمامة سوداء فخافها يوشع واعتنق موسى . فأنزل موسى من قمائه ، وبقي يوشع معتنق الثياب . وعدم موسى (هذه الصورة من الموت مروية عن الحاكم بأمر الله القاطمي ايضاً) .

١ : ٣٧ فأنزل (الله) عليه (على المسيح ، للمسيح) سفرة (مائدة) حراء مغطاة بمنديل فيها سمكة مشوية وحوشها البقول ما عدا الكراث ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ومعها خمسة أرغفة على بعضها زيتون وعلى باقيها رمان وتمر .

١ : ٩٦ ثم خرج المسيح ليسة الجمعة الى الجبل فسعى به حوذاً - وكانت احد تلاميذه - الى كبراء اليهود واخذ منهم ثلاثين درهماً رشوة ودهم عليه (هل يظن ابو الفداء ان كبراء اليهود ما كانوا يعرفون المسيح ؟)

١ : ٧٠ ثم ملك شداد بن عاد واجتمع له الملك وغزا البلاد الى ان بلغ الى اقصى المقرب .

١ : ٢٠٢ وقد اختلف في عمر (الحسن) . والصحيح انه خمس وخمسون سنة واشهرأ . وقيل حج الحسن خمساً وعشرين حجة ماشياً ، وكان يصلي في اليوم واليلية ألف ركعة .

لقد كان من الواجب على ابي الفداء العالم الجغرافي والفلكي ان يدرك ان اليوم واليلية الف واربعائة واربعون دقيقة ، وان صلاة الف ركعة ينوي فيها المصلي بضع مائة مرة (بحسب ما يجمع من الركعات) ويكبر فيها سبعة آلاف مرة ويقرأ فيها فاتحة الكتاب الف مرة ويقول فيها سبحان ربي العظيم وسبحان ربي الأعلى ستة آلاف مرة ويقرأ التحميدات خمسائة مرة والصلاة الابراهيمية خمسائة مرة تستغرق اكثر من يوم ويلية - هذا اذا تجاوزنا الحركات في الركعات الألف والاطمئنان فيها والخشوع وما يسبقها ويلحقها من التسبيح ثم قبلنا الا يقرأ المصلي فيها بعد الفاتحة شيئاً .

القيمة الثانية : في كتاب ابي الفداء « المختصر في اخبار البشر » لمحات واضحة من تعليل التاريخ .

كان ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) يشعر أنه وضع علم تعليل التاريخ ويعلم ذلك ، وقد كان الجزء الاول من كتابه في التاريخ - وهو المشهور في عالم الكتب بعنوان « المقدمة » - معلماً من معالم فلسفة التاريخ وهو جميع المعالم في هذا الفن . غير أن أبا الفداء (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ) ، وقد توفي في السنة التي ولد فيها ابن خلدون قد تنبه الى أشياء من تعليل التاريخ لا يخفض من مكانتها كثيراً أنها غير مجموعة كلها في مكان واحد من كتابه . فمن خصائص أبي الفداء في ذلك ما يلي :

١ - أولى خصائص المؤرخ الحق أن يعنى بتعليل التاريخ - برهط نتائج الاحداث بأسيابها الايجابية المباشرة الصحيحة . ولا يتأتى ذلك الا لمن كان ملماً بعدد من المعارف ، فإذا اقتصر المؤلف على نقل أحداث التاريخ عن الذين سبقوه الى الذين يعاصرونه ، ولو كان في ذلك أميماً كل الامانة ، فإنه لا يكون إلا قاصاً او قصاصاً او حاكياً او «حكواتياً» بلقة عوام الناس .

كان أبو الفداء مؤلفاً واسع التأليف له : المختصر (في التاريخ) وتقويم البلدان (في الفلك والجغرافية) والكناش (في الصرف والنحو) ومختصر سنن البيهقي (في الحديث) وطبقات الشعراء (في الادب) ويبدو ان له كتباً اخرى قد ضاعت . فلقد كان ابو الفداء جغرافياً ومؤرخاً واديباً وشاعراً كما كان ملماً بالحديث والفقه والطب وبأشياء كثيرة من اديان القدماء من الصابئة والمجوس ومن اديان اليهود والنصارى . وربما اورد ملاحظات توحى بأنه كان على شيء من الإلمام بعدد من اللغات .

وكانت معرفته بالجغرافية السياسية والجغرافية الفلكية واسعة جداً . والجغرافية بقروعهامهمة جداً في فهم التاريخ ، ذلك لان احداث التاريخ تتحرك بالجغرافية او في الجغرافية . ثم يجب ان يكون ابو الفداء قد برع في العلم الرياضي حتى بلغ الى المنزلة التي بلغ اليها في الجغرافية الفلكية من تقويم البلدان - معرفة اماكنها بالاضافة الى خطوط الطول ، وخطوط العرض .

وفي ما يلي اشياء من تفسيره للتاريخ واحداثه :

- اما لفظة التاريخ فإنه (اي التاريخ) محدث في لغة العرب لانه معرب من ماه روز (وكان عمر بن الخطاب قد سأل الهرمزان الفارسي كيف يفصل الفرس في تعيين الايام والشهور ، فقال الهرمزان) : ان لنا حساباً نسميه ماه روز ، ومعناه حساب

الشهور والايام . فهربوا الكلمة فقالوا مؤرخ ؟ ثم جعلوا اسمه التاريخ . . وقد وضعنا زايجة (١) تتضمن ما بين الهجرة وبين التواريخ القديمة المشهورة من السنين (١ : ١٢٩ وما بعد) .

— وذكر ابو القداء (١ : ٥٢) كيف توصل ابناء موسى بن شلكر المنجم الى معرفة دور (محيط الارض) في ايام المأمون ونقل القصة كاملة عن ابن خلكان (٢) . ثم قال : اقول : كذا نقله ابن خلكان . ونقل غيره من المؤرخين ان الذي وجد حصاة الدرجة ستة وستون ميلا وثلاثا ميل (٣) ، وهو غير صحيح ، فان ذلك حصاة الدرجة على رأي القدماء (٤) . واما في ايام المأمون فانه وجد حصاة الدرجة ستة وخمسون ميلا . وقد تحقق ذلك في علم الهيمنة « الفلك » (٥) ان هذا يدل على ان ابا القداء كان ينقل عن علم . ثم ان هذا ايضاً يدل على معاناة علم الفلك .

وتقويم البلدان المختلفة (توقيهها على سطح الارض : معرفة بعد بعضها عن بعض) امر على شيء كبير من الصعوبة لان الارض كرة ولذلك يكون بين كل بلدين خطوط مستقيمة كثيرة ، وهذا واضح جداً عند ابي القداء ، فانه كثيراً ما يذكر عدداً من تقويمات بلد ما ثم يفصل واحداً منها (٦) . ولقد اهتم المسلمون بعلم تقويم البلدان لانه علم يساعد على معرفة القبلة . من اجل ذلك اتخذ المسلمون نقطة المقارنة في ذلك مكة المكرمة ، كما اتخذ العالم المعاصر بلدة غرينيش في انكلترة قرب لندن نقطة يقيسون

(١) كذا في الأصل . الزييج (وجمعها أزياج ، زيجة ، زيجات) ، في الاصل ، جداول لمواقع النجوم وحركاتها .

(٢) وفيات الاعيان (حققه احسان عباس) ، بيروت ٥ : ١٦٢ - ١٦٣ .
(٣) الدور (الخط الذي يستدير على نقطة مفروضة) مقسوم عند علماء الهندسة ، منذ ايام الكلدانيين ، ثلاثائة وستين قسماً يسمى كل قسم منها درجة (مها كان قياس ذلك القسم من الدور . ففي قياس دور الارض (محيط الارض) قيل ان مدى الدرجة تساوي ستة وستين وثلاثاً من الاميال .

(٤) القدماء : العلماء الذين كانوا قبل الاسلام (ويطابق ذلك على علماء اليونان خاصة) .

(٥) راجع « تاريخ العلوم عند العرب » لكاتب هذا المقال ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٦) Sarton , Introd . to the hist , of Science III 135 , 136

جميع البلدان بالاضافة اليها . وقد وجد سارطون ان ابا الفداء قد اتى بخط العرض لمدينة دمشق صحيحاً (٣٣° - ٣٠° شمالاً) . غير اننا نستطيع تعليل اخطاء القدماء في ضبط عروض المدن بقلة الادوات والآلات العلمية عندهم وقلة دقتها . ولم يكن ابو الفداء في ذلك ناقلاً فقط (في ما ذكره صحيحاً وفي ما ذكره قريباً من الصحيح) ، بل كان عالماً ايضاً ، فانه كان اكبر الجغرافيين في زمنه في بلاد الاسلام وفي غير بلاد الاسلام (١) .

- ويتبع تحقيق عروض الارض تحقيق عروض الزمن (التواريخ) .

قال ابو الفداء: قال الشهرستاني : وعمرو بن لحي هو اول من جعل الاصنام على الكعبة ... وقد ذكر الشهرستاني ان ذلك كان في ايام سابور قبل الاسلام بنحو اربعمائة سنة . (هذا) ان كان سابور بن ازدشير بن بابك ، واما ان كان سابور ذا الاكتاف فهو ابعد عن الصواب لانه بعد سابور الاول بمدة كثيرة (١ : ٨٠) .

وربما تحرى ابو الفداء الدقة في ذكر التواريخ فأرخ باليوم وبالساعة (٢) ، (انظر فوق ، ص ، ثم ٤ : ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٠ ، وما بعد ، ١٥ ، ص ، ١٩ ، ٢٢) . وربما جاء بالتاريخ القبطي ، زيادة في تحري الدقة في ضبط الزمن ،

وفي هذه السنة (٦٩٢ هـ) خرج الملك المظفر محمود صاحب حماة ... من حماة يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان الموافق لرابع شهر آب (٤ : ٣٠)

وسار الملك المظفر محمود صاحب حماة بعسكره ووصل حلب يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الآخرة (سنة ٦٩٧ هـ) وسابع نيسان ... فخرجوا (اي العساكر الذين مع الملك المظفر) من دربند بغراس الى مرج انطاكية في الحادي والعشرين من رجب من هذه السنة الموافق لرابع ايار ودخلنا من باب اسكندرونة ونزلنا على باب حمص يوم الجمعة تاسع رمضان من هذه السنة الموافق للعشرين من حزيران (٤ : ٣٦ ، راجع ايضاً ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) .

ان النيل وفي يوم الاحد الثالث والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة

(٧١٢ هـ) الموافق للسابع والعشرين من آب من شهور الروم ورابع ايام النسيء بعد مسري من شهور القبط (٤ : ٧٠) .

— وكان ابو الفداء عارفاً بالطب ويطيب ايضاً .

وحصل للملك المظفر وهو نازل على حوص قليل مرض، ولم يكن صحبته طيبب . فاقصر على ما كنت اصقه له واعالجه به . فشفاه الله تعالى وعاد الى العافية . وانعم عليّ واحسن اليّ على جاري عادته (٤ : ٣٧) .

وابوا الفداء شاعر، وقد اكثر من الاستشهاد بشعره في كتابه (راجع ٤ : ١٠٤) .
 ١٠٩ ، ١١١ — ١١٢ ، ١١٢ ، ١١٣ ، الخ) . ولذلك فائدتان اولاهما ان الشعر يدل على الأدب ويسبغ على اسلوب التاريخ — وهو في الاصل اسلوب جاف ، اذا لم يكن قصة تروى مزركشة بالخيال — شيئاً من الطلاوة . وثانية تينك الفائدتين ان ابا الفداء عني بالشعراء خاصة فأورد تراجم موجزة لمنفر كثيرين من الشعراء والادباء مع شيء من المختارات اليسيرة ، ولم يكتف بذلك وقياتهم مجردة كما فعل ابن الاثير .

٢ — وابين دعائم تعليل التاريخ عرض الروايات على محك العقل .

ذكر ابو الفداء الملوك القيشداوية (وهم طبقة كل قدماء ملوك القرس) فقال (١ : ٤١) : وقد نقل عن مدد ملكهم وحرورهم أمور يأبأها العقل ، ويجهبها السمع فأضربنا عنها لذلك وذكرنا مايقرب الى الذهن صحته .

وذكر أبو الفداء الاسكندر بن فيليبس باني الاسكندرية (الاسكندر المقدوني) وقال أن نفراً من المؤرخين يحلون الاسكندر هذا هو ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم ، وهذا عنده خطأ . قال في ذلك (١ : ٤٧ ٤٨) :

وقد قيل عنه (عن الاسكندر بن فيليبس المقدوني) إنه انصرف من المشرق الى جهة الشمال وبنى السد (سد الصين) على يأجوج ومأجوج . والصحيح ان الاسكندر المذكور لم يكن منه (أي بناء السد) ، بل (الذي بنى السد) ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن ، وهو ملك قديم كان على زمن ابراهيم الخليل عليه السلام .. وقد غلط من ظن أن باني السد هو الاسكندر الرومي . وكذلك قد استفاض على السنة الناس أن لقب الاسكندر المذكور ذو القرنين ، وهو ايضاً غلط . فان لفظ ذو عربية محض ، وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن ...

والمتطلعون الى التأليف في تاريخ الأدب يأخذون بالروايات الغربية فيروون مثلاً أن امرأة القيس قد عشق ابنة قيصر فحملت الفيرة قيصرأ على أن اهدى الى امرىء القيس حبة مسمومة . فلما ليس امرؤ القيس الحبة المسمومة تهرأ لحمه ثم مات . قال أبو الفداء (١ : ٧٩) : وقيل ان ملك الروم سم (امرأ القيس) في حبة . وهو عندي من الخرافات .

وفيها (سنة ٥٨٣ هـ) حضر المركيس في سفينة الى عكا ، وهي للسلين — ولم يعلم المركيس بذلك . واتفق هجوم (همود) الهواء ، فراسل المركيس الملك الافضل وهو بهكاء يقترح امرأ بعد آخر والملك الافضل يجيب المركيس الى ذلك ، الى أن هب الهواء فأقلع المركيس الى صور واجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً ، وكان وصول المركيس الى صور وإطلاق الفرنج الذين يأخذ السلطان بلادهم بالأمان ويحملهم الى صور من اعظم أسباب الضرر التي حصلت حتى راحت عكاء وقوي الفرنج بذلك . (٣ : ٧٦) .

ومن المشهور بين الطامحين الى كتابة التاريخ أن المناذرة والغساسنة كانوا ملوكاً . والمعاصرون لنا يفهمون من لفظ « ملوك العرب » ما فهم نحن في العصر الحديث . ولكن تفسير ذلك ليس من شأن هذا المقال . ولكن من شأن هذا المقال أن أبا الفداء عرف حقيقة المناذرة والغساسنة .

قال أبو الفداء (١ : ٧٥ — ٧٦) : وكانت المناذرة آل نصر بن ربيعة عمالاً (جباة للأموال) للأكامرة على عرب العراق مثل ما كان ملوك غسان عمالاً للقياصرة على عرب الشام .

٣ — ومن خصائص أبي الفداء البارة أنه لم يكن مؤرخاً راوياً للأحداث ، كما كان الطبري وابن الأثير مثلاً . ولكنه كان معانياً لأحداث التاريخ ، فلقد كان ملكاً بوقائداً . فما ذكره من الأحداث التي كانت في أيامه كان بمثابة يوميات له دونها بعد أن خبرها وشارك في مجراها ، وما كان من الأحداث قبل أيامه كان اوضح في ذهنه مما كانت تلك الحوادث نفسها في ذهن الطبري وابن الأثير لأن أبا الفداء كان يعرف من مجرى التاريخ في البلاط وفي الميدان أكثر مما كانا يعرفان .

٤ — والمؤرخ و صاف للحضارة بجميع وجوهها : ما علامها وما سفل ، وما

بعد منها ومادنا ، وما كان منها لقومه وما كان لقبير قومه . والمؤرخ المنصف يذكر ذلك كله باكثر ما يطبق من الامانة . ولقد سرد أبو القداء من الفساظ الضابئة واليهود والنصارى مالا يجوز في الاسلام ولا يجوز لمسلم ، الا أن يكون ناقلاً غير معتقد .

في « تاريخ ابي القداء » صفحة مهمة جداً في تاريخ الحضارة والثقافة (٨٦ : ١) تدل على ان ثمة ديناً واحداً اوحى به الله الى عباده . ولكن الناس يضلون عن الدين مرة بعد مرة في الاحقاب المتطاولة فيبعث الله بعد كل فترة من الزمن من يجدد للناس دينهم . هذه الفكرة فكرة اسلامية تكثر الشواهد عليها من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف . وبحسبنا هنا الحديث : « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة دينها » (او كما قال) .

اما الصفحة المرادة فهي التالية (٨٦ : ١) :

« ذكر امة السريان والصابئين من كتاب ابي عيسى (وفي نسخة : ابي سعيد) المغربي قال : امة السريان هي اقدم الامم . وكلام آدم وبنيه بالمرياني . وملتهم هي ملة الصابئين ويذكرون (اي الصابئون) انهم اخذوا دينهم عن شيث وادريس ولهم كتاب يهزونه الى شيث يسمونه صحف شيث يذكر فيه محاسن الاخلاق مثل الصدق والشجاعة والتعصب للغريب او ما اشبه ذلك ويأمر به ، ويذكر الرذائل ويأمر باجتنابها . وللصابئين عبادات منها سبع صلوات منهن خمس توافق صلوات المسلمين والسادسة صلاة الضحى والسابعة يكون وقتها في تمام الساعة السادسة من الليل (نصف الليل) . وصلواتهم كصلوة المسلمين من النية وان لا يخلطها المصلي بشيء من غيرها . ولهم الصلوة على الميت بلا ركوع ولا سجود . ويصومون ثلاثين يوماً ، وان نقص الشهر الهلالي صاموا تسعة وعشرين يوماً . وكانوا يراعون في صومهم الفطر والهلل بحيث يكون الفطر وقد دخلت الشمس الحمل (١) . ويصومون من ربيع الليل الاخير الى غروب قرص الشمس ، ولهم اعياد

(١) تدخل الشمس برج الحمل (بفتح ففتح : الجدي ، الخرف الصغير) في أول فصل الربيع (في رأي قدماء الفلكيين) .

عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة (١) بيوت أشرافها (٢) والخمسة المتحيرة زحل
والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد . ويعظمون بيت مكة . وهم بظاهر حران (٣)
مكان يمجونه . و (هم) يعظمون أهرام مصر ويزعمون أن أحدها قبر شيث بن آدم ،
والآخر قبر ادريس وهو حنوخ ، والآخر قبر صابئ بن ادريس الذي ينتسبون اليه .
ويعظمون يوم دخول الشمس برج الحمل (٤) فيتهادون فيه ويلبسون اقخر ملابسهم
وهو عندهم أعظم الأعياد لدخول الشمس برج شرفاتها .

قال ابن حزم : والدين الذي التحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر
والقائب على الدنيا الى ان احدثوا الحوادث فبعث الله تعالى ابراهيم خليله عليه السلام
بالدين الذي نحن عليه الآن . قال الشهرستاني : والصابئون يقاتلون الحنفية (٥) ،
ومدار مذهبيم التعصب للروحانيين كما أن مدار مذهب الحنفاء التعصب للبشر
الجسمانيين .

— واستعرض ابو القداء تاريخ اليهود واليهودية ونقل عن الشهرستاني خلاصة
اعتقادهم ، فذكر (١ ، ٩٢) عن الشهرستاني ان اليهود تدعي ان الشريعة لا تكون

(١) الكواكب المتحيرة : الكواكب الخمسة المذكورة في السطر التالي . وسميت
المتحيرة (في رأي القدماء) لأنها تتقدم (رأي العين) على الشمس والقمر حيناً وتتأخر
عنها حيناً آخر .

(٢) يرى قدماء الفلكيين أن اسماء مقسومة اثني عشر قسماً يسمى كل قسم برجاً
وأن بعض هذه الابراج اشرف من بعض ، وأن اشرفها اعلاها . وبرج الحمل اعلاها كلها
واشرفها . قال الشاعر الطغرائي :

لو أن في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل !

(٣) حران : مدينة في شمالي العراق كانت للصابئة . ظاهر حران : في ضاحية
حران ، خارجها .

(٤) يوم دخول الشمس برج الحمل هو اول ايام الربيع .

(٥) الحنفية (هنا) : الحنفاء (جماعة كانوا في الجاهلية لا يدينون ديناً معيناً ولا
كانت لهم عبادات مخصوصة ، بل كانوا يسلكون في الأخلاق والاجتماع مسلماً كريماً ،
لا يشربون الخمر ولا يؤذون الناس ، الخ) .

الا واحدة ، وهي ابتدأت بموسى وتمت به . واما ما كان قبل موسى فانما كان حدوداً عقلية واحكاماً مصلحية ، ولم يجوزوا النسخ (١) اصلاً فلم يجوزوا بعده (٢) شريعة اخرى قالوا : والنسخ في الاوامر بداء (٣) ، ولا يجوز البداء على الله تعالى . وافترقت اليهود فرقاً كثيرة . فالرأبانية منهم مثل المعتزلة (٤) منسا ، والقراؤون كالمجبرة والمشبهة (٥) فينا . ومن فرق اليهود العائانية .. فمن مذهب العائانية أنهم يصدقون المسيح في مواعظه ويقولون أنه لم يخالف التوراة البتة ، بل قررها ودعا الناس اليها . وهو من أنبياء بني اسرائيل المتعبدن بالتوراة ، إلا أنهم لا يقولون بذبوتهم . ومنهم من يدعي أن عيسى لم يدع انه نبي مرسل ، ولا انه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام ، بل هو من أولياء الله المخلصين ، وأن الانجيل ليس كتاباً منزلاً عليه وحيًا من الله تعالى ، بل هو جميع ! أحواله جمعه أربعة من أصحابه . واليهود ظلموه أولاً حيث كذبوه ولم يعرفوا بعد دعواه ، وقتلوه آخر ولم يعملوا بحمله ومغزاه . وقد ورد في التوراة ذكر المشيحا في مواضع كثيرة وهو المسيح (١ : ٩٢ - ٩٣) .

ومن أعياد اليهود التبريك وتبطل فيه الأعمال . ويزعمون ان التوراة فيه استتم نزولها ، ولذلك يتبركون فيه بالتوراة . وليس في صياماتهم فرض غير صوم الكبور ، وهو عاشر يوم من تشرين اليهود . وابتداء الصوم من اليوم التاسع قبل غروب الشمس

(١) النسخ : إبطال امر سابق بأمر لاحق مخالف .

(٢) بعده (بعد موسى) .

(٣) في الاصل : بداء . والبداء (بكسر الباء) : الاستئناف (ان يجمع الانسان على رأي ثم يبدله بعد مدة) .

(٤) المعتزلة هم الذين اذا تعارض حكم الدين وحكم العقل تبعوا حكم العقل وأولوا حكم الدين على صورة توافق البلاغة العربية ولا تخالف العقل . ففي قول الله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » يقولون ان كلمة يد هنا تعني « القوة ، السلطة » .

(٥) المجبرة او (خصوم المعتزلة) يقدمون حكم الدين على حكم العقل . ويقولون في (يد الله) : لله يد ، ولكننا نحن لا نعرف كيف هي (ثم هم يعتقدون بالجبر ، وذلك أن جميع أعمال الانسان مكتوبة عليه بتفاصيلها منذ الأزل . والمشبهة أشد أخذاً بظاهر الالفاظ الدليلية من المجبرة .

بنصف ساعة الى بعد غروبها من اليوم العاشر بنصف ساعة تمام خمس وعشرين ساعة .
وكذلك غيره من صلواتهم التوافق والسنن (١ : ٩٤) .

— ذكر امة النصارى وهم امة المسيح عليه السلام . من كتاب الملل والنحل .
للشهرستاني ، قال : وللنصارى في تجسد الكلمة مذاهب . فمنهم من قال أشرفت على
الجسد اشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال انطبعت فيه انطباج النقش في
الشمعة ، ومنهم من قتال قدرح اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال ما زجت الكلمة جسد
المسيح مما زجة اللبن الماء . وافقت النصارى على أن المسيح قتلته اليهود وصلبوه .
ويقولون ان المسيح بعد ان قتل وصلب ومات عاش قرأى شخصه شمعون الصفا وكلمه
وأوصى اليه ثم فارق الدنيا وصعد الى السماء (١ : ٩٤) .

ومن فرق النصارى الملكانية . ذكر ابو الفداء أن الملكانية هم اصحاب ملكا الذي
ظهر ببلاد الروم واستولى عليها فصار غالب الروم ملكانية . وهم يصرحون بالتثليث .
وعنهم أخبر الله تعالى بقوله : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » (١) وصرحت
الملكانية أن المسيح ناسوت كلي وهو قديم أزلي من قديم أزلي . وقد ولدت مريم أملاً
أزلياً . والقتل والصلب وقماً على الناسوت واللاهوت معا . وأطلقوا لفظ الأبوة
والنبوة على الله تعالى وعلى المسيح حقيقة . . وحرموا أريوس لما قال : القديم هو الله
تعالى ، والمسيح مخلوق .

ومن الغريب جداً أن يورد ابو الفداء المسلم « كلمة الايمان عند النصارى » بلفظهم .
وهذا من الامانة في العلوم وفي التاريخ مما تحلى به المسلمون في جميع عصورهم وفي جميع
بحوثهم ، ولم يجده عند المستشرقين قط — حينما يتعرضون لاعتقاد المسلمين في الله وفي
النبوة خاصة . من اجل ذلك ترى فضل ابي الفداء في التاريخ على كثيرين من أمثاله .
انه لم يؤرخ السياسة والحرب والادارة فقط ، بل أرخ الحضارة والثقافة ، حتى تلك
الأوجه الخالفة لاعتقاده وذلك حباً في أن ينقل الينا صورة الاعصر الماضية نقلاً قزيباً من
الصحة قدر الامكان .

أورد ابو الفداء « كلمة الايمان هذه » على الوجه التالي (١ : ٩٤ — ٩٥) في اسلوب
عربي غير الاسلوب الذي يسمع الآن .

يقول النصارى :

نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى ، وبالأبن الواحد ايشوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلاق كلها وليس بمصنوع . آله حق من آله حق من جوهر ابيه الذي بيده انفتحت العوالم وكل شيء ، الذي من اجلنا واجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وولد من مريم البتول وصلب ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد الى السماء وجلس عن يمين ابيه ، وهو مستعد المجيء تارة أخرى للقضاء بين الاموات والاحياء . ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من ابيه وبعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية ، وبقيام ابداننا وبالحياة الدائمة ابد الأبدين .

واما النسطورية ، وم عند النصارى كالمعتزلة في الاسلام ، وقد قالوا ان الكلمة اشرقت على جسد المسيح كاشراق الشمس من كوة او على بلور . وقالت النسطورية ايضاً ان القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، بخلاف ما قال الملكاية (١ : ٩٥) .

واما اليعقوبية فقالوا ان الكلمة انقلبت لحمًا ودماً فصار الآله هو المسيح . قال ابن حزم واليعقوبية يقولون ان المسيح هو الله قتل وصلب ومات ، وان العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر ، وعنه أخبر القرآن العزيز بقوله تعالى (١) « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم » (١ : ٩٥)

وصلوات النصارى سبع عند الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء ونصف الليل يقرآن فيها بالزبور المنزل على داود تبعاً لليهود في ذلك . والسجود في صلاتهم غير محدود ، قد يسجدون في الركعة الواحدة خمسين سجدة . ولا يتوضأون للصلاة ، وينكرون الوضوء على المسلمين واليهود ويقولون الأصل طهارة القلب (١ : ٩٥) .

والصوم عند النصارى كثير معروف . وصومهم الكبير هو صوم تسعة وأربعين يوماً أروها يوم الاثنين ، وهو أقرب اثنين الى الاجتماع الكائن فيما بين الثاني من شباط الى اليوم (٢) الثامن من آذار ، فأى اثنين كان أقرب اليه ، إما قبل الاجتماع وإما بعده ، فهو

(١) القرآن الكريم ٥ : ١٧ ، ٧٢ ، سورة المائدة .

(٢) رأس صومهم : اول صومهم .

رأس صومهم وفطرم أبدأ يكون يوم الأحد الحنسين من هذا الصوم . وسبب تخصيصهم هذا الوقت بالصوم أنهم يعتقدون أن البعث والقيامة يكون في مثل يوم الفصح وهو اليوم الذي قام فيه المسيح من قبره بزعمهم (١ : ٩٥) .

ومن أعياد النصارى الشعانين الكبير ، وهو يوم الأحد الثاني والاربعون من الصوم (١) . وتفسير الشعانين التسييح لأن المسيح دخل يوم الشعنينة المذكورة الى القدس راكباً أن يتبعها جحش . فاستقبله الرجال والنساء والصبيان وبأيديهم ورق الزيتون ، وقرأوا بين يديه التوراة الى أن دخل بيت المقدس واختفى عن اليهود يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء ، وغسل في يوم الاربعاء أيدي أصحابه الحواريين وأرجلهم ومسحها بشيابه . وكذلك يفعله القسيسون بأصحابهم في هذا اليوم . ثم أفصح في يوم الخميس بالخبز والخمر وصار الى منزل واحد من أصحابه ثم خرج المسيح ليلة الجمعة الى الجليل فسعى به يهوذا ، وكان أحد تلاميذه ، الى كهراه اليهود وأخذ منهم ثلاثين درهماً رشوة ودلهم عليه . فألقى الله شبه المسيح على المذكور (٢) فأخذوه وضربوه ووضعوا على رأسه اكليلاً من الشوك وأآلوه كل مكروه وعذبوه بقية تلك الليلة ، أعني ليلة الجمعة ، الى أن أصبحوا فصلبوه بزعمهم أنه المسيح على ثلاث ساعات من يوم الجمعة على قول متى ومرقوس ولوقا . وأما يوحنا فانه رغم أنه صلب على مضي ست ساعات من النهار المذكور (١ : ٩٥ - ٩٦ ، راجع ٣٨) .

— سارت هيلانة أم قسطنطين (٣) الى القدس في طلب خشبة المسيح التي تزعم النصارى أن المسيح صلب عليها . ولما وصلت الى القدس بنت كنيسة قسامة على القبر الذي تزعم النصارى أن عيسى دفن به ، وخربت هيكل بيت المقدس الى الأرض وأمرت أن يلقي في موضعه قسامات البلد وزبالته ، فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقي الحال

(١) من الصوم الكبير الذي يمتد تسعة واربعين يوماً . اما اليوم الحنسين فهو يوم فطر (عيد) .

(٢) الملوح هنا أن الذي القى شبه المسيح عليه وصلب كان يهوذا الذي دل على مكان المسيح (اذ كان المسيح مختفياً في بيت احد اقباعه) .

(٣) هيلانة ام الملك قسطنطين ، يقال انها زارت القدس (عام ٣٢٤ م) وعثرت فيها على الخشبة التي يزعم النصارى أن المسيح صلب عليها .

على ذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتح القدس فهدله بعضهم على موضع
الميكز فتظفه عمر من الزبائل وبنى به مسجداً. وبقي ذلك المسجد الى أن تولى الوليد بن
عبد الملك الأموي فهدم ذلك المسجد وبنى على الاساس القديم المسجد الأقصى وقبة
الصخرة ، وبنى هنالك قباباً أيضاً سمي بعضها قبة الميزان وبعضها قبة المعراج وبعضها
قبة السلسلة . والأمر على ذلك الى يومنا هذا (١ : ٤٠) .

— ثم ملك ثاوذوسيوس الثاني عشرين سنة ، وكان موت ثاوذوسيوس في منتصف
سنة ٧٥٥ للاسكندر . وفي مدة ملكه كان المجمع الثالث في أفسس ، واجتمع مائتا
اسقف وحرروا نسطورس صاحب المذهب ، وكان بطركاً في القسطنطينية ، لقوله ان
المسيح جوهران جوهر لاهوتي وجوهر ناسوتي. وأقنومان أقنوم لاهوتي وأقنوم ناسوتي
(١ : ٦٨) .

يصدر قريباً

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

نصوص عن عفتارة

مع مقدمة وجواشي

ترجمة : عيسى عصفور

بابوف

الآفاق الجغرافية عند أبي الفداء في كتابه

«تقسيم البلدان»

مصطفى الحاج ابراهيم

يعتبر أبو الفداء ملك حماة أحد الشخصيات القذة في التاريخ العربي خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر والربع الأول من القرن الرابع عشر ، وكان لشخصيته أثر كبير في تحديد اتجاهاته وأعماله الفكرية والسياسية والعسكرية ، وانعكس هذا الأثر بوجه خاص في نمو مواهبه المتعددة المتكاملة ، ولاسيما في تنمية اتجاهاته الجغرافية الواضحة وانسجامه مع روح العصر الذي عاش فيه ، ذلك العصر ، المضطرب الانتقالي بين العصور الوسطى والعصور الحديثة . فمن هو أبو الفداء ؟

هو اسماعيل بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (١) . وقد أضيف على اسم اسماعيل لقب عماد الدين ، وبعد امارته لقب بالملك الصالح ثم الملك المؤيد أبو الفداء . وقد اضيفت على أبي الفداء صفات كثيرة مستوحاة من سيرة حياته فكان يدعى بالسلطان العالم العادل القاضل الكامل المجاهد المرابط المتأخر .

سيرة حياته :

ولد أبو الفداء في مدينة دمشق عام ١٢٧٣ م أي قبل سبعة قرون ، في اسرة تنتمي الى الايوبيين كانت قد سيطرت على حماة ، وكان والده أمير حماة قد لجأ الى دمشق فراراً من اخطار الغزو المغولي ، الذي هدد بلاد الشام بعد اجتياح هولاء لبقعاء عام ١٢٥٨ م عاش أبو الفداء حياة نشطة جداً تتفق ومطامعه السياسية في الوصول الى منصب الملك في حماة كما تتفق والظروف غير المستقرة التي كانت سائدة في طفولته وشبابه . رافق والده منذ نعومة أظفاره وهو في سن الثانية عشرة في معركة استرجاع قلعة الحصن من الصليبيين ، كما أسهم في معارك اخرج الصليبيين من المواقع الاخيرة التي كانوا يحتلونها في بلاد الشام كطرابلس وعكا والكرك ، وكيليكية (ارمينية الصغرى) وقد ربط أبو الفداء مصيره السياسي بالمهايك الذين كانوا يحكون بلاد الشام في دمشق والقاهرة ، وجهد في ارضائهم بمختلف الوسائل لبلوغ هدفه الاكبر وهو نيل اماره حماه .

فبالإضافة الى اسهامه في الجهاد ضد الصليبيين ، شارك في حماية الثغور من الروم (٢) مما كان سبباً في نيله لقب المجاهد والمرابط والمتأخر ... وعرف أبو الفداء بهمارته السياسية في ارضاء السلطان المقيم في القاهرة وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي سبق ان وعده بحكم حماه منذ ان كان أبو الفداء في خدمته في مدينة الكرك بجنوب بلاد الشام ، وبعد ان تولى الملك الناصر السلطنة في القاهرة كان أبو الفداء يتوجه كل

(١) معجم المؤلفين (ج ٢ ص ٢٨٢) .

(٢) في الحملتين الاولى والثانية على كيلىكية عامي ١٢٩١ و ١٣٠١ ، وكانت

آخر حملة له في آسيا الصغرى عام ١٣١٥ .

عام الى مصر حاملاً معه كل ثمن من الخيول والرقيق والجواهر ليقدمه الى السلطان (١) وتحققت آمال أبي الفداء بعد جهاده الطويل فأقيم والياً على حماة عام ١٣١٠ م وأميراً عام ١٣١٢ م كتابع لنائب الشام المملوكي تنكز ، ولكنه لم يحصل على لقب الملك الا عام ١٣٢٠ وأضحى له الأسبقية على جميع ولاة الشام . وظل في ملك حماة الى أن توفي ودفن فيها عام ١٣٣١ م .

أبو الفداء العالم :

كانت صفة «العالم» على رأس الصفات التي أضيفت الى رجل الدولة الكبير ومن الواضح أن أبا الفداء كان يتمتع بزايا شخصية كان لها دورها في تكوينه العلمي والسياسي والعسكري ، فقد كان ذا ذهن صاف ، وقرحة فياضة إلى جانب شجاعته ، ومروته ، واستعداداته للعمل العسكري ، والدبلوماسي والسياسي ، فلم يمس الرعية والحكام فقط بل ساس العلماء أيضاً يتبين لنا ذلك من أن أمارته الأولى على حماة عام ١٣١٠ تمت بناء على طلب منها شيخ فضل الذي كان يسمى « ملك العرب » في منطقة حماة ، رغم أنه كان قد كسب تأييد نائب الشام في دمشق والسلطان في القاهرة وقد جعل أبو الفداء من حماة مركزاً للعلماء والأدباء والشعراء ، مجالسهم وينظروم في العلوم المختلفة قديماً وحديثاً وبوجه عام اشتهر أبو الفداء بحبه لأهل العلم والخير وكرامه الشديد لهم .

كان أبو الفداء قد تلقى ثقافته الأولى في دمشق ، وظهرت براعته بادية ذي بدعي العلوم التقليدية كالفقه والأصول العربية والتاريخ والأدب عندما صار من جملة أمراء دمشق ، وعاصر أبو الفداء وهو في دمشق العالم الملقب بالدمشقي صاحب كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر الذي يعتبر ذا أهمية كبيرة في نشر بعض المعارف المجددة في التاريخ الطبيعي ، اذ جمع الكتاب المذكور معطيات وافرة عن النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض ، عدا موضوعات أخرى متنوعة ذات قيمة جغرافية عن بلاد الشام وفلسطين .

وقد ترسخ الاتجاه العلمي الجديد عند أبي الفداء بعد استقراره في ملك حماة ،

(١) كانت تلك الزيارات للقاهرة على ما يبدو قد لعبت دورها في التكوين السياسي والثقافي لأبي الفداء ، اذ كان السلطان يأنس به ويكرمه ويشركه في كثير من نشاطاته ورحلاته في البلاد او بصطحبه في حججه الى الأماكن المقدسة .

اذ اُضيف إلى نشاطاته ، علوم الميقات والهيئة والفلسفة والمنطق والطب ، مع النظم والنثر ، فقد ذكر الصلاح الصفدي (٢) معرقة أبي الفداء بالفقه والطب والحكمة ولكن كان « اجود ما يعرفه علم الهيئة لأنه أفتنه » وذكر الشيخ جمال الدين الاسنوي في طبقاته - وكان قد جالس أبا الفداء في القاهرة جلسات علم طب ، وعلم نباتات وحشائش - ان أبا الفداء استطرد في حديثه (وكان الموضوع صفات النبات والأرض التي تلائمها) استطراداً عجبياً ، رغم وجود طبيبين مشهورين هما ابن القويح وابن البرهان « وهما لا يدريان شيئاً عن الموضوع - وأضاف الشيخ ركن الدين بهذا الشأن فقال :

« ما اعلم أن ملكاً من ملوك المسلمين وصل الى هذا العلم » .

هذا ولا شك في ان قيام ابي الفداء بتجيش الجنوش ، وخبرته في السوقية العسكرية قد جعلته يعتمد على اكتشاف معالم الأرض والمواقع التي تجزي فيها المغارك كما يعتمد على جمع المعلومات عنها والتعرف عليها بدقة ، مع الدراية بالطرق والمنافذ المؤدية إليها . وكان كل ذلك عاملاً في تنمية اتجاهاته الجغرافية .

وقد جاءت تأليف أبي الفداء ومصنفاته العديدة ، وهو في ملك حماه معبرة عن اتجاهه العلمي والمفضل ومنها : ١ - تاريخه المسمى المختصر في تاريخ البشر ٢ - كتاب تقويم البلدان . ٣ - الكناش في الطب (مجلدات كثيرة) . ٤ - نظم الحاوي في الفقه . ٥ - كتاب الموازين . ولكن شهرة أبي الفداء جاءت من المؤلفين الأولين في التاريخ والجغرافية ولا سيما الثاني منها .

بدأ أبو الفداء كتابة مؤلف تقويم البلدان في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع عشر (حوالي عام ١٣١٧م وانتهى منه عام ١٣٢١م أي قبل وفاته بأحد عشر عاماً ، والمعتقد أن أبا الفداء استمر في تنقيحه والاضافة عليه حتى وفاته عام ١٣٣١م .

لا ريب في ان كتاب تقويم البلدان قد تضمن خلاصة معارف أبي الفداء وخبراته التي حصل عليها مجاهداً ووالياً وأميراً وملكاً . وتطلب ذلك منه مقدرة كبيرة في جمع المواد من مظاهرها وتبويبها ، ان أبا الفداء لم يكن رحالة كإبن بطوطة وابن جبير والمقدمي وغيرهم من ارتحلوا في طلب العلم وجابوا أكثر المناطق المأهولة في ذلك العصر

يجمعون منها المعلومات مباشرة (١) . غير ان المكانة المرموقة لأبي الفداء وهو في مركز السلطة قد مكنته من تنويع مصادر المعلومات، وهذه المصادر يستطيع أن يجد القارئ أهميتها في متن الكتاب ، وهي مؤلفات من سبقه فكان المؤلف أميناً في الاشارة اليهم ، فمن اعتمد عليهم أبو الفداء الاصطخري وابن حوقل والادريسي وياقوت وعلي البيروني في كتابه القانون ، وعلى كتاب بطليموس وجغرافية ابن سعيد ، وعلى المهلبي جغرافي العهد الفاطمي ، ومؤلف ابن سيد ، وبعض مؤلفات لم تصلنا أبدأ مثل العزيزي ولباب ابن الأثير .

عصر أبي الفداء :

حصل أبو الفداء على معلومات جديدة، لم يحصل عليها سابقوه نجت عن طبيعة اتساع العالم المعروف آنئذ ، واتساع المعلومات عنه ، ولا سيما خارج نطاق البلدان العربية والاسلامية وقد استقى تلك المعلومات من التجار والمسافرين ، فهو يستشهد أحياناً بجماسريه ، فمثلاً بالنسبة للهند استخدم معلومات قدمها شخص قام بزيارتها، وقد مكنته تلك المعلومات التي حصل عليها من اعطاء وصف قصير عن تلك البلاد ولكنه صحيح بوجه عام . ويجب ان لا ننسى ان أبا الفداء عاصر الفترة الانتقالية النشطة في أواخر العصور الوسطى ، قبيل بدء العصور الحديثة أو ما يمكن تسميته فترة بدء الاكتشافات الجغرافية وفترة الاحتكاك الواسع بين الشرق والغرب ، في الحرب والسلام ، وكانت الحروب الصليبية ، وحركات المفلول ، مظهرأ من مظاهر ذلك الاحتكاك الذي خبره ابي الفداء ولا شك ، كما كان استقبال السفراء مظهرأ آخر ، فقد حضر ابو الفداء لدى زيارته للقاهرة استقبال سفير خايمية (يعقوب الثاني ملك ارغوان في اسبانياغرباً وسفير ايلخان فارس شرقاً) ولا ننسى ان ابا الفداء عاصر الرحالة الايطالي ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) الذي ضمن كتابه ما يشبه موسوعة جغرافية عن العالم الذي جابه . وعاصر ابو الفداء نشاط البنادقة التجاري على شواطئ بلاد الشام وفي بعض مدنها الداخلية ، وكان هؤلاء قد اقاموا علاقات واسعة النطاق بين الغرب والشرق منذ القرن الثاني عشر .

(١) صحيح ان ابا الفداء قد تجمعت لديه معلومات عن تنقلاته في مهامه بين الشام ومصر وبلاد النوبة والحجاز وكيليكية وآسية الصغرى (بين تارس وقيسارية) ولكن هذه المناطق لا تمثل الا جزءاً صغيراً من العالم الاسلامي، ومن العالم المعروف في عصره .

ولم تكن مدينة حماة بعييدة عن ذلك النشاط ، فقد كانت تشهد نهضة عظيمة تفوقت فيها على مدينة حمص ، فهي المدينة الرئيسية الواقعة على نهر العاصي اكبر أنهار سورية (باستثناء نهر الفرات العابر) ، ومعنى ذلك انها كانت واقعة على اهم طريق داخلي طبيعي يربط شمال سورية (حلب ، مرعش ، انطاكية ، اسكندرونة ، اضنة) بجنوبها (دمشق ، عكا ، القدس) ، كما انها على اتصال سهل ببلاد ما بين النهرين ، عبر الرصافة ووادي الفرات ، وتدمر ، وليست المدينة بعييدة عن ساحل الشام عبر الممرات الجبلية .

وسبق ابا الفداء بقرن من الزمان ياقوت الحموي (مؤلف معجم البلدان) وكان من اكبر باعة الكتب في عصره قبل ان يكتب مؤلفه في اواخر ايام حياته في الموصل وحلب ، كما سبقه بقرن ونييف اسامة بن منقذ ، من امراء قلعة شيزر على العاصي قرب حماه وهو مجاهد ومؤلف كتابي الفداء في الادب والتاريخ ومواقع الارض وتردد مثله بين شيزر ودمشق وشارك في جهاد الصليبيين ونقل ابو الفداء عنه بعض معلوماته .

تقويم كتاب ابي الفداء :

لاقى كتاب ابي الفداء اقبالاً واحكاماً كبيرين في الشرق والغرب . فقد خصه الذهبي معاصره الاصغر سنأ ونقل عنه الفلقشندي ، واعتمد عليه الاوربيون اعتباراً من القرن السادس عشر وكذلك الاتراك كما اعتمد عليه الفرس في القرن السابع عشر . وقد اعتبر ثالث كتاب عربي اشتهر في الغرب بعد القرآن الكريم ، و ألف ليلة وليلة (١) ، واهتم بالكتاب المستشرق الغربي بوستيل والالمانني شيكارث والفلكي الانكليزي غريفيز ، وظهرت للكتاب في القرن الثامن عشر ترجمة كاملة (١٧٧٠ - ١٧٧١) م للمستشرق رايزكه ، ولكنها كانت مستعجلة ، ولكن الترجمة والنشر اللتين عمل فيهما المستشرق الكبير دي ساسي وتلامذته ، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر هي افضل صورة قدمت عن كتاب تقويم البلدان وقد ترجمه الى الفرنسية المستشرق رينود Reynaud . وظهر المتن العربي مع مقدمة إضافية عن سيرة ابي الفداء ومؤلفه عام ١٨٤٠ (٢) ، وظل اثر الكتاب قائماً في اوروبا حتى اواسط القرن التاسع عشر .

(١) تاريخ الادب الجغرافي العربي ص ٣٩٤ (كراكتشكوفسكي)

(٢) اعتمدنا في هذا المقال على طبعة (باريس ١٨٤٠)

وفي الشرق زبته سباهي زيادة التركي (القرن السادس عشر) (١) على حروف المعجم باللغة العربية واخرجه بعنوان « اوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك » كما نقله الى التركية .

هذا وإذا نظرنا إلى التقويم الموضوعي العلمي لكتاب (تقويم البلدان) نجد بأن أكثر الكتاب تناقلوا ماجاء في مقدمة رينودو دي سلان التي صدر بها النسخة العربية والترجمة الفرنسية والدراسة التي وضعها كراتشكوفسكي ، بالإضافة الى ماورد في دائرة المعارف الاسلامية وما اورده عدد من المستشرقين من احكام ، ولكن الآراء التي ابدتت تفاوت بين التقيضين فمن قول هـ . كرومرز بأن كتاب تقويم البلدان اقرب الى تصنيف هزبل للضادر الاقدم منه ، الى قول سارتون « ان ابا الفداء اعظم جغرافي في عصره » . وقول رينود انه « يمثل الى جانب الادريسي مؤلفاً ضخماً في مجاله » و « ان المصنوع الوسطى الأوربية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به » .

ويعلق كراتشوفسكي على ذلك بقوله « لا يزال هذا الحكم صحيحاً في جوهه حتى إيماننا هذه ، ولكن يجب ان تعدل بعض تفاصيله على ضوء تطور البحث في مجال الادب الجغرافي منذ اصدر رينود حكمه هذا (٢) . ويضيف الى ذلك قوله ولكن الاخطاء قد تمربت الى مادة الكتاب في بعض المواضع كوصفه لاقريقية الجنوبية ، وكخلط في القمم الخاص بالهند والتخبط في المعلومات عن الصين ، بينما يقول رينود ودي سلان في مقدمتها ان المعلومات الواردة عن الهند قدمها شخص زار المنطقة ومكنته من اعطاء وصف قصير عن تلك البلاد ولكنه صحيح بوجه عام .

أما اماري فيقول : بأن كتاب تقويم البلدان قد حاز الاعجاب « لاسلوبه المسترن ونقده القويم » .

وفي الشرق قال شرف الدين حسين بن ربان في تعليق شعري على كتاب تقويم البلدان في حياة ابي الفداء نفسه : ما معناه « هذا الكتاب يثير الاعجاب للتجديد والاعداد والانشاء وان انشاءه يفوق جميع الكتب الأخرى » ويقول « ويجد فيه المرء في الواقع الاوصاف والأشياء العجيبة » .

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي صفحة ٣٣٥

(٢) المصدر السابق الجزء الأول ص ٣٨٩

ويبدو أن شخصية أبي الفداء قد أثرت في الحكم على كتابه وجهت بينها ، أذ يقول شرف الدين المذكور نفسه « اننا نجد عاشقاً للعلم ، نهماً للمعرفة ، لا يضيع من العلم ، حياً له حتى ليؤكد يكون مجنوناً بالمعلومات من كل نوع » .

ومع ذلك وبغض النظر عن الاحكام المتطرفة الآتية الذكر ، ومن المفاضلة بين كتاب أبي الفداء وغيره من الكتب ، لأنها لا يمكن ان تكون مفاضلة موضوعية لتباين الشروط المحيطة بتأليف كل منها ، ونخص منها الدواعي والأهداف التي حدثت بالمؤلف التي وضع كتابه والاطار الذي يحده به ، فاننا سنحصر بحثنا عن الآفاق الجغرافية عند أبي الفداء في المستعرض أهم ما تضمنتها منها نصوص كتابه « تقويم البلدان » وتحليل بعضها ، وقد اعتمدنا في ذلك على طبعة باريس عام ١٨٨٠ التي أشرف عليها زينود ، ودى سلان عضو الجمعية الآسيوية في العاصمة الفرنسية في القرن الماضي والمحافظة لدى المكتبة الظاهرية بدمشق .

التفكير الجغرافي العام عند أبي الفداء :

المطالع لكتاب تقويم البلدان يستطيع ان يرى بوضوح بروز الاتجاه الجغرافي ، والمعلومات الجغرافية وطغيانها على عكس الحال مثلاً في اقرب كتاب سابق له بنحو قرن هو كتاب معجم البلدان ، الذي تديعثر فيه المعلومات الجغرافية على غير هدى وسط المعلومات الادبية والتاريخية والاسطورية وسواها ، وهي تفاصيل لا تتفق ولا تنسجم مع العرض الجغرافي . ويمكن ان يعتبر ابو الفداء نقطة تحول في طريقة الدراسات الجغرافية كما يمكن اعتباره احد الرواد المبكرين للجغرافية الحديثة وذلك للأسباب التالية :

١ — يعطي ابو الفداء أهمية كبرى لتحديد المواقع بغية تحديد العلاقات والروابط بين العوامل الطبيعية على اختلافها وبينها وبين الظواهر البشرية ومنها المسافات والابعاد الفاصلة بين المواقع ، وفي هذا تأكيد لفكرة مكانية علم الجغرافية (١) .

(١) يزيد ابو الفداء تأكيده لاهمية تحديد المكان من ابصاحه خطأ ارقام خطوط الطول والعرض التي أوردتها بعض المؤلفين لبعض المواقع كما فعل البيروني بذكره عرضاً واحداً لدمشق والسلمية ، وعدم دقة كثيرة من الارقام التي أوردتها هو نفسه بسبب استنتاج العروض والاطوال بتحويل الايام والفراسخ والاميال الى درجات (درج) وبسبب تضرس سطح الارض .

٢ - عند ابي الفداء بدايات طيبة للتفريق بين الجغرافية العامة التي تنظر نظرة كلية الى الظواهر الموجودة على سطح الارض ، وصفا وربطاً ومقارنة وتعليلاً والتي دعاها جمة الارض او رسم الارض ، وبين الجغرافية الاقليمية التي هي وصف وتطبيق لما يوجد من تلك الظواهر في الأماكن المختلفة التي سكنها الانسان ، فتكونت من تلك المظاهرات نماذج متمايزة في المكان و « اللسان والمعاش » وقد جعل منها ابو الفداء ثمانية وعشرين مكاناً (١) اطلق عليه اسم الاقليم العرفي (٢) وذلك ضمن الاقاليم الطبيعية او المناخية التي اطلق عليها اسم « الاقليم الحقيقي » الناجم فعلاً عن الموقع العام للاقليم على سطح الارض ، واختلافه بين الحرارة والاعتدال والبرودة ، غير ان ابا الفداء جانب الصواب في اعتبار الاقليم الاول يبدأ من عرض ١٢ درجة شمال خط الاستواء ، وجعل نهاية الاقليم السابع درجة عرض ٤٠ درجة شمال خط الاستواء لافتراض ما يقع في اقصى الجنوب واقصى الشمال غير معمر في معظمه ، وخرّب بفعل الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة ، وبذلك اعتبر الاقاليم ممتدة في الجهات التي قطعها الانسان فتقط وفق نظرية الربع المعمور من الارض مع ان الاقاليم الطبيعية لا تتعلق بوجود الانسان غير ان ابا الفداء كان عملياً في نظراته التي تناسب الشروط السياسية والاقتصادية السائدة في العالم آنذاك .

٣ - المحاكمة السليمة والنقد الموضوعي المتواضع في مختلف اجاث كتاب تقويم البلدان ، يجد المرء تلك الروح ، بل يكاد يجدها في مختلف صفحات الكتاب .

(١) تلك وردت على الترتيب : جزيرة العرب ، مصر ، المغرب ، السودان ، جزيرة الاندلس ، جزائر بحر الروم والمحيط الغربي ، شمالي الارض ، الشام ، الجزيرة بين دجلة والفرات ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، الهند ، الصين ، جزائر ، بحر الشرق ، بلاد الروم ، ارمينيا وايران وازربيجان ، عراق العجم ، الديلم والجيل ، طبرستان . ومازندران وقومى ، خراسان ، زابلستان والغور ، طخارستان وبندخشان ، خوارزم ، ماوراء النهر .

(٢) يعترف ابو الفداء بعدم وضع حدود بين الاقاليم العرفية لتداخلها بحيث يتعذر تحديدها وفق جهاتها الاربع او داخل اقليم طبيعي (حقيقي) واحد . وان معظم الاقاليم العرفية ينتمي كل منها الى اكثر من اقليم طبيعي (مثلاً بلاد الشام مقسمة بين الاقليمين الثالث والرابع) (المصدر نفسه ص ٧٢)

فمنذ مطلعته يذكر ابو الفداء اهمال من سبقوه من ائمة ذلك العلم في موضوع ضبط المواقع من حيث اطوالها وعروضها ومسمياتها، وانهم حملونها كليا (ابن حوقل والادريسي وابن خردادبة) او جزئيا (ياقوت الحموي . السمعاني ، الموصلي) يقول ابو الفداء . ومع الجهل بالاطوال والعروض يجهل سمت ذلك البلد فلا يعرف الشرقي منها ولا الغربي . ولا الجنوبي ولا الشمالي ولنا وقتنا على ذلك وتأملناه جديماً في هذا المختصر ما تفرق في الكتب — من غير ان ندعي الاحاطة بجميع البلاد او بغالبا فان ذلك امر لا مطمع في الاحاطة به (١) .

ومن امثلة عما كتبه السليمة ونقده البناء قوله بمناسبة الكلام عن الاقاليم « وقد رأينا غالب واضعي الكتب المؤلفة في الأطوال والعروض من الزيجات وغيرها لا يافظون فيها على اثبات الاماكن في مواضعها من الاقاليم ثم يثبتون بعض اماكن الاقليم في الاقليم الاخر ، ومن تأمل ذلك وكشتمه تحته صحة ما ذكرناه ، ونحن قد رأينا ذلك واثبتنا كل مكان في اقليمه » (٢) ويعني ابو الفداء بقوله هذا ان الكثير من المؤلفين لا يدققون في نسبة الاماكن من مدن وسواها من ظاهرات الى الاقاليم الحقيقية التي تنتمي اليها ، وانهم لتقص في التدقيق ينسبوننا الى اقاليم غير اقليمها الصحيحة .

٤ — محاولة تصحيح الاخطاء عند التأكد من وجودها فان تضاربت الاراء ولم تستبين له الحقيقة ذكر مختلف الاراء ، اما اذا استمات فيقف الى جانب الحقيقة . فمن تصحيحاته ما اورده بمناسبة بلدة الحجر (٣) « قال ابن حوقل والحجر بين جبال على يوم من وادي القرى اقول لم يحصل ذلك فان بينها اكثر من خمسة ايام » ثم يتابع « وازافة اقول وهي التي ينزلها حجاج الشام وهي عن العلى على نحو نصف مرحلة من جهة الشام » . ومثال اخر : حول تبوك (٤) يقول فيه « قال في القانون وتبوك في البر اعلى هذاذة مدين اقول تبوك في الشرق ومدن في الغرب » ،

وفي حالات كثيرة جدا عندما كان ابو الفداء لا يستطيع البت بدرجة طول وعرض

(١) تقويم البلدان ص ٣

(٢) تقويم البلدان ص ٩ - ١٠

(٣) المصدر السابق ص ٨٩

(٤) المصدر السابق ص ٨٧

الاماكن كان يورد الارقام المختلفة التي وضعها المؤلفون ، وهذه الاختلافات كانت كثيرة في عهد ابي الفداء لعدم وجود مصورات الاقاليم المختلفة ولمواقع الاماكن فيها .

وفي بعض المواطن يبدي حكمه كما في كلامه عن نهر سيمحون (١) « ووجدت النقل فيه مختلفا واخترت ما ذكره ابن حوقل فانه يحكي ذلك عن مشاهده » .

هـ — طريقة التأليف : رغم ان ابا الفداء بدأ كثيره بالكوزموغرافية او الجغرافية العامة الا أن مقدمة فيها جاءت متسلسلة مترابطة ، فقد استهلها بالجغرافية الرياضية ، فالاقاليم الحقيقية ، فظواهرات سطح الارض من بحر وبحيرات فانهار فيجبال .

ثم ينتقل الى الجغرافية الاقليمية اذ اصحت التسمية او الى دراسة الاقاليم العرفية ، وهو في هذا الشأن ينحو نحو البلخي في اعطاء الاهمية الكبرى للاقاليم العرفية ، التي يبلغ عددها ٢٨ هي التي سبق ذكرها ، اتبع في ترتيبها نسق ابن حوقل ، وينقسم بعض تلك الاقاليم الى اقاليم عرفية صغرى ، لذلك درس الاقاليم العرفية دراسة منهجية اذ كان يقدم لكل اقليم عرفي بمقدمة عامة عن حدوده وموقعه مما حوله ، وبعض مظاهره الطبيعية ومراكزه البشرية قبل ان ينتقل الى التماويم او الجداول التي يذكر فيها اهم مدن الاقليم وقراه ، وكل جدول او لوحة تمتد على صفتين ، الصفحة الأولى لضبط التسميات وتحديد جغرافيا ولغويا مع الاشارة الى المصادر المنقول عنها . في حين يختص الصفحة المقابلة للاوصاف ، الاخبار العامة ويلاحظ فيها الايجاز الدال والتركيز على الاثر التاريخي للكان المدرس وتحديد موقعة واهم مظاهره الطبيعية وبعض نشاطاته البشرية والاقتصادية ، كما يشير الى الطرق التي تصله بغيره .

٦ — المقارنة والموازنة : ويمكن اعتبارهما جزءاً من طريقة ابي الفداء في عرض الحقائق وتوضيحها ، وهذا يدل على حضور الذهن ، والقدرة على الربط بين الظواهر المتماثلة الناجمة عن عوامل واحدة . وهذه المقارنات كثيرة جداً في كتابه وذات قيمة وهذه أمثلة عنه :

يقول في كتابه عن قابس (٢) وقابس في افريقية كدمشق في الشام ، ويتزل اليها نهران من الجبل في جنوبها يخترقان غوطتها .

(١) تقويم البلدان ص ٦١

(٢) تقويم البلدان ص ١٤٢ .

— ويقول عن نهر السند (١) . « وهو نهر كبير عذب جداً ويشبه نيل مصر بان فيه تماسيح ، وانه يرتفع ويركب البلاد ثم ينزل فيزرع عليه » وفي ذلك اشارة واضحة الى تماثل فيضان نهرى السند والنيل والى زراعة رى الحياض فيها وهو الرى القائم على غرة الأرض مرة واحدة تليه زراعة المحصول الشتوي .

ويورد أبى القداء مقارنة أخرى بنهر النيل موضحاً فصل الفيضان فيقول عن مقديشو (٢) « ولها نهر عظيم يشبه نيل مصر في زيادته في الصيف » كذلك يقترن نهر شليف بالجزائر بنهر النيل بقوله انه مثله يزيد عند نقص الأنهار ، ومن قبيل المقارنة والربط ما ذكره عن نهر اشبيلية (٣) (والشهر الأعظم) أو الوادي الكبير . فقد قال انه (في قدر نهر دجلة) ، ويقع فيه المد والجزر من البحر مثل دجلة عند البصرة .

٧ — الربط والتعليل : لم تكن جغرافية أبى القداء وصفية فقط بل تعني في مواضع كثيرة بالربط والتعليل : فمثلاً عند الكلام عن بطائح العراق (٤) (أي بحيراته) يوضح علاقاتها بالأنهار (مياه دجلة والفرات) وانها تحدث في أوقات الحروب (أي عندما يختل الأمن وتخرب مشروعات الرى فنذكر ان بطائح واسط حدثت عند اشتغال الفرس بقتال المسلمين في أول الاسلام .

وفي موضع آخر وعند كلامه عن مدينة بلار (٥) (أي بلغار) في منطقة القوقاز ، يربط بين شدة البرد وعدم وجود الفواكه وحق العنب ، كما يربط بين درجة العرض وعدم غياب الشفق في أوائل فصل الصيف فيقول :

وهي بلدة في نهاية العارة الشمالية ولا يكون بها شيء من الفواكه ، ولا اشجار الفواكه لشدة بردها ، وكذلك العنب لا يوجد بها حكى لي بعض أهلها ان في أول الصيف لا يغيب الشفق ، ويكون ليها في غاية القصر ، وهذا الذي حكاه صحيح موافق لما يظهر بالأعمال الفلكية ، لأن من عرض ٤٨,٣٠ ° يبتدىء عدم غيبوبة الشفق

(١) المصدر نفسه ص ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦١ .

(٣) تقرم البلدان ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٥) المصدر السابق ص ٢١٧ .

في أول الصيف ، وعرضها (أي المدينة) أكبر من ذلك ، فصح ما تقدم على كل تقدير .
ومن ذلك التبييل يقول في أراضي سجستان (١) : بها الرمان والنخيل وهي ارض
سهلة لا يرى فيها جبل ، وكثتد بها الريح وتدموم ، وبها أرحية تطحن بالريح ، وتنقل
بالرياح رمالم من مكان الى مكان آخر .

فهو بذلك يربط بين الأرض السهلة وشدة الريح وبين وجود الطواحين الهوائية
التي اقامها الانسان لخدمته ، كما استخدم الريح لنقل الزمال من مكان الى مكان .

الافكار الجغرافية العامة عند أبي الفداء

ان ما ذكرته سابقا يمثل ام مميزات الفكر الجغرافي عند أبي الفداء ، ولكن الافكار
والآراء والملاحظات الجغرافية التي اثبتتها ابو الفداء في كتابه ذات قيمة كبيرة ، حتى
من وجهة نظر العصر الحاضر ولا يقلل من هذه القيمة ان ابا الفداء نقلها عن غيره ، لان
حسن اختيار المعلومات واثباتها في المواضع المناسبة لاستكمال وحدة الموضوع واعطاء
الصورة الملائمة واسلوب العرض الواضح السهل كلها امور تجعل ابا الفداء مولفا امثلا
في عصره .

وان تلك الافكار لجدها ماثوثة في مختلف اجاث الكتاب سواء في المقدمة التي
تشغل ٨٥ صفحة من مجموع الكتاب البالغة ٥٦٠ صفحة او في الاقاليم العرفية والجداول
التقويمية للاماكن الموجودة فيها . ونحن نورد نماذج منها :

١ - في موضوع كروية الارض (٢) : يورد ابو الفداء الشواهد المستقاة من علم
الهيئة (الفلك) فيذكر تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها في الشرق عنها في الغرب
(مما يدل على الاستدارة شرقاً وغرباً) اما استدارة الارض بين الشمال والجنوب فيذكر
الدليل عليها بارتفاع نجم القطب والكواكب الشمالية والمحطات الجنوبية منها بالنسبة
لواخلين نحو الشمال ، ويحدث العكس عندما تتجه نحو الجنوب . اما كون سطح الارض
مضرسا بالجبال والاعوار فيذكر ابو الفداء ان هذا التضريس لا يخرجها عن الاستدارة
ويقول « ان جبلا يرتفع نصف فرسخ (ميلا ونصف) يكون عند جملة الارض كخمس
سبع من عرض شعيرة (١/٣٥ منها) عند كرة قطرها ذراع » .

(١) المصدر السابق ص ٣٤١ .

(٢) تقويم البلدان ص ٣ .

٢ - اختلاف التوقيت على سطح الارض بين الشرق والغرب (١) : يقول ابو الفداء لو كان السير على جميع الارض ممكناً ثم فرض تفرق ثلاثة أشخاص من موضع بعينه ، فسار احدهم نحو المغرب والثاني نحو المشرق واقام الثالث حتى دار السائران دوراً من الارض (اي محيط الارض) ورجع السائر في الغرب اليه من جهة الشرق والسائر في الشرق من جهة الغرب ، نقص من الايام التي عدوها جميعاً للمغربي واحد وزاد للشرقي واحد . ويورد ابو الفداء البرهان على ذلك بوضوح فيقول : « لأن الذي سار الى الغرب ولنغرض انه دار الارض في سبعة ايام سار موافقاً لمسير الشمس فيتأخر غروبها عنه بمقدار سبع الدور (المحيط) بالتقريب وهو ما يسيره في كل يوم ، ففي سبعة ايام حصل له دور كامل وهو يوم بكامله ، والذي سار الى الشرق كان سيره مخالفاً لمسير الشمس فتغرب الشمس عنه قبل ان يصل الى سبع الدور فيجتمع من ذلك مقدار يوم فتزيد ايامه يوماً كاملاً ، فلو كان افتراقهم يوم الجمعة ثم حضر الى المقيم الجمعة الاخرى فانه يكون بالنسبة الى المقيم يوم الجمعة وبالنسبة الى المغربي الذي حضر من المشرق يوم الخميس وبالنسبة الى المشرقي الذي حضر من المغرب يوم السبت . وكذلك الحال لو فرضت هذه الصورة في الأشهر أو السنين (اي لو قطع محيط الارض في شهور أو في سنين) .

٣ - وجود فصلين اثنين (٢) لكل من الفصول الاربعة المعروفة (أي صيفان وخريفان وشتاءان وربيعان) في المناطق الواقعة بين المدارين تبعاً لحركة الشمس الظاهرية ، وتعادم الشمس مرتين في العام ، وهذا ما يجعل السنين والاختلاف بين الفصول في المنطقة الواقعة بين المدارين ضعيفاً .

٤ - موضوع تقسيم المعمورة الى سبعة أقاليم (٣) . ان مبدأ تقسيم المعمورة الى أقاليم سبعة هو تتابع الاقاليم عرضياً بالنسبة لأبي الفداء من نيف و ١٢ درجة شمال خط الاستواء الى نيف وخمسين درجة في شماله ، وان كل اقليم يقع تحت مدار (دائرة) تتشابه أحوال البقاع فيه وقد ركز أبو الفداء على زيادة الاختلاف نصف ساعة في طول الليل والنهار كلما انتقلنا شمالاً من اقليم الى آخر ، ولم يميز أبو الفداء اختلاف الاقاليم طولياً أي بين الشرق والغرب لأن هذا التمييز الاخير من ثمرات القرن

(١) المصدر السابق ص ٣ - ٤ .

(٢) تقويم البلدان ٦ - ٧

(٣) المصدر السابق ٧ - ١٣

التاسع عشر . ويمثل أبو الفداء اعتماداً على الاختلاف العرضي في التمييز بين الأقاليم ، بأن الأصل في الأقاليم هو الاختلافات المحسوسة بينها ، وأظهرها لعمامة الناس اختلاف الليل والنهار ، وعلى هذا فأقاليم أبي الفداء أشبه بالأقاليم الحرارية .

٥ - إشارة أبي الفداء الى وجود اتصال جنوب البر (الأفريقي) بين البحر المحيط الهندي (البحر الأعظم) وبحر أدقيا نوس المحيط الأطلسي ، وهو أمر لم يشته للعالم إلا عام ١٤٩٨ على يد قاسكو دو غاما عندما عبر رأس الرجاء الصالح .

٦ - يلتزم أبي الفداء حدود الأفكار الجغرافية عندما كان يناقش موضوع تغطية البحر لثلاثة أرباع المعمورة وكأنه يعي الحدود بين الجغرافية والفيزياء بعدم الخوض في تفاصيل التكافؤ بين الماء واليابسة (الصخور) لأن ذلك يدخل في أبحاث العناصر السقي تختص به الكتب الحكيمية (الفيزيائية) .

هناك اهتمام كبير بموضوعات النشاط البشري والاقتصادي وعلاقته بالشروط الطبيعية والمبادلات التجارية في ذلك العهد وبعضها يعتبر من الطرافة بمكان وتضرب أمثلة على ذلك .

آ - ما ورد في معرض الكلام عن طلوزة (١) (تولوز) وصاحبها الفرنجي قريب من صاحب فرنسة ، والنهر في جنوبها ، يصعد منه مراكب البحر المحيط بها بالقصدير والنحاس البذان بجلبسان من جزيرة انكلترة (بريطانيا) وجزيرة ايرلنده ، وتحمل على الظهر (أي على ظهور الدواب) الى زيونة (على البحر المتوسط) ومنها تحمل في مراكب الفرنجية الى الاسكندرية وقيمة هذا النص في أن نقل البضائع من غربي أوربة الى مناطق البحر المتوسط كان يتبع طريقاً مختصرة جداً لتتلاقى الدوران حول غرب وجنوب أسبانيا والمرور بمضيق جبل طارق .

ب - وما أورده أيضاً عن انكلترة (٢) قال : « وفي هذه الجزيرة معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير وليس فيها كروم لشدة الجمد وأهلها يحملون جواهر هذه المعادن الى بلاد افرنسة ويتعوضون به الخمر ، فصاحب فرنسة انما كثر الذهب والفضة عنده ، من ذلك ، وعندهم (أي عند الانكليز) يصنع الاشكرلاط العمال من صوف

(١) المصدر السابق ص ٢١٩

(٢) المصدر السابق ص ٨٨٠

غنمهم الذي هو ناعم كالحرير ، فيجعلون عليها (أي على الغنم) جلالاً تقيها من الأمطار والشمس والغبار .

ج - وما ذكره عن اعزاز (١) ومعظم تربتها أحمر فهي تفن النفس وأكثر ما يزرع فيها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبتة فيعم بلاد المغرب ، وقد خضبت أرضها بالفستق الكثير وقد خص بالثمر المعروف بالاجاص ماله نظير ولا يستطيعون بوصلته (كذا) إلى حلب لأنه يستحيل ماء في الطريق .

د - الإشارة إلى استصلاح سهل البقاع بتصريف بحيرة البقاع وكان ذلك هدفاً من أهداف الإصلاح الزراعي الراهن في لبنان . يقول أبي الغداء (٢) « بحيرة البقاع كانت غابة أقصاب وقس يعمل منه الحصر وسط البقاع البعلبكي بين كرك نوح عليه السلام وبين عين الجر ، وفي أيام الأمير سيف الدين تنكر اشتراها لنفسه من بيت المال وحفر بها أموراً كثيرة ترمي على ليطة - (الليطاني) حتى تصفي الماء من أراضيها وعمرت قرايا ما ينيف عن عشرين قرية وأقبلت غلاتها هي لا يوصف ولا يجده بطيخ وقشاه وحصل للناس نفع عظيم ومعاش ، ونصب في أولها غياص حور خشب وعمر طواحين ، والذي كان دله على ذلك علاء الدين بن صبح ، وكان من أهل تلك الناحية » .

هـ - وعلى عكس ذلك يذكر أبو الغداء موضوع حجوز الماء على بحيرة قدس وهي بحيرة حص (٣) : يقول أبو الغداء « طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة ، وسعتها طول السد حسباً فذكره ، وهي مصنوعة على نهر الارنط (العاصي) فإنه قد صنع في ظرف البحيرة الشمالي سد بالحجر من عمارة الاوائل ، وينسب إلى الاسكندر ، وعلى وسط السد المذكور برج من الحجر الاسود ، وطول السد شرقاً وغرباً الفأ ومايتان وسبعة ومائون ذراعاً وعرضه ثمانية عشر ذراعاً ونصف ذراع وهو حابس لذلك الماء العظيم بحيث لو خرب السد سأل الماء وهدمت البحيرة وصارت نهراً وهي في أرض مستوية » .

و - ومثال آخر عن الربط بين العوامل الطبيعية والظواهر البشرية ما قاله عن

(١) تقويم البلدان ص ٢٣٢

(٢) تقويم البلدان ص ٤٠

(٣) تقويم البلدان ص ٤٠

جرجان (١) (في شمالي إيران) من جل مترابطة تكون حقاقتها متوالية توالياً منطقياً او متوالدة توالداً سببياً يقول « وجرجان بلد كثير الامطار متصل الشتاء وفي وسطها نهر يجري ، وهي قريبة من البحر الخزر ، والجبال محتفة بها فهي سهلية جبلية ، يجتمع فيها فواكه الغور والنجد وبها من خشب الخليج (الخلنج) ما ليس في بلد آخر مثله . وشبهه بذلك ما ذكره عن ارجان (بين فارس وخوزستان) اي عربستان ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الخير ، وبها النخل والزيتون كثير وهي برية بحرية سهلية جبلية ، وهي عن البحر على مرحلة » . ومعنى ذلك وعي أبي الفداء بجمع بعض الاماكن صفات من اقاليم مختلفة فالنخل والزيتون يدل على الاقليمين الحار والمعتدل وكذلك الحال بالنسبة لتعبير سهلي جبلي .

٨ - ومن اطرف ما نقله أبو الفداء عن ابن سعيد في معرض كلامه عن الفرما (٢) على شاطئ البحر المتوسط « عند الفرما يقرب بحر الروم (المتوسط) من بحر القلزم (الاحمر) حتى يبقى بينها نحو سبعين ميلاً ، قال وكان عمرو بن العاص اراد ان يخرق ما بينها في مكان يعرف الى الآن بذب التماسح ، فنهاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال كانت الروم تتخطف الحجاج » ومعنى هذا القول وجود فكرة قديمة لثق قناة السويس ، وخطورة القناة على العرب من الناحية الاستراتيجية في رأي عمر بن الخطاب اذ خشى علي الحجاج من عبور الروم القناة براكبهم الى البحر الاحمر وتخطفهم للحجاج وقد تحققت مخاوف عمر من الافادة من القناة ضد العرب في احدث صورها عندما عبرت حاملة طائرات امريكية قبل يوم واحد من عدوان عام ١٩٦٧ قناة السويس ، والقمت مراسيها في البحر الاحمر وقدمت كل عون للدولة اليهودية في فلسطين في غزوها لاراضي مصر .

٩ - المصطلحات والمسميات : يستخدم ابو الفداء المصطلحات والمسميات التي كانت سائدة في عصره كما يستعمل تعبيرات جغرافية ليست عسيرة على الفهم . ونحن نورد ثبناً بأهمها في هذا البحث مع ما يقابلها من تعبيرات ومصطلحات حالية .

١٠ - مأخذ من كتاب أبي الفداء : آ - هناك اخطاء مبعثرة في مواضع عديدة نقلها ابو الفداء عن غيره دون ان يكشف عن خطئها كما فعل في مواضع اخرى ،

(١) تقويم البلدان ص ٤٣٨ - ٤٣٩

(٢) تقويم البلدان ص ١٠٦

وبعضها كان غير بعيد عن خبراته وطرق رحلاته كعدم التفريق بين جبال لبنان الشرقية والغربية . يقول ابو الفداء (١) جبل الثلج (اي جبل الشيخ) وجبل لبنان ، وجبل الكمام (اي جبال العلويين) جميع هذه الجبال متصلة بعضها ببعض حتى صارت جبلاً متداً من الجنوب الى الشمال فالطرف الجنوبي لهذا الجبل ، لقرب من صند (وهو موقع جبل عامل والجبل الشمالي) ثم ينقل ما قيل في رسم الارض لبطليموس « طرف جبل الثلج حيث الطول ٤٥ ٩٠ ٥° والعرض ٣٢° وهو يمتد الى الشمال ويتجاوز دمشق ويمر غربي بعلبك ويسمى الجبل المقابل لبعليك جبل لبنان ، واذا تجاوز بعلبك وصار شرقي طرابلس الشام يسمى جبل عكار الخ .. » يتضح من الكلام المذكور الخلط بين جبل الشيخ وجبال لبنان الغربية ثم الخلط بين جبال لبنان الشرقية والغربية وهذا امر مستغرب وروده عند ابى الفداء الذي لم يكن بعيداً عن تلك المواقع ونقل ما كتبه غيره دون تمحيص .

ومثال آخر على ماورد من اخطاء ، ما قاله عن نهر الهرماس (٢) (جفجغ) وذكره ان نهر الثرثار في الجزيرة العراقية يتشعب من نهر جفجغ قبل ان يصب هذا الاخير في الخابور ، ويلحقه بخطأ آخر وهو ان نهر الثرثار يصب في دجلة عند تكريت في العراق .

وفي حالات اخرى يقع ابو الفداء في الخطأ عندما يناقش بعض الحقائق في وجود بعض الحقائق مثل موضوع وجود الثلج على جبل القمر وهو احد جبال افريقية الشرقية الذي كان يعتقد ان النيل ينبع منها يقول ابو الفداء (٣) وهو جبل في الخراب الجنوبي وعرضه ١١ درجة جنوبي خط الاستواء ومنه ينابيع نيل مصر من عشر سيلات تنحدر منه ، قال النصير الطوسي في التذكرة انهم شاهدوه من بعد وهو ابيض من الثلج الذي عليه ، وهو عندي مستبعد فان عرض ١١ درجة في غاية الحرارة ويعتبر من عرض ١١ الشمالي وهو عرض عدن من اليمن فان وقوع الثلج في مثل عرض عدن لم يسمح به في زمن من الازمان والجانب الجنوبي مثل الشمالي بل اشد حرارة لخصيخ الشس . وعلى ذلك يأخذ ابو الفداء في اعتباره درجة العرض فقط دون ان يلتفت الى الارتفاع الشاهق

(١) تقويم البلدان ص ٦٨

(٢) تقويم البلدان ص ٥٢

(٣) تقويم البلدان ص ٦٠

(نحو ٥٠٠ متر) ، فمثل هذا الارتفاع غير موجود في منطقة عدن ، كما لم يلتفت إلى كثرة الرطوبة الذي يتولد منها المطر والثلج في جنوب خط الاستواء وهي لا توازت بما في منطقة عدن الصحراوية الجافة . كذلك اخذ في الاعتبار قرب الشمس من نصف الكرة الجنوبي (الحضيض) في رفع درجة الحرارة وهذا ليس له تأثير ملحوظ .

ومن اخطاء التسميات التي وقع فيها ابو الفداء اطلاقه اسم العرب على البدو الذين نسب إليهم خراب عدد من الاماكن ولاسيما في المغرب العربي (تونس) فقد اشار إلى ذلك مراراً في معرض كلامه عن القبروان وسوسة وبغزرت وطبرقة في تونس وسجلهاسة في المغرب الاقصى الخ ... وهذا ما وقع فيه ابن خلدون ايضاً .

ومن المآخذ على ابي الفداء رغم جهده التصديقي الضخم انه لم يضع الاماكن والظواهرات وفق ترتيب منطقي مناسب ، سواء في مقدمته العامة او في مقدمات الاقاليم العرفية ، فهو يقفز قفزات كبيرة بين مكان وآخر وظواهرات واخرى ، فمثلاً ينتقل من بحيرة كوري منبع النيل الى بحيرة سودان في المغرب الاقصى ، ومن نهر النيل الى نهر السوس الاقصى في المغرب ومن جزيرة قوصرة الى جزيرة مرمر اقرب القسطنطينية وحتى في الجداول ، اهمل ابو الفداء ترتيب الاماكن على اساس يجدي او جغرافي فهو مثل ينتقل في بلاد الشام من بيروت الى رسوس (كيليكيا) الى صيدا الى مصيصة (كيليكية) إلى طرابلس إلى اذرعات الى المرقب الى بعلبك الخ ...

خاتمة :

وأخيراً مما لا شك فيه ان كتاب تقويم البلدان قد ملأ فراغاً كبيراً في كونه مرجعاً جغرافياً مختصراً ومركزاً بالنسبة للعصر الذي وجد فيه سواء في المشرق العربي والاسلامي والغرب الأوربي في عصر اشتد الاقبال فيه على اكتشاف أطراف الأرض ، وقدم فيه معلومات تمثل خلاصة المعارف الجغرافية التي كالت سائدة قبله مضافاً إليها المعلومات المحصلة في عصره ، ولا نعتقد ان هناك كتاباً جغرافياً آخر كان يمكن ان يحل مكانه من تلك الزاوية ، وربما كان الشيء البارز الذي قصر فيه أبا الفداء عن متطلبات ذلك العصر على المستوى الدولي انه لم يقرن كتابه برسوم أو مصورات لتحديد المواقع والآفاق الجغرافية بصورة أفضل في الوقت الذي كانت تقام الانسان عبر البر والبحر يتسع شيئاً

فشيئاً ، ولا سيما وأنه كانت لدى أبي الفداء امكانيات لم تكن متاحة لسواه كحاكم متنقل .
ممتاز في بقعة من الشرق العربي كانت محط انظار العالم المأهول .

ومع ذلك ظل أبو الفداء عالماً من أعلام تلك البقعة تلقف كتابه الشرق والغرب .
على السواء كما ظل عنوان مدينة حماه وعلوها المرفوع الذي نسبت اليه ، وفي هذا دليل .
على امكانيات العطاء الثقافي الذي يمكن ان تقدمه أرض وطننا العربي عندما تجد الانسان
الذي يضع في خدمتها يده وعقله وقلبه ، فتحية لأبي الفداء العالم الانسان بمناسبة مرور
٧٠٠ عام ونيف على ولادته لما قدم لامته وللانسانية من ثمرات ، وتحية للتربة التي يرقد
فيها ، والمدينة التي رأى فيها النور والمدينة التي شهدت اغماضته الأخيرة .

أهم المراجع التي استند اليها هذا البحث :

- كتاب تقويم البلدان: تأليف - عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف .
بأبي الفداء صاحب حماة: النص العربي المنشور وفق مخطوطتي باريس وليدن بمساعدة
رينود والبارون مارك غوكين دي سالن - باريس ١٨٤٠ اعسادة طبع مكتبة المشفى
ببغداد والحاجي بمصر - المكتبة الظاهرية بدمشق .
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي: تأليف يوليا نوفيتش كراتشكوفسكي - طبعة:
لينينغراد ١٩٥٧ - القسم الأول .
- دائرة المعارف الاسلامية : دائرة المعارف الاسلامية - المجلد الاول (اصدان
مكتبة دار الشعب بمصر) .
- الجغرافية والرحلات عند العرب : تأليف الدكتور نقولا زيادة .
- اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم - للدكتور عبدالرحمن حميدة .
- معجم البلدان ، لياقوت الحموي دار صادر - دار بيروت المجلد الاول .

الجزء الاول .

مسميات ومصطلحات جغرافية وردت في

« تقويم البلدان »

المصطلح أو المسمى	ما يقابله في الوقت الحاضر
البطيخة	البحيرة
الكورة	المنطقة
منابر	اهراءات
البرية	البيادية
الفرصة	المرفأ
الزقاق	المضيق
بحيرة زغرا والبحيرة المنتنة	البحر الميت
بحيرة دمشق	بحيرة العتيبة
بحيرة قدس	بحيرة حمص أو قطيئة
بحيرة بانياس	بحيرة الحولة
الدور	المحيط
أنهار تقلب لها أو تقع فيها أو ترمي في الأرنط أو النهر المقلوب فوق انطاكية أو تحتها (على النهر)	أنهار تصب فيها أو ترفدها
جبل الفتح	نهر العاصمي
جبل الشاج	قبلها أو بعدها
جبل سنير	جبل طارق
جبل اللكام	جبل الشيخ
جبل الأرمن	جبل قلمون
جبل شحشبو	جبال الأهلولين
حف الجبل	جبال الأمانوس وطوروس
على سمت	جبل الزاوية
قاعدة	سفح الجبل
الهرماس	على مهاذاة (للطول أو العرض)
	عاصمة
	الخابور

مذكرات

أبي القداء

الدكتور نقولا زيادة

- ١ -

هذه الدراسة ليست تقييماً للكتاب المختصر في أخبار البشر ، وليست هي ترجمة المؤلف . ولكن الذي فعلناه هو أننا انترعنا من المختصر (وكل ذلك من الجزء الرابع من الطبعة الحسينية - القاهرة ، ١٣٢٥) مارواه أبو القداء كشاهد عيان ، وما ذكره على أنه اشترك فيه ، ومادونه على أنه سعى له . أي أننا حاولنا استخلاص ترجمته الذاتية من مؤلفه بالذات . وضمنا ذلك الى بعضه وجربنا ان نلقي بعض الضوء على شخصية أبي القداء كما صورها هو بنفسه .

ونود ان نلقت نظر القارئ الى ان الرجل لم يكتب سيرة ذاتية لنفسه ، على نحو مافعل ابن خلدون (التهريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا - القاهرة ، ١٩٥٠) . كما انه لم يدون مايصبح ان يسمى مذكرات ، على نحو مافعل اسامة ابن منقذ (كتاب الاعتبار ، برنستون ، ١٣٣٠) . بل ان ابا الفداء وضع هذا التاريخ المسمى المختصر ، فلما جاء الوقت الذي كان فيه معاصرا للاحداث أعطانا عنها صورة ، لكنه لم يعجم نفسه الا قليلا ، كما سنرى .

وإذا نحن أخذنا حياة ابي الفداء من المناحية السياسية والعسكرية اولا وجدنا انها يمكن ان تقسم الى فترات ثلاث رئيسية . الاولى تمتد الى سنة ٦٩٨ / ١٢٩٨ وهي سنة وفاة الملك المظفر محمود . والثانية تمتد من تلك السنة الى سنة ٧١٠ / ١٣١٠ وهي الفترة التي كانت حماة خارجة عن البيت الايوبي التقوي ، لما كان يحكمها نواب يعينهم السلطان المملوكي . اما الفترة الثالثة فتقع بين سنتي ٧١٠ و ٧٢٢ (١٣١٠ - ١٣٣١) وهي المدة التي عادت حماة الى البيت الايوبي التقوي في شخص مؤلف المختصر .

في الفترة الاولى نجد المؤلف يشير الى انه ليسه التشاريف لما انعم السلطان المملوكي المنصور قلاوون (الالفي) على المظفر تقي الدين محمود بأن يلي أمور حماة بعد وفاة ابيه المنصور ناصر الدين احمد في سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤ (ص ١٩) . ثم يتحدث عن فتح المرقب ٦٨٤ / ١٢٨٥ ويقول عنه انه اول قتال حضره وكان عمره نحو اثنتي عشرة سنة وكان مع والده الملك الأفضل (ص ٢١) ، كما أنه كان بعد ذلك في فتح طرابلس سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ وكان بصحبة والده وابن عمه الملك المظفر صاحب حماة (ص ٢٣) . ولما اشترك في عكا سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ كان قد اصبح أمير عشرة ، ولذلك سلم عجة واحدة من المنجنيق العظيم (ص ٢٤) . والمؤلف حريص على أن يؤكد على انه حضر او شاهد حصارا بعينه دائما . من ذلك فتح قلعة الروم ٦٧١ / ١٢٩١ (ص ٢٧) . وفي سنة ٦٩٢ / ١٢٩٢ أعطى الملك المظفر ابن عمه ابا الفداء امره طبليخانة ، فأصبح تحت امرته أربعمون فارسا (ص ٢١) . وكان لأبي الفداء دور في فتوح بلاد سيس أي بلاد الارمن ٦٩٧ / ١٢٩٨ (ص ٣٥ - ٣٧) . وفي هذه الحملات جميعها كان ابا الفداء يسير بأمر من ابن عمه الملك المظفر .

وبوفاة الملك المظفر ٦٩٨ / ١٢٩٨ (٤١) خرجت حماة عن البيت التقوي الايوبي (ص ٤١ - ٤٢) . ويقول ابو الفداء « وكان الامير صارم الدين اربك ...

حاضرا وفاته . واما اخو اي اسد الدين عمر وبدر الدين حسن ابنا الملك الافضل فاتهما حضرا الى حماة من حلب بعد وفاة الملك المظفر . ولما اجتمع المذكورون اختلفوا فيمن يكون صاحب حماة ، ولم ينتظم في ذلك حال « (ص ٤١ - ٤٢) . وهذه قضية ، اي الاختلاف فيما يكون صاحب حماة ، كنا نحب لو ان المؤلف حدثنا عنها بالتفصيل . فالواضح ان الملك المظفر لم يعقب فيخلقه ابنه على ما كانت عليه الحال من قيام سلطة البيت التقوى الايوني بحماة . وكان الملك الافضل ، ابو ابي الفداء وعم الملك المظفر ، قد توفي سنة ١٢٩٣/٦٩٢ (ص ٢٩) . وبذلك انتقل الحق في حماة الى ابناء عم الملك المظفر الثلاثة (ابي الفداء وعمر وحسن) . فاختلف الحاضرون فيما بينهم . فعلم كان الخلاف ؟ يقول ابو الفداء ان السلطان اعطى قراسنقر نيابة حماة فهل يعود ذلك ان الملك الناصر قلاوون ، الذي بدأ في تلك السنة سلطنته الثانية ، كان يود الحصول على تأييد قراسنقر فنقله من الصبيبية الى حماة ؟ (ص ٤٢) .

وعلى كل فان ابا الفداء يضيف الى ذلك قوله « و نزل [قراسنقر] بدار الملك المظفر صاحب حماة ، وقمنا بوظائف خدمته ، واخذ من تركه صاحب حماة ومنا اشياء كثيرة حتى اصحف بنا . ووصلت المناشير من مصر الى امراء حماة وجندها باستقرارهم على ما بأيديهم من الاقطاعات ، فاستمرينا على ما كان بأيدينا (ص ٤٢) ولكن السلطان رسم في السنة نفسها بزيادة اقطاع ابي الفداء واخيه بدر الدين حسن فزيدا نقداً وذلك لما حصل ابو الفداء قماشاً وخيلاً من اخويه ومن قراسنقر الى السلطان وهو معقم بغزة (ص ٤٢) .

- ٢ -

هنا تبدأ الفترة الثانية في حياة ابي الفداء . ويبدو لنا الرجل حريصاً الحرص كله على أن تعود حماة الى البيت التقوى الايوني وعلى ان يتم ذلك بشخصه . فنجده يرسل يعرض على الآراء الشريفة السلطانية اقامته بحماة على قاعدة أصحابها من أهله ، وذلك لما توفي نائبا كتبها سنة ١٣٠٢/٧٠٢ (ص ٤٩ - ٥٠) . ولما وصل النائب الجديد ، قبجق سنة ١٣٠٣/٧٠٣ ، خرج الجبجج الى ملاقاته وعملوا له الضيافات وقدموا له التعاد .

وثمة عبارة من العبارات الغامضة التي يذكرها ابو الفداء حول قضية حماة وهي

[٧٠٩ / ١٣٠٩] في يوم الاربعاء خامس ذي الحجة حضر مهنا بن عيسى الى حمة وطلب توفيق الحال بيني وبين أخي بسبب حمة فلم يتفق حال (ص ٥٩) . فعلى أي شيء كان الخلاف وأي من الاخوين اختلف مع ابي القداء ؟

وعين اسندمر نائباً للسلطنة بحمة ، وتجاهل السلطان البيت التقوى الايوي . ويبدو ان السلطان الناصر محمد كان يتم بارضاء اسندمر بحيث انه لما أعاد السلطان حماه الى البيت التقوى في شخص ابي القداء وجعل اسندمر نائباً بالسواحل لم يجب الأخير الى ذلك . ولكن الذي حل المشكلة هو وفاة قبحق الذي كان نائباً بحلب (بعد حمة) فعين اسندمر في حلب (ص ٦٠) .

ويبدو ان ابا القداء قد تضايق من نواب السلطنة بحمة الى حد انه استأذن السلطان في الخروج من حمة والاستقرار بدمشق (ص ٥٩) .

وجدير بالذكر ان اكبر المعارك الحربية التي اصابته الشام بسبب هجوم التتار سنة ٧٠٢ / ١٣٠٢ وقعت في هذه الفترة التي كان فيها ابو القداء يسعى جاهداً لتملك حمة (ص ٤٨ - ٤٩) . ومن الطبيعي ان يأتمر ابو القداء بأمر نواب السلطنة . ولذلك فأننا نجد التعبير الذي يستعمله هو « جردوني » او « جردت » للقتال .

وفي سنة ٧١٠ / ١٣١٠ عادت حمة الى البيت التقوى الايوي ، في شخص ابي القداء الذي اصبح يلقب الملك المؤيد ، وظلت على ذلك الى حين وفاة المؤلف سنة ٧٣٣ / ١٣٣١ .

على اننا يتوجب علينا ان نتذكر ان ابا القداء حكم حمة على ثلاث درجات متفاوتة في السلطة ومتدرجة نحو الارتفاع .

أما أولها فجماعات سنة ٧١٠ / ١٣١٠ اذ أعطي حمة على قاعدة النواب (ص ٦٠) أي ان ابا القداء كان مجرد نائب للسلطان يحكم في حمة على الطريقة ذاتها التي كان يحكم بها أي نائب في النيابات الضعيفة نسبياً ، اذا قيس الامر بدمشق أو حلب . وكان ابو القداء في هذه الحالة مجرد معسكر حمة كما يجرد النواب أمثاله (ص ٦٦) . وقد كانت أبو القداء في مضر لما صدرت ارادة السلطان الملك الناصر محمد في رفعه الى المرتبة التالية فأعطيت حمة له في هذه المرة تمليكا وذلك سنة ٧١٢ / ١٣١٢ (ص ٦٨) . وكان أبو القداء ، على ما يبدو من روايته (ص ٦٩) يتخوف من وجود الماليك في حمة لأنهم استجدوا فيها لما خرجت من البيت التقوى الايوي ، فرأى السلطان ان يخرجوا

منها الى حلب ، وصدر اليهم مرسوم بمعنى ذلك ، فخرجوا قبل وصوله بأيام (ص ٦٩) .
 وزاد السلطان على ذلك ان أكد للملك المؤيد اني القداء في السنة التالية ان حماة وبارين
 (وقد اخرجت المعرفة من دائرة سلطته ارضاء للمالك المقيمين بحلب ص ٧١) انفصلت
 عن الممالك الشريفة السلطانية (ص ٧٢) . ونص المرسوم الشريف على ذلك اذ جاء فيه
 ان الملك المؤيد « يتصرف في الجميع كيف شاء من تولية واقطاع اقطاعات الأمراء
 والجنود وغيرهم من المستخدمين من ارباب الوظائف وترتيب القضاة والخطباء... وبكتب
 بذلك مناشير وتواقيع من جهته » (ص ٧٢) . ولاشك ان هذه الدرجة كانت تثبتاً
 لتولية حماة تليها . ففي المرسوم توضيح لما سبق ،

وجاءت الخطوة الثالثة او الدرجة الثالثة سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ لما تقدم مرسوم
 السلطان بارسال شعار السلطنة الى ابي القداء وكان يومها في مصر ايضاً (ص ٨٧) .
 ولعل سلطة الملك المؤيد لم تزد الان عما كانت عليه قبل ذلك ، ولكن التكريم
 والتشريف واضحا .

وحرى بالذكر ان كلا من هذه الدرجات الثلاث - قاعدة الثواب والتعميل
 والسلطنة - كان يرافقها ان يخلع السلطان على ابي القداء خلعة تزداد ابهة وفخامة عن
 سابقتها (ص ٦٠ و ٦٨ - ٦٩ و ٨٧) ، ويرافق ذلك مرسوم يوضح ماتم ، كما ان
 الالقب التي تستعمل في المرسوم كانت تختلف تبعا لذلك (الصفحات نفسها) .

ومع ذلك فبان الملك المؤيد لا يورد مناسبات اجري فيها تقييرات جذرية في
 الاقطاعات أو الوظائف . والمناسبات التي عثرنا عليها هي (١) ان السلطان تصدق على
 محمد بن الملك المؤيد بامرته مع خلقه وجعل له سنتين فارساً لخدمته وكان ذلك سنة
 ٧٢٠ / ١٣٢٠ (ص ٨٨) . (٢) في سنة ٧٢٦ / ١٣٢٥ توفي حسن بدر الدين اخو
 الملك المؤيد فأعطى هذا امرته لابنه الطفل (ص ٩٥) . (٣) في سنة ٧٢٦ / ١٣٢٥
 خرج الملك المؤيد بعسكر حماة ووصل إلى القنطرة الواصلة من سلمية الى حماة وقسمها على
 الأمراء والعسكر لينظفوها فحرروها في نحو اسبوع (ص ٩٤) .

وظل الملك المؤيد ، بطبيعة الحال ، يشترك في المعارك والحروب الملوكية مثل
 فتوح ملطية ٧١٥/١٣١٥ (ص ٧٤) وفتوح سيس الثانية ٧٢٠/١٣٢٠ (ص ٨٨)
 وفتح اياس ٧٢٢/١٣٢٢ (ص ٩١) .

وحرى بالذكر ان الملك المؤيد كان شديد العناية بوصف الحروب والمعارك ،

يروى اخبارها بايجاز ولكن بوضوح . (راجع مثلاً فتح المرقب ص ٢١ ، وطرابلس ص ٢٣ ، وعكا ص ٢٤ ، ٢٥ ، وبلاد سويس ص ٣٥-٣٧ والمعارك مع التتار ص ٤٨ - ٥٠) .

كانت زيارات الملك المؤيد ابي الفداء الى البلاط السلطاني كثيرة . ولعل الزيارة الاولى التي كانت ذات شأن هي التي زار فيها القاهرة سنة ١٣٠٩/٧٠٩ وذلك في محاولة لاستعادة حماة . وقد عاد ابو الفداء وهو مطمئن الى وعد السلطان الناصر محمد بأن يفي له بوعده « وانما آخر ذلك لما بين يديه من المهات والاشغال المعوقة عن ذلك » (ص ٥٨) . وقد وفى السلطان فعلاً بوعده فاعاد حماة الى البيت الايوبي التقوى .

وبعد ذلك ، والمدة التي تولى فيها الملك المؤيد حماة تقع اثناء السلطنة الثالثة للملك الناصر محمد (٧٠٩ - ٧٤٠ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠) ، زار أبو الفداء البلاط السلطاني ست مرات في السنوات ٧١٢ / ١٣١٢ (ص ٦٧) و ٧١٦ / ١٣١٦ (ص ٧٨) و ٧١٨ / ١٣١٨ (ص ٨٣) و ٧١٩ - ٢٠ / ١٣١٩ - ٢٠ (ص ٨٤) و ٧٢٤ / ١٣٢٣ (ص ٩٣) و ٧٢٧ / ١٣٢٦ (ص ٩٦ - ٩٧) . هذا بالإضافة الى زيارة لخيم السلطان في حسيان شمالي الكرك في سنة ٧١٧ / ١٣١٧ . وفي اثناء زيارته لمصر سنة ٧١٨ / ١٣١٨ زار الاسكندرية في حراسة بالنيل (ص ٨٣) . والذي يلفت النظر ان أبا الفداء لم يتحدث عن هذه الزيارات بتفصيل الا عندما يريد ان يبرز منزلته عند السلطان فيذكر الصدقات وكمياتها مالا أو خيلاً أو قماشاً ، ويصف الخلع وصفاً دقيقاً خاصة عندما كانت مرتبطة بالمنصب الذي يولاه ويورد موجزاً للرسوم الشريف ويعدد أفضال السلطان عليه من حيث الإقامة في القاهرة او ترتيب الاقامات في الطريق (ص ٧٨) او اصحابه للصيد (ص ٨٨ و ٩٣) ، او الاحتفاء الذي لقيه عند حصوله على منصب خاص مثل الاحتفال بسلطنته (ص ٨٧) . ولكن البلد الذي يزوره والطريق الذي يجتازه لا ينال من اهتمامه شيئاً (الا ما ندر على ما سنذكره) . فهو رجل يذهب الى القاهرة اما مستأذناً بالزيارة او مطلوباً لها ، وفي الحالتين يتحدثنا عن الناحية الرسمية اذا جاز التعبير . والمؤلف يذكر الهدايا التي كان يحملها معه الى السلطان بدقة — هذا اذا لم يسافر على البريد ، كما ان أبا الفداء ادى فريضة الحج ثلاث مرات في سنة ٧٠٣ / ١٣٠٣ (ص ٥١) وسنة ٧١٣ / ١٣١٣ (ص ٧٣ - ٧٤) وسنة ٧١٩ ^٥ / ١٣١٩ (ص ٤٤ - ٤٥) . وقد كان حجه في المرتين الاوليين القيام بالفرض بصورة خاصة . اما حجه

سنة ٧١٩ فقد كان بصحبة السلطان . لذلك نراه يصف هذه الحجة بشيء من التفصيل وذلك ليظهر ان الناصر قد واظب « في جميع اوقات المناسك بحيث ان السلطان حافظ على الاركان والواجبات والسنن محافظة لم أرها من احد » (ص ٨٦) . ويصف ابو الفداء جزيل صدقات السلطان وانعامه في هذه الحجة ما لم اقدر ان احصره ، وانما اذكر نبذة منه : وهو انه سار في خدمته ما يزيد عن ستين امير اصحاب طبخانات ، وكان لكل منهم في كل يوم في الذهاب والاياب ما يكفيه من علف الخيل والماء والحلوى والسكر ما يناسب ذلك . وكان في جملة الصحبة الشريفه اربعون رجلاً تحمل محابر الخضراوات مزروعة ، وكان في كل منزلة يحصد من تلك الخضراوات ما يقدم صحبة الطعام بين يديه . وفرق في منزلة رابع على جميع من في الصحبة من الامراء والاجناد وغيرهم رجلاً عظيمة من الدرهم بحيث كان اقل نصيب فرق في الاجناد ثلاثمائة درم وما فوق ذلك الى خمسمائة درم . ونصيب امراء العشرات ثلاثة آلاف درم « (ص ٨٦) . فالوصف المفصل في واقع الامر لم يكن للمحمل المصري او مكة المكرمة او المدينة المنورة ، لكنه كان يدور حول السلطان وعماله ومواظبته على الاركان والواجبات وكرمه وصدقاته .

ولعل خير ما يوضح موقف أبي الفداء من اقصاء شخصيته بالمره عن ذكر الاحداث والمجريات هو ذكره اخبار الموت بالنسبة الى اناس تربطه بهم وشائج القرى أو الصداقة فنحن نجد عند أبي الفداء عشر اشارات الى وفيات من هذا النوع هي :

- ١ - وفاة الملك المنصور ٦٨٣/١٢٨٤ (ص ١٨)
- ٢ - وفاة أبيه الملك الافضل ٦٩٢/١٢٩٢ (ص ٢٩)
- ٣ - وفاة القاضي ابن واصل ٦٩٧/١٢٩٧ (ص ٣٨)
- ٤ - وفاة الملك المظفر ٦٩٨/١٢٩٨ (ص ٤١)
- ٥ - وفاة عمته خاتون ٧٠٣/١٣٠٣
- ٦ - وفاة مملوكه طيدمر ٧٥٦/١٣٢٥ (ص ٩٤)
- ٧ - وفاة أخيه بدر الدين حسن ٧٢٦/١٣٢٥ (ص ٩٥)
- ٨ - وفاة ابن أخيه أسد الدين عمر ٧٢٦/١٣٢٥ (ص ٩٥)
- ٩ - وفاة والدته ٧٢٧/١٣٣٦ (ص ٩٨)
- ١٠ - وفاة مملوكه اسنبقا ٧٢٨/١٣٢٧ (ص ٩٩)

وعلى ما بين هؤلاء وأبي الفداء من صلة القرابة أو الصداقة أو التلمذة (ابن واصل) فلا نجد أن أبا الفداء يشير ، لو من طرف خفي ، الى تفجع ، باستثناء اشارة واحدة الى ملوكة طيدمر اذ قال « جرى على لفقده أمر عظيم » (ص ٩٤) . والواقع ان ذكره لأخبار هؤلاء في هذه المناسبات تكاد تذكرنا بما يصدر عن المحافل الرسمية من بلاغات يشار فيها الى انتقال شخص ما الى رحمة الله . حتى وفاة أبيه وأمه لا تترك أثراً ظاهراً في الكتاب . طبعاً هذا لا يعني أن أبا الفداء لم يجزع لفقده هؤلاء أو بعضهم ، لكننا لا نجد هذا في روايته ، وهذا ما كنا نحب لو أنه ذكره ، اعلنا نستطيع ان نلصق الناحية الانسانية الشخصية في هذا العالم الكبير . صحيح أن أبا الفداء يذكر في بضع من هذه الحالات اسباب الوفاة المرضية . المنصور توفي بسذات الجذب (ص ١٨) والمظفر بسبب نثق الحمار (ص ٤١) وطيدمر توفي بالنسل (ص ٩٤) وأخوه بدر الدين أصيب بحمى بلغمية (ص ٩٥) . ولكن أبا الفداء العارف بأمر الطب لا يشفي غليلنا باعطائنا وصفاً دقيقة للأمراض والعلاج .

وكم كنا نحب لو أن أبا الفداء ، وهو بالاضافة الى كونه مؤرخاً كان جغرافياً ، وصف لنا الأمكنة والناس . فهو ، فضلاً عن كونه زار القاهرة والاسكندرية وأماكن أخرى في ديار الشام والاماكن القدسية في الحجاز ، فانه زار القدس والخليل مرتين في سنة ٧١٦ / ١٣١٦ (ص ٧٩) وفي سنة ٧٢٧ / ١٣٣٦ (ص ٩٨) . ولكن المؤلف لا يذكر شيئاً البتة عن المزارات والمسجد الاقصى وقبة الصخرة . ووددنا لو ان صاحب هذا التاريخ زودنا بوصف لهاتين الجوهريتين الرائعتين من الفن العربي الاسلامي .

على اننا نقع في المختصر على امور طريفة فيها فائدة . ولا بد انها اثرت على ابي الفداء حتى انه اوردها ، منها ذكره ان المسافة بين حصن الاكراد وعكا التي يحتاج قطعها الى ثمانية ايام قطعت سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ في شهر وذلك بسبب الامطار والحوول (ص ٢٤) . ومنها ان ابا الفداء اجتاز المسافة من حماة الى مصر في ثمانية ايام على البريد وذلك سنة ٦٩٢ / ١٢٩٣ (ص ٢٨) وفي سنة ٧١٩ / ١٣١٩ احتاج الى ثمانية ايام او تسعة (ص ٨٥) . اما المسافة من مكة الى حماة فقد استغرق قطعها على المهجن الى اثنين وعشرين يوماً في سنة ٧١٤ / ١٣١٤ (ص ٧٣) .

ويجدتنا أبو الفداء عن مظاهر مناخية خاصة . ففي سنة ٦٩٧ / ١٢٩٨ (ص ٣٥) وسنة ٧١٢ / ١٣١٢ (ص ٧٠ - ٧١) وسنة ٧١٦ / ١٣١٦ (ص ٧٨) وسنة

١٣٢٥/٧٢٦ (ص ٦٥) سقطت امطار غزيرة احدثت خسائر كبيرة . وفي سنة ١٣١٦/٧١٦ في ثاني يوم عيد الفطر الموافق لتاسع عشر كانون الاول « وقع بجهاة والبلاد التي حواليتها تلوج عظيمة ودامت أياماً . وبقي على الارض نصف ذراع ودام على الارض أياماً ، وانقطعت الطرق بسببه وكان ثلجاً لم اعهد مثله وكان البرد والجليد شديداً عاماً في البلاد، حتى جلد الماء بالديار المصرية ووقعت الثلوج بالاذقية والسواحل » (ص ٨٠) . ويذكر السنة الحمرا (٧٢٣ - ٧٢٤/٧٢٤ - ١٣٢٢ - ١٣٢٣ فيقول فيها جذبت الارض بالشام من دمشق الى حلب وانحبس المطر ولم ينبت شيء من المزروعات الا القليل النادر . واستسقى الناس في هذه البلاد فلم يسقوا . (ص ٩٢) .

ولعل أطرف مارواه ابو القداء هو خبر موت الملك المظفر بسبب نثق الحصار (ص ٤١ ، فليرجع اليه) .

(٤)

يبدو أبو القداء ، من خلال الاشارات والابخار المتعلقة به ، انه حافظ على الموضوعية في كتابته ، فلم يقحم نفسه او شخصيته في الاحداث الا على أقل درجة ممكنة . فقد ظل مؤرخاً موضوعياً رسمياً . وكون الرجل لم يتفجع لفقده احبائه واصدقائه لايهني انه لم يكن لهؤلاء الناس عاطفة ، ولكنه لا يظهرها في كتابه .

كان طموح ابي القداء الاول والاهم أن يعيد حماة الى البيت التقوى الايوبي . وقد تم له ذلك ، فكان من الطبيعي ان يحافظ على ذلك وان يساير السلطان ويتجنب الصدام مع امراء المماليك القريبين منه . فهو لم يثر لان المعرة انزعت منه مرتين الاولى في سنة ١٣١٣/٧١٣ (ص ٧٢) والثانية في سنة ١٣١٦/٧١٦ وكانت قد اعيدت اليه في تلك السنة ذاتها (ص ٨٠) . بل نجد انه يكاد يمتدح عن عمل السلطان في الحالتين كما انه يقلل ، دون تدمير ، تأخر السلطان في اعادتها اليه في سنة ١٣١٠/٧١٠ (ص ٦٠) ويذكر ان ذلك كان امراً واقعياً .

ولما كان أبو القداء يطالب بجهاة على اساس من الشرعية كان مقتنعاً به ، فاننا نجده يدافع عن الشرعية دائماً . فروايتته عن اغتصاب الناصر قليج لحماة في غياب المظفر تقي الدين محمود سنة ١٢٢٠/٦١٧ (ج ٣ ص ١٢٦) وعودة المظفر اليها سنة

١٢٨/٦٢٦ (ج ٣ ص ١٣٣) فيها ما يدل على تمسكه بالشرعية ، كذلك فاذننا نجده
يعتبر عمل العادل كتبها سنة ١٢٩٥/٦٩٤ (ج ٤ ص ٣١) والمظفر بيبرس الجاشنكير
سنة ١٣٠٨/٧٠٨ - ١٣٠٩ (ج ٤ ص ٥٤) اعتداء على الحاكم الشرعي الناصر محمد
ابن قلاوون . كما انه رأى في عودة الناصر الى الحكم في سلطنته الثانية (بعد كتبها ج
٤ ص ٤٠) وفي سلطنته الثالثة (بعد بيبرس الجاشنكير (ج ٤ ص ٥٦ - ٥٨) عودة
الى الشرعية . وقد فرح بهذه العودة ، دون ان يبين ذلك في كتابته ، لأن الناصر هو
الذي أعاد حياة الى الملك المؤيد ابي القداء اسماعيل بوصفه الوارث للملك المظفر الذي
توفي سنة ١٢٩٨/٦٩٨ (ج ٤ ص ٤١ - ٤٢) .

يصدر قريباً

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الزيني بوكات

رواية

جمال الفيضاني

جماء ونعصر

أبي الفداء

احسان العظم

التعريف بأبي الفداء :

هو الملك العادل الفاضل المجاهد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر الثاني محمود بن الملك المنصور الأول محمد بن الملك المظفر الأول تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، ولد بتاريخ جمادى الأولى سنة ٥٦٧٢ هـ .
 ١٢٧٣ م بدار الزنجيلي بدمشق ، وكان أهل قد جقلوا من جماء بسبب القزو المغولي .
 ولشهرته بأبي الفداء لقب كثير من الأدباء والفقهاء بهذا اللقب أشهرهم مايلي :

المعرفة م- ١١

- ١ - الشيخ رشيد أبو الفداء اسماعيل : فقيه حنفي من أعلام الفقهاء والمفتين توفي سنة ٧٢٤ هـ ودفن بصر بمقبرة القرافة وكان قد ولد بدمشق والمعروف بأبن المعلم .
- ٢ - الحافظ أبو الفداء : اسماعيل بن شهاب الدين بن عمر بن كثير : المحدث والمفسر والمؤرخ له التفسير والبداية والنهاية في التاريخ المتوفي سنة ٥٧٧٤ هـ .
- ٣ - أبو الفداء اسماعيل بن محمد بن بردس البعلبكي عماد الدين من علماء الحديث ولد سنة ٧٢٠ هـ توفي سنة ٧٨٦ هـ .
- ٤ - سامي بن محمود السراج : لقب نفسه بأبي الفداء وهو الكاتب والمجاهد الكبير كان يوقع مقالاته في الصحف المصرية والفلسطينية والسورية والعراقية بهذا اللقب ولد وتوفي بحماه سنة ١٩٦٠ .
- ٥ - هناك جبل من جبال القمر يسمى (أبو الفداء) ذكره بطرس البستاني في دائرة معارفه ويقول كراتشكوفسكي في الأذب الجغرافي بتعريف هذه الجبال : جبال القمر التي تلتج عنها عيون نيل مصر وفي سلوكه غرر لانتجو منه سفينة .
هذا وقد نسبت حماه الى ملكها أبي الفداء اذ نجد أغلب المؤلفين عندما ينقلون عن أبي الفداء أخباراً يقولون قال صاحب حماه كلاً سنوي في طبقاته وابن كثير في البداية والنهاية والقلقشندي في صبح الاغشى ولشجرة أبي الفداء نسب الدكتور عبدالرحمن الرافعي في كتابه « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » أبا الفداء الى مصر اذ يقول : أبو الفداء المؤرخ والجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان من علماء مصر . وهذا وم واضح .

التعريف بمدينة حماه :

بناها الآراميون في سنة ٢١٠٠ ق م مع مدينة بعلبك قبل عصر التاريخ الذي يعرف بعصر الكتابة .

معنى حماه

حماه تعني قلعة أو حصناً وفي اللغات الشرقية يسمى الحصن « حمامات » ويذهب يزيغفون أن حماه سميت باسم بانها « حمت بن كنعان » وهناك ظن آخر أن حماه هو الابن الحادي عشر لأولاد كنعان ويذهب أنقولت الى أن تسميتها أتت من اسم اول ملك آرامي لما يدعى حماه .

حات حمان في اللغة الآرامية بمعنى واحد اذ « ت » و « ث » من نفس المخرج فاختصت حماه في الأولى واختصت حمص « حث » في الثانية اذا كان يطلق عليها صوبة حماه . « الآداب السامية - محمد عطيه الأبرشي » .

هل سميت مدينة غيرها من المدن باسمها ؟ يذهب رولنسون أن مدينة « هيت » الواقعة على شطף الفرات كان يطلق عليها اسم حماه وقد ذكرت في سفر الملوك وكذا اطلق على مدينة « زبلة » الواقعة على الحدود اللبنانية اسم حماه وكذا كان يطلق على مدينة أزيلت من عالم الوجود اسم صوبة حماه وقد دعاها عاموس في سفره حماه العظيمة وعاموس هذا عاش في سنة ٨٠٠ ق. م .

هل طرأ تغيير على اسم هذه المدينة ؟ نعم فقد اطلق عليها في زمن السلوقيين اسم ابيفانيا باسم انطونيوس ابيفانس الملك السلوقي الذي تولى الملك من سنة ١٧٥ - ١٦٤ ق. م. ولكن اسمها لم يختلف بل رجعت الى اسمها القديم حماه وذلك في أيام خلفه جيروم .

وسميت حماه « مدينة أبي الفداء » اذ في سنة ١٩٢٢م تأسس في حماه النادي الأدبي ضم نخبة من أدباء حماه ومفكرها وكان يبذل جهداً كبيراً لاذكاء الروح الوطنية ويعاني في بث الروح العلمية باستعادة ذكريات ملوكها الأبطال فلم يجد أجود من ملكها أبي الفداء فعلم على تدشين مرقده ودعا الى ذلك رهطاً من الأدباء والخطباء ووصل من مصر شيخ العربية أحمد زكي باشا والدكتور محبوب ثابت وقد أقيم احتفال كبير بهذه المناسبة في شهر تموز سنة ١٩٢٥ م . فمر على حماه اسبوع كان عيداً قومياً وفرصة لمناسبة سياسية للتعبير عن الآلام التي تجيش في نفس كل مواطن واشترك الحمويون بالتبرعات واحتفل بافتتاح مجيد المرقد ومنذ ذلك الحين اطلق على مدينة حماه اسم مدينة أبي الفداء وعلى الشارع الآخذ الى المرقد اسم شارع أبي الفداء .

وصف حماه :

نكتفي هنا بما أورده أبو الفداء ملكها عن وصفها متجاوزين عما قاله فيها المؤرخون والرحالة كأمثال ياقوت الحموي وابن سعيد الأندلسي وابن جبير وابن بطوطة . قال أبو الفداء :

حماه من الشام مدينة أزرية ولها ذكر في كتب الاميراثيليين وهي من أزره البلاد الشامية ، والعاصي يستدير على غاليتها من شرفيتها وشماليتها ، ولها قلعة حسنة البناء

مرتفعة ، وفي داخلها الأرحية على الماء وبها نواعير على العاصي تسقي أكثر بساتينها ، ويدخل منها الماء الى كثير من دورها .

ومما قاله فيها أيضاً : حماه على ضفة العاصي وبها قلعة مبنية بالحجارة الملوثة ، وبها نواعير مركبة على العاصي تدور بجران الماء ويرتفع الماء الى الدور السلطانية ، والأمراء والأكابر والبساتين ، وفي بساتينها القراس الفائق والثار الغريبة ، وهي في غاية رفاهية العيش، وحوطها مروج فيسح ممتدة يكثر فيها صيد الطير والوحش ، وليس في الممالك الشامية بعد دمشق بها نظير .

وضع المدينة في زمن ابي الفداء : كانت حماه مقسمة الى قسمين في محلة باب الجسر وقسم في المدينة ولاارتفاع المدينة عن باب الجسر كانت تسمى القمم الأعلى وسوقها السوق الأعلى وكذا جامعها كان يسمى الجامع الأعلى وكان بنيان محلة المدينة أوسع وأعظم وأسواقها حافلة أكثر من أسواق محلة باب الجسر وكانت جامعة للصنائع الضرورية وكان بين القسمين طريق من وراء القلعة في البستان السقي تسمى الآن بستان الخضر « الخضورة » .

وكانت المدينة (القمم الأعلى) مسورة بسور من الحجر الأبيض عظيم يمتد الى تل العريصة وله أبواب عدة :

باب الغربي : وسمي بالغربي لوقوعه في القمم الغربي من السور في أرض العشر وقد ذكره ابو الفداء في حوادث سنقي ٩٥٧ هـ و ٥٩٨ هـ .

باب المغارة : يقع في القمم الغربي من المدينة (الجراجة) أورد ذكره أبو الفداء أيضاً في حوادث سنة ٦٢٦ هـ وقد ذكرته سجلات المحكمة الشرعية في حماه ٩٦٩ هـ .

باب النهر : سمي بهذا الاسم للخروج منه الى نهر العاصي في محلة المدينة .

باب القبلي : في جنوبي السور ذكره ابو الفداء في حوادث سنة ٦٩٧ هـ .

باب العميان : سمي بهذا الاسم لكثرة خروج العميان إلى سوق المنصورية (حالياً سوق الطويل لشراء حاجاتهم وكان يقع في محلة النصارى كما أفادت سجلات المحكمة الشرعية في سنقي ٩٦٩ هـ ، و ٩٧٥ هـ وذكره أبو الفداء أيضاً في حوادث سنة ٥٩٧ هـ .

باب العدة : في جنوبي قلعة حماه ، قرب مقام النبي حام وسمي بذلك لادخال عدة القتال منه الى القلعة ورد ذكره في سجلات المحكمة الشرعية في حماه سنة ٩٦٩ هـ .

ومما القلعة شمدي في ضريح الأعمى خطأ باب العسرة ومما مختصر كتابه في كتابه « ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المشر » باب العزة على وجه الخطأ أيضاً .

وكانت للسور المحيط بمحطة باب الجسر عدة أبواب هي :

باب الجسر : يقع من جهة الشمال الغربي وله باب آخر في مبدئه من جهة القبلة .

باب حصص : يقع في شرقي محلة الباشورة وسمي بذلك لخروج من يود السفر إلى

حصص منه .

باب النصر : مجهول موقعه إلا أن أبا الفداء ذكره في حوادث سنة ٦٢٦ هـ .

باب النقفي : يقع شرقي الطيارة الحمراء عند قبو بين الخيرين ورد اسمه في

تاريخ أبي الفداء أيضاً في حوادث سنة ٦٩١ هـ .

الآثار والدور بحياة زمن أبي الفداء :

عمر الأيوبيون كثيراً من الدور والتصور في حياها منها ما ذكر في التاريخ ومنها ما لم يذكرها ، اننا نأتي على ذكر أشهرها مما وقفنا على ذكره في الكتب :

١ - دار الوزير ، وتعرف بدار الاكرام في باب المقار حول رحى الهويسية فوق العاصي في محلة باب النهر كانت ذات مناظر مدهشة وقد أعدت للضيافة وسكن الملوك ، وأضحت هذه الدار في زمن أبي الفداء مدرسة تعرف بالخانوية وفتها عمته مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر .

٢ - دار المبارز : أنشأها مبارز الدين آقوش إذ جعلها لضيافة الملوك .

٣ - دار السعادة : وهي دار الملك المظفر محمود شادها في بستان تقس غربي العاصي جانب حمام السلطان وما أكثر الملوك الذين تناوبوا عليها . وقد سكنها أبو الفداء بادي ذي بدء سنة ٩٧٠ هـ . وفي دمشق توجد دار تسمى دار السعادة كانت مقرراً لنواب السلطنة فيها احترقت زمن فتح قازان لها سنة ٩٩٩ هـ .

٤ - حمام السلطان : عند جامع نور الدين الشهيد بناها الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وكانت حمامه الخاصة وقد عمل له شيخ الشيوخ بحماه عبد العزيز الانصاري بيتهن حفرا على الجرن وهما :

كَمَلْتِ حَسَنًا وَصَفَاتِ عَلَى رَمَائِي مِنْ أَوْصَائِي الْحَاوِي

لأجل هذا صرت أهلاً لأت

أجالس السلطان في الخلوه

روى هذه الحادثة الشيخ أحمد الصابوني صاحب تاريخ حماه غير أن ابن حجة الحموي عزاهما للشاعر ابن نباته المصري لأبي الفداء في كتابه خزائن الأدب صفحة ٢٥٨ والجرن لا يزال موجودا إلى الآن بهذه الحمام .

٤ - القصر والقبعة العليا : وهما دار لأبي الفداء الملك المؤيد إسماعيل على ضفة العاصي أتم بناءها سنة ٧٢١ هـ كان لها أول ايوان كبير وقبة شاهقة وموضعها شرقي الجسر ، وقد بيعت سنة ١٤٩٠ هـ - ١٦٧٩ م للحجارين فتمشوا حجارتها وابعوها وبقيت خلوا من البناء حتى بنى أرضها بعض من يرزقون من وقف أخي أبي الفداء . يقول فيها الشاعر صفى الدين الحلبي في مراثية لأبي الفداء :

إذا ذكرت حمى العاصي وملعبه

والقصر والقبعة العليا بمرقبه

أقول والبرق سار في تلبسه

ياسارى القصر غاد القصر فاسقبه

وقد بقيت إلى زمن ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٢٧ هـ إذ يذكرها في تشوقه إلى حماه وحيث يقول :

يروق امتداد الجسر والقصر فوقه

فيحلو طياق العيش بالمد والقصر

٥ - دار الضيافة المسماة بالطيارة الحمراء : على سور باب النعقي وكانت فوق القبو والبساطية . شرقي الجامع النوري ، زارها وجلس فيها سنة ٦٩٩ هـ السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل وقد ذكرها أبو الفداء في حوادث تلك السنة في تاريخه .

٦ - دار السلطان حسن : كان للسلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفداء دار جيدة في محلة الحسينية واليه تذهب هذه المحلة لأن التي تبعد نحو ميل عن محلة باب الجسر وكان له منها غرس يسمى من ماء قناة سلمية ، قناة العاشق ، المارة في تلك الجهات وكانت الحسينية آنذاك منزهة لطيفا .

٧ - دار الفرح : في محلة باب الجسر وكانت وقتنا للأفراح فمن أراد أن يتزوج مثلا يأخذ مفاتيحها من متولها ثلاثة أيام يفعل ما يشاء وكان فيها / ٣٥ / بيتا أي غرفة وقد زالت معالمها الآن بعد أن هدمت وبيعت حجارتها للحجارين .

٨ - خمس قاعات لآل قرناص قرب مسجد أبي ذر وقد عفى عليها الزمان .

المدراس

المدرسة الخاتونية : في محلة المدينة دار مؤنسة خاتون بعد أن تحولت من دار الاكرام الى دار مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر عمه ابي الفداء ووقفت لها كتباً واولافا كثيرة . وعملها الان دار سكن لآل كركور .

المدرسة الحنفية : كانت في القسم الشرقي من حرم جامع النوري بناها الملك المؤيد ابي الفداء .

المدرسة الطواشية : تنسب هذه المدرسة الى مرشد الطواشي الذي أعتقه الملك المظفر الثاني محمود صاحب حماه ومكانها بالقرب من تربته التي هي بالقرب من الجامع الأعلى (الجامع الكبير) من جهة الشمال وهي متسعة جدا وبقيت لما بعد الألفهجري .

المدرسة العزية : في محلة باب الجسر بناها محمود بن حمزه العزي بجوار جامع العزي من جهة الشرق وكانت متسعة جدا ولم يبق من اثارها الا ان سوي ماهو مرسوم على جدار الجامع يذكر تاريخ بنائها سنة سبع وعشرين وسبعمائة :

المدرسة النورية : كانت قريبة من جامع نور الدين الشهيد وقد درست الآت وسميت بالمدرسة العسرونية نسبة الى القاضي شرف الدين ابي عصرون الشافعي الموصلني الذي تولى التدريس فيها :

مدرسة ابن المشطوب : تنسب هذه المدرسة الى الأمير سيف الدين علي بن المشطوب ومن درس فيها « الفتح الجزري » وكان نحوياً فقيهاً ولي قضاء أسيوط وتوفي فيها ونظم السيرة لابن هشام والمفصل الزمخشري .

المدرسة الصبونية : بناها الشيخ محمد بن محمد الخطيب الشهير بابن صبون .
المدرسة المؤيدة المشهورة بالخطيب : تنسب هذه المدرسة الى ملك حماه المؤيد ابي الفداء وموقع هذه المدرسة في مكان شركة البراد الحالي .

مدرسة دار القرآن : تنسب هذه المدرسة الى محمد بن ابي بكر الشافعي ومكانها في محلة باب حمص من حي الباشورة والمستطرف فيها أن واقف هذه المدرسة جعلها مقتصرة على العزاب خاصة دون المتزوجين .

المدرسة الخصاصية المشهورة بالقنصية : تنسب هذه المدرسة الى مخلص الدين اسماعيل

بن قرناص المتوفى سنة تسع وخمسين وستاية، وكان فاضلاً اديباً فقيهاً عالماً شاعراً ، وموقع هذه المدرسة بالقرب من جامع الشيخ ابراهيم الكائن في حي الحاضر .
وقد ظلت هذه المدارس عامرة بالطلاب والمدرسين والاساتذة والفقهاء طيلة مدة أبي الفداء وظلت كذلك بعد وفاته .

النظام الاداري في مدينة حماه

يذكر الفلغشندي في كتابه صبح الأعتى من الجزء الرابع نقلاً عن المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه « مسالك الابصار في ممالك الأمصار » المتوفى سنة ٧٤٩ هـ والمعاصر لأبي الفداء عن النظام الاداري فيقول :

نيابة حماه

صنجاتها كصنجة دمشق وحلب وطرابلس ، تنقص عن الصنجة المصرية كل مائة مثقال مثقال وربع ، وكل مائة درم درم وربع ورطلها سبعمائة وعشرون درهماً بصنجاتها ، ومكياتها معتبرة بالمكوك كما في حلب وبلادها ، ومكوكها مقدار كل مكوكين وربع مكوك غزاره بالدمشقي ، وقياس قماشها بالذراع ، وقياس أرضها بالذراع .
العمل المعروف .

أما جيوشها فمن الترك « التركمان » ومن في معنهم . وبها عدة من أمراء الطبلخانات والعشرات والخمسات ومقدمي الحلقة وأجنادها ، وليس بها مقدم الف .
وان صاحب حماه كان مستقل فيها باعطاء الأمرة والاقطاعات وقولية القضاة والوزراء وكتاب السر وسائر الوظائف بها ، وكتب المناشير والتواقيع من جهته ولكنه لا يضي أمراً كبيراً في مثل اعطاء امره أو وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر ، وهو لا يبيبه الا بأن الرأي ما تراه من هذا ومثله ، وربما كتب له مرسوم شريف بالتصرف في مملكته . ومع ذلك فصاحب مصر متصرف في ولاية صاحبها أو عزله ومن شاء ولاءه ومن شاء عزله ، ولم يزل الأمر على ذلك الى ان خلع الأفضل محمد بن المؤيد (أبي الفداء) من سلطنتها .

وبها من وظائف أبواب السيوف الحجوية ، وبها حاجبان ، الكبير منهم طبلخانة والثاني عشره ، وأمير آخورية البريد ، ومتوليا جندي (وولاية المدينة وواليها جندي »

ونقابة العسكر ، وبها اثنان وهما جنديان احدهما أكبر من الآخر ، وجميع ارباب الوظائف يوليم النائب بها بتواقيع كريمة وليس بها قلعة بها نائب .

وبها من ارباب الوظائف الدينية من ارباب الأقسام أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، وولايتهم من الأبواب السلطانية بتواقيع شريفة ، وقاضي عسكر حنفي ، وليس بها قضاة عسكر من المذاهب الثلاثة الأخرى (لأن أكثرية الجيش من التركمان على المذهب الحنفي) ولا مفتو دار عدل ، وبها وكيل بيت مال وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ووكالته شرعية ، ومحتسب (١) بولاية عن النائب بتوقيع كريم .

وبها من الوظائف الديوانية من ارباب الأقسام كاتب سر (٢) ويعبر عنه في ديوان الانشاء بصاحب ديوان المكاتبات بجاه المحروسة ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ، وله أتباع من كتاب الدست (٣) وكتاب الدرج (٤) وولايتهم عن النائب بتواقيع

(١) المحتسب : وهو من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحدث في أمر الموازين والمنازيل ونحوهما قال الماوردي (في الأحكام السلطانية) وهو مشتق من قولهم حسبك بمعنى أكف . سمي بذلك لأنه يكلف الناس مؤونة من يخسهم حقوقهم .

(٢) وكان كاتب سر الملك أبي الغداه معز الدين محمود بن الحماد الحموي وقد نزل عنده ابن نباته المصري أول قدومه لحماه .

(٣) كاتب الدست : وهو الذي يجلس مع كاتب السر بدار العدل أمام السلطان أو النائب بمملكة من الممالك ويوقع على القصص .

(٤) كاتب الدرج : وهو الذي يكتب المكاتبات والولايات وغيرها في الغالب ، وربما شاركه في ذلك كتاب الدست ويعبر عنه الآن بالموقع « نقلًا عن صبح الأعشى للقلقشندي » .

(النائب) هو لقب عن القائم مقام السلطان في عامة أموره أو ظالها (المهندار) وهو الذي يتصدى لتلقي الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث في القيام بأمره ، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما مهمن بفتح الميم ومعناه الضيف ، والثاني دار ومعناه مسك ، والمزاد المتصدي لأمره .

(أمير آخور) وهو الذي يتحدث عن اصطبل السلطان أو الأمير ، ويتولى أمره مافيه من الخيل والابل وغيرها مما هو داخل في حكم الاصطبلات ، وهو مركب من =

كرية ، وبها ناظر المملكة القائم مقام الوزير ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ، وله أتباع من كتاب وشهود وولايتهم عن النائب بتواقيع كرية إلى غير ذلك من وظائف صغيرة يوليها النائب بتواقيع كرية .

التشكيل الجنسي والعرقى في حماة :

في بدء الفتح الاسلامي لسورية نزلت حماة قبيلة قيس من المضرية وظلت فيها رداً من الزمن ولم يساكنها أو يجاورها أية قبيلة يمنية ولذلك انعدمت فيها المشاحنات والنزاعات التي كانت تجري بين اليمانية والقيسية حتى أنه في حصص لم يكن بها إلا ثلاث عائلات من قيس فاضطرت للنزوح عنها وان سكان حصص كانوا من القبائل اليمنية حتى ضرب المثل بذلك فقيل « أذل من قيسي في حمص » إذا فالعنصر العربي في حماة كان قيسياً يضاف اليه ما نزلها من التركان اذ جاء في المذخور الصادر سنة ٧١٣ هـ من الملك الناصر أبي الفداء والذي يقضي بفصل المعرة عن حماة ما يلي :

أن تقيم عليها (حماة وبارين «يعرين») خمسمائة فارس بالعدة الكاملة من غير نقص ويبتطل حكم ما عليها من المناشير والتواقيع الشريفة والمساحات والمحسوب وكل ما هو مرتب عليها للأمراء والجنود والعرب والتركان وغيرهم بحكم الانعام بها على المشار اليه .
يضاف الى ذلك ما ذكره المقر الشهابي المتوفي سنة ٧٤٩ هـ والمعاصر لأبي الفداء بقوله « أما جيوشها فمن الترك « التركان » ومن في معناهم »

من كل ما سبق يتبين ان العرب والتركان والاكرد كانوا أغلبية السكان إذ أنت الأكراد هم رأس ملوك وحكام حماة وإذا رجعنا الى سجلات المحكمة الشرعية بحماة نجد ذكر طوائف الأكراد وهي :

طائفة الأكراد الشيعية ، وطائفة الأكراد الجوالكة ، وطائفة الديسية الكردية .
التركان وأهم طوائفها : طائفة الأوشرية ، الاميارية ، الأيوبية ، البياضية ، الطاشمندية ، الفجلية ، اللتك .

==لفظين أحدهما عربي وهو أمير ، والثاني فارسي وهو آخور ومعناه الملقف والملق أمير الملقف . (الحاجب) ، وهو في الاصل عبارد عن يبلغ الاخبار من الرعية ويأخذ لم الآذن منه « نقلا عن الفلقشندي - الجزء الخامس » .

وقد سكن حياة أيضاً طائفة من الافرنج البنادقة لأنهم كانوا تجار وكان هؤلاء الافرنج في أغلب الأحيان في علاقات حسنة منع صلاح الدين ودول المماليك المتعاقبة اذ ينقل الدكتور سعيد عاشور في كتابه الحركة الصليبية عن غروسليه مؤرخ الحروب الصليبية الافرنسي ان صلاح الدين عند دخوله عكا سنة ٥٨٤ هـ وغيرها من المدن الساحلية احتفظت العناصر التجارية من البنادقة والجنوية والبيازنة والقطلان ، ببرازهم مما أدى الى استمرار رواج الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ، لذا لا عجب أن ترى زقاقاً خاصاً بجها اسم زقاق الافرنج في محلة الجعابرة الشرقية .

نظام الحكم بجها

حياة ملكها البيت التقوى الذي هو من نسل شاهنشاه بن نجم الدين أيوب أخو صلاح الدين الشقيق وكان تقي الدين عمر بن شاهنشاه قد رافق صلاح الدين في سائر حروبه في مصر وفي حطين وفي عكا وفي سنة ٥٧٣ هـ سار الفرنج الى حماة بجمعهم وكان عاملها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين الأيوبي مريضاً فلما توفي سار صلاح الدين ابن أخيه المذكور اليها وأمره بحفظ البلاد ، وفي سنة ٥٨٢ هـ ألحق صلاح الدين بمدينة حماة منبج والمرة وكفر طاب ومياقارقين وفي سنة ٥٨٤ هـ ضم اليها جبلة والأذقية وسامها لابن أخيه المذكور الملك المظفر ، وفي سنة ٥٨٧ هـ توفي الملك المظفر تقي الدين عمر وهو قائم علي حصار ملازكرد من أملاك السلطان قليج أرسلان السلجوقي .

اذأ فان تملك البيت التقوى لحماة يبتدىء من سنة ٥٧٣ هـ الى سنة ٧٤٢ هـ عدا عن الفترة الكائنة بين سنتي ٥٦٩٨-٧١٠ هـ . ان البيت الأيوبي المالك في سورية ومصر لم يدم إلا الى سنة ٦٥٨ هـ بينما البيت الأيوبي التقوى في حماة دام زيادة عليه ٧٢ سنة .

اسباب هذا الدوام : ان البيت التقوى حافظ على ولائه لحكام مصر سواء كانوا من الأيوبيين أو المماليك وساعدهم القدر ومهارتهم السياسية على الاستمرار في الحكم وفي سنة ٥٩٧ هـ كتب الملك المظفر (ابن صلاح الدين الأيوبي) لملك حماة الملك المنصور ان ينضم اليه ويحارب عمها الملك العادل فلم يرض ملك حماة بذلك وجرت بينها حروب ووفق الملك العادل صاحب مصر بالبقاء في الحكم .

أما الولاة للمماليك في مصر : فان آقوش البولي « الذي ولاه الملك المظفر قطز السواحل » لما عصى على جيش الظاهر بيبرس سنة ٥٦٩ هـ بقيادة علاء الدين أيوبكين

البندقدارى توجه الى حماة وارسل يقول للملك المنصور صاحب حماة ، انه لم يبق من البيت الايوني غيرك فقم لنصير معك ونملكك البلاد فلم يلتفت الملك المنصور لذلك وردده رداً قبيحاً فاغتاظ البيولي ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر ثم سار الى شيزر ومنها الى جهة حلب وكان علم الدين منجر الخاني نائب الملك المظفر قطز بدمشق فلما قتل المذكور وتسلم الظاهر بمصر بدلا عنه كاتب الملك المنصور صاحب حماة بضرب السكة باسمه والخطابة له في المساجد مستقلا بمملكة دمشق فأجابه صاحب حماة قائلاً انا مع من يملك الديار المصرية .

هذا وانهم في سائر احوالهم لم يالتوا مقتصباً من غير اهل البلاد ولا محتلاً اجنبياً من صليبيين وأرمن وتتر وغيرهم من أعداء البلاد ودخلوا سائر المعارك مظفرين وداغاً جيشهم في الميمنة في حطين وحصار عكا للربيعين زمن صلاح الدين والأشرف خليل قلاوون وفي عين جالوت ومعركة حمص مع التتر والمصاف في دمشق في سلطنة الناصر قلاوون . هذا وقد قال الدكتور سعيد عاشور في كتابه الحركة الصليبية : ولم يحدث الا في حماة وحدها ان استطاع فرع من فروع الامرة الايوبية ان يظل في الحكم مدة ثلاثة اجيال ، وقد خضع لمراقبة شديدة من قبل المماليك لأن ملك حماة المنصور الثاني بقي الوحيد من ملوك الايوبيين الذي رفض التعاون مع المغول وحارب في صفوف الملك المنصور قطز .

اعتبار السلاطين المماليك لملوك حماة : وها اني أذكر بعض هذه الاعتبارات التي كانت لملوك حماة عند السلاطين المماليك . فان الظاهر بيبرس بعد ان فتح حصن الاكراد سلم مفاتيحه الى مولاة (سيده) الملك المنصور ثم ان الملك المنصور الثاني عم ابي الفداء طلب من الملك المنصور قلاوون سلطان مصر اعفاه من هذا اللقب فأجابه السلطان بأني ما تلقيت بهذا الاسم الا لمحبي فيك ولو كان لقبك غير ذلك كنت تلقيت به فشيء فعلته محبة لاسمك كيف أمكن من تغييره . وكذا فان الملك المنصور قلاوون قال للملك المظفر ابن الملك المنصور ملك حماة عندما ولاه وألبسه شعار الملك في دمشق ، انتم من بيت مبارك ما حضرتم في مكان الا وكان النصر معكم .

خروج مملكة حماة من البيت التقوى :

يذكر ابو الفداء سبب ذلك فيقول : في سنة ٦٩٨ هـ لما توفي الملك المظفر فان اخوي أسد الدين عمر وبدر الدين حسن حضرا من حلب الى حماة واجتمعوا معي واختلفوا فيمن يكون صاحب حماة ولم ينتظم بذلك حال ، فاتفق عند ذلك وصول الخبر الى مصر

بعثت صاحب حماة فأعطى قراسنقر نيابة السلطنة بها وسار من الصبية ووصل الى حماة واستقر في النيابة بها في اوائل ذي الحجة من هذه السنة ونزل بدار الملك المظفر صاحب حماة وقمنا بوظائف خدمته واخذ من تركه صاحب حماة ومنا اشياء كثيرة حتى اجحف بنا ووصلت المناشير من مصر الى امراء حماة وجندوها باستقرارهم على ما بأيديهم من من الاقطاعات فاستمرينا على ما كان بأيدينا .

واذفق قراسنقر واخواي (أسد الدين عمر وبدر الدين حسن) وارسلوا معي قماشاً وخيلاً من خيل الملك المظفر - صاحب حماة - وفسرت انا وصارم الدين اربك المنصوري الحموي وقدمت ذلك لمولانا السلطان الناصر محمد وهو نازل بالساحل قرب مسقلان فقبله وتصدق علي بخمعة وحياصصة ذهب ورسم بزيادة اقطاعي واقطاع اخي بدر الدين حسن فزادوا نقداً من ديوان حماة

النواب الذين حكموا حماه بعد خروجها من البيت التقوي

علمنا أن أول نائب تولى نيابة حماه هو قراسنقر، وقد نذر هذا النائب إلى محاربة قازان بن أرغون ملك التتر سنة ٥٦٩٩هـ وأصاب عنه وكيلاً رجلاً اسمه عثمان السبييتاري سام الناس خسفاً وظلماً وجار في حكمه جداً واستباح الأعراض والأموال وسكك الدماء وقتل كثيرين وكان له رفيق شاركه في الحكم فقتله أيضاً وانفرد بالحكم وحده ولقب نفسه بالملك الرحيم، ولما انتصر المسلمون على التتر وقبل أن يرجع قراسنقر إلى حماه أرسل إليها صارم الدين أربك المنصوري الحموي ليكون حاكماً إلى أن يحضر كتبنا نائباً لحماه الجديد فلما وصل إلى حماه عصبي عثمان السبييتاري في القلعة مدة ثم قبض عليه صارم الدين ووضع في السجن وفي أثناء ذلك كان حاكم حلب متوجهاً إليها فمر في طريقه إلى حماه ونزل في تل صفرون وأرسل إلى عامل حماه أن يسلمه عثمان السبييتاري فأرسله إليه وأخذ مكرماً إلى حلب بعد ما أخذ منه رشوة ولم يسمع عليه إشكالية المحويين وان القاضي حكم بقتله فبقي عنده حتى استخلص الملك لأبي الفداء فأرسل من قبض عليه وجاء به إلى حماه فقتله بمحلة المدينة في سوق الخيل .

ثم ان قراسنقر عين الى حلب وعين الى حماه مكانه الأمير «كتيحا زين المنصوري» فدخل حماه ونزل دار السعادة وهي دار الملك المظفر ولما عادت التتر الى البلاد السورية سنة ٥٧٠هـ سار نائب حلب ونائب حماه لملاقاتهم وجاءت عساكر دمشق منضمة إليها

ولكن التتر عادوا بعد ما عاثوا فساداً في بلاد سرمين والمعرة والعمق وفي سنة ٥٧٠٢ هـ سار كتبغا بالعسكر الحموي الى بلاد الأرمن فكانت له بها حروب ، ثم ان التتر عادت الكزة فانضمت العساكر الحلبية للعسكر الحموي فتقلبوا على التتر في القريتين ثم أعاد التتر الغارة على حماة واتجهوا الى دمشق فتغلبت عليهم العساكر المجتمعة ورحلوا عن سورية بجهاتين الفرات . وفي تلك الأثناء توفي نائب حماه زين الدين كتبغا وخلفه في النيابة « سيف الدين قبجق » جاء من مصر ووصل الى حماه سنة ٥٧٠٣ هـ فاستقبله الحمويون وأزروه بدار المظفر، وفي السنة ذاتها ولي المذكور حلب وعين نائباً على حماه (اسمندر) ولم يأت الى حماه بل أرسل نائباً عنه « تتليك السديدي » وبقي الى سنة ٥٧١٠ هـ حيث عين فيها أبو الفداء نائباً .

دور أبي الفداء في تلك الأثناء

يقول أبو الفداء : وفي سنة ٥٧٠٢ هـ توفي نائب السلطنة بحماه كتبغا فأرسلت أعرض على الآراء الشريفة السلطانية اقامتي في حماه على قاعدة أصحابها من أهلي فوجد قاصدي أن الأمر قد فات وقررت حماة لسيف الدين قبجق المقيم بالشويك وكتب تقليد بها في هذه السنة وحصل الي من الصدقات السلطانية الوعود الجميلة الصادقة بحماة وتطبيب الحاضر والاعتدال بأن كتابي وصل بعد خروج حماة لقبجق ووصل قبجق الى حماة في السنة القابلة . وفي سنة ٥٧٠٩ هـ أعطى السلطان نيابة السلطنة بحلب لسيف الدين قبجق وارتجع منه حماه ورسم لعسكر حماه بالمسير معه وتصديق علي وطبيب خاطري بأنه لا يبد من الحجاز ما وعدني به من ملك حماة وإنما أخر ذلك لما بين يديه من المهمات والأشغال المعوقة عن ذلك فمرنا مع قبجق من مصر متوجهين الى الشام في التاريخ المذكور (تاسع شوال) من سنة ٥٧٠٩ هـ ووصلنا حماة يوم الخميس خامس عشر من ذي القعدة ، وقرر حماة للحاج بهادر الظاهري ثم ارتجعها منه وقرره في نيابة السلطنة بالخصوت والفتوحات بعد عزل اسنندر عنها وكان قد حصلت بيني وبين اسنندر عداوة مستحكمة بسبب ميله الى أخيه فقصد أن يعدل بحماة عني فلم يوافقها السلطان الى ذلك فلما رأى أن السلطان يتصدق بحماة علي طلبها اسنندر لنفسه فما أمكن السلطان منعه فرسم السلطان بحماة لاسنندر وتأخر حضوره لامور اقتضت ذلك .

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء العاشر من المحرم وصل اسنندر من الأبواب الشريفة متوجهاً الى حماه نائباً بها وكنت حينئذ مقيماً بدمشق فخرجت الى الكسوة والتقيته

ووجدت عنده لمقامي بدمشق وخروجي عن حكمه أمراً عظيماً وأخذ يخدعني ويستميلني ويظيب خاطرني ويسألني المسير معه الى حماه فلم أجبه الى ذلك فدخيل الى قراسنقر وسأله في ارسالي صخبته طوعاً أو كرهاً فأجابه أن السلطان رسم بمقامه في دمشق فلا يمكن خلاف ذلك فأقام اسندمز بدمشق أياماً قلائل وتوجه الى حماه ودخلها يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من محرم من هذه السنة وفي سنة ٧١٠ هـ وصل مهنا بن عيسى الى دمشق وتوجه منها الى مصر في يوم السبت مشتل جمادي الاول وكان السلطان حريصاً على انجاز ما رعد به بأن يقيمني بجهاه وتأخر ذلك بسبب مداراته لاسندمز وغيره فلما اتفق موت الحاج بهادر ووصول مهنا بن عيسى الى الأبواب الشريفة أعطى مولانا السلطان نيابة السلطنة بالسواحل والفتوحات لاسندمز وتصدق علي بجهاه والمعرة وبارين ووصل الي التقليد الشريف بدمشق صحبة الأمير فجلس الناصري السلحدار وأعطيت حماه في هذه المرة على قاعدة النواب وكان تاريخ التقليد في ثامن عشر جمادي الاول سنة عشرو سبعمائة وخرجت من دمشق متوجهاً الى حماه وصحبي الأمير سيف الدين فجلس المذكور في يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادي الآخرة واسندمز مقيم بجهاه وهو في أشد ما يكون من الغضب بسبب فراق حماه وكوني قد شملتني الضدقات الشريفة السلطانية حتى أنه حرّم أن يقالني ويدفعني عنها وكان قد طلع جميع العسكر الحموي الى لقاني والتقوني قاطع حمص ووصل الى اسندمز ملوكه سنقر من الأبواب الشريفة وخوفه من عاقبة فعله فتوجه اسندمز من حماه ضحى الاثنين ودخلت الى حماه عقب خروجه منها في النهار المذكور وكان استقراري في دار ابن عمي الملك المظفر بجهاه بعد الظهر من نهار الاثنين الثالث والعشرين من جمادي الآخرة من هذه السنة ٧١٠ هـ الموافق لسادس عشر كانون الثاني وكان خروج حماه عن البيت التقوى الأبوي عند موت السلطان الملك المظفر صاحب حماه في يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي القعدة من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وعودها في تاريخ التقليد هو ثامن عشر جمادي الاول سنة عشر وسبعمائة فيكون مدة خروجها إحدى عشرة سنة وخمسة اشهر وسبعة وعشرين يوماً .

وكان مولد أبي الفداء في دمشق في جمادى واعطي التقليد في دمشق في جمادى واعطي ابو الفداء حامل التقليد سيف الدين فجلس الناصري أربعين الف درهم مكافأة .

وفي سنة ٧١٣ هـ خرجت المعرة عن حماه واهضفت الى حلب وسبب ذلك أن الامراء الذين كانوا بجهاه ثم انتقلوا الى حلب استمرت أقطاعاتهم بجهاه لعدم وجود اقطاعات محاولة تفي بجملته ما لهم فصعب عليهم نقلهم الى حلب جداً فأخذوا بالتعنن والشكوى على

إني الفداء بسبب اقطاعاتهم ونقودهم المرتبة بحماه وانضم الى ذلك أنه صار يتغير بعض اقطاعاتهم ويدخل بها شيء من بلاد حلب بحكم ثقل أو زيادة ترد المناشير الشريفة بها وتخط بلاد المملكة الخلية وصارت اطعامهم معلقة بالعود الى حماة وهم يجتهدون بذلك تارة بالثقل على السلطان بالشفائع وتارة بالسعي في ذهاب حماه من (ابو الفداء) فلم يجد لذلك ما يحسمه الا بتعيين المعرة وبلادها للأمرء المذكورين وازادتها الى حلب وانفراد ابي الفداء بحماه وبارين منفصلة عن المالك الشريفة وسأل السلطان بذلك . وفي سنة ٧١٥ هـ عادت المعرة الى مملكة حماه وذلك أثناء زيارة ابي الفداء للسلطان الناصر محمد بمصر وقد مدحه شباب الدين محمود كاتب الانشاء الحلبي موريا بعودة المعرة :

بك كل الدنيا تنهى ويضحى قدرها عالياً وكيف المعرة

ألقاب أبي الفداء العسكرية قبل أن يصبح نائباً بحماه

سنة ٦٩٠ هـ كان أمير عشيرة وذهب الى حصار عكا مع الخليل الاشراف قلاوون وكان على عجلة المنجنيق المنصوري ذي المائة عجلة أمير عشيرة .

سنة ٦٩٢ هـ أعطى المظفر ملك حماه ابن عمه أبا الفداء أمرة طبلخانة بأربعين فارساً وفي سنة ٧١٨ هـ أثناء زيارة أبي الفداء لمصر واقامته مع السلطان — محمد الناصر — أنعم عليه في يوم الاربعاء ثاني رجب الموافق للثلاثين من آب بزيادة عدة قرايا من بلد المعرة على ما هو مستقر بيده .

وفي سنة ٧٢٠ هـ بعد أن رجع أبو الفداء من الحج إلى مصر صحبة السلطان — محمد الناصر — تقدم مرسوم السلطان بارسال شعار السلطنة إليه ورجع ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من محرم من هذه السنة الموافق لثامن آذار بعد أن قرئ تقليد السلطنة بتقيرين في ختام كان قد نصب هناك .

بقي أبو الفداء في حماه سلطاناً الى أن توفي سنة ٧٣٢ هـ وقد كان قد لقب بالملك الصالح ثم بالملك المؤيد ورسوم السلطان أن يخطب له على منابرها وأعمالها بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي على ما كان عليه عمه المنصور .

ولما كان موضوع بحثنا يتعلق بأبي الفداء بحماه لذا نعرض عن ذكر حروبه وحجه ووفادته إلى مصر وإلى القدس وهي أعمال جليلة تليق ببقائه وتخلده على الايام .

الحركة العلمية في حمّاه

لقد أذكى أبو الفداء بما فطر عليه من العلم والمعرفة الحركة العلمية في مدينته، بما خصه الله به من محبة للعلماء وطول صحبته لهم، فمثله في ذلك مثل ابن عباس في المدينة الذي سئل ذات مرة: بم بلغت ما بلغت فأجاب: لسان سؤول وقلب عقول، وأجاب على السؤال ذاته مرة أخرى فقال: ما استكبرت عن استفادة ولا تأخرت عن افادة، فأما عدم استكباره عن استفادة فتتلخص بما رواه عن أستاذه «جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضي القضاة الشافعي» اذ يقول:

ترددت عليه بحمّاه مراراً كثيرة وكنت أعرض عليه ما أحله من أشكال كتاب اقليدس وأستفيد منه كثيراً وقرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب في العروض فان جمال الدين صنف لهذه المنظومة شرحاً حسناً مطولاً فقرأته عليه وصححت أسماء من له ترجمة في كتاب الأغاني فرحمه الله.

وأما عدم تأخره عن افادة فتتلخص بما ذكره الاسنوي في طبقاته اذ يقول:

وكان أخي حمّاه الدين رحمه الله لما رحل إلى الشام قصد حلب فاجتاز على حمّاه وقصد أبا الفداء وقد رتب من يحضر بمجلسه من العلماء الماربن عليه والقاصدين إليه فحضر الأخ عنده وتكلم في علوم فأعجب به وأمره بالاقامة هناك وهياً له الفرش والآلات مما يحتاج له ورتب له رواتب كثيرة وولاه مدارس ولازمه في الخلوة وعرفني منه فاتفق قدومه إلى الديار المصرية في بعض السنين فاستدعاني إلى مجلسه على لسان الشيخ ركن الدين بن القويق فحضرت معه وصحبنا الصلاح بن البرهان الطيب المشهور فوقع الكلام اتفاقاً في عدة من العلوم فتكلم بها كلاماً محققاً وشاركناه في ذلك ثم انتقل الكلام إلى علم النبات والحشائش فكلمنا وقع ذكر نبات ذكر صفته الدالة عليه والارض التي ينبت فيها والمنفعة التي فيه واستطرد ذلك استطرداً عجيباً وهذا الفن الخاص هو الذي كان يتبحر بمعرفته الطيبان الحاضران وهما ابن القويق وابن البرهان فان اكثر الاطباء لا يدرون ذلك، فلما خرجا تعجباً إلى الغاية وقال الشيخ ركن الدين ما أعلم من ملك من ملوك المسلمين وصل إلى هذا العلم. وكان له طلبه كثيرون يأخذون عنه حتى أنه لما توفي رثاه أحد طلبته بقوله:

وجادوا بدمع لايبيد غزير

لكان قليلاً فيك يا بن كثير

لقدفدك طلاب العلوم تأسفوا

ولو مزجوا ماء المدامع بالدماء

جاءه معجج العلماء

تمتاز جاءه بأنها كانت معججا للعلماء والادباء والشعراء والمقويين وأصحاب الفنون المختلفة ويصدق فيها قول مارون عبود : لم يجتمع في بلاط حاكم من الحكام من العلماء والأدباء والشعراء بعد سيف الدولة كمثل ما اجتمع في بلاط أبي القداء وهما اننا نذكر تبعا لذلك العلماء الوافدين اليها ونبتدىء بالاندلس .

قال ابن الوردي : أخبرنا شيخنا قاضي القضاة شرف الدين هبة الله العارزي المتوفي بحجة سنة ٧٣٨ هـ قال : نظم الشيخ جمال الدين الخلاصة « الألفية » بحماه برسم اشتقالي فيها وكنت شابا وخدمته . ولقد رأيت بركة خدمتي له . وقال المقري صاحب نفع الطيب « تصدر ابن مالك في حساه مدة » وقال العجيبى التلمساني المغربي المتوفي سنة احدى وثمانين وسبعمائة « ذكر لي من أثق بقوله ، أنه صنفا برسم القاضي شرف الدين بن هبة الله البارزي » وقال شمس الدين أبو الخير محمد الجزوي « في طبقات القراء » نظم ابن مالك الخلاصة (الألفية) بحماه للشيخ شرف الدين البارزي ولاين الوردي اجازته بقراءة الألفية عليه الى القاضي شهاب الدين أحمد بن الريان ، وان وهبة الله البارزي اجاز ابن الوردي بالخلاصة (الألفية) عن ناظمها .

وبذكر رواية ابن الوردي يتبين أن القاضي البارزي أول من قرء الألفية على ناظمها جمال الدين بن مالك وأول من اجازها في قرائتها .

وكنت قد وقعت رواية بأن ابن مالك قد نظمها بجامع القاق الذي يطلق عليه الان بحماه جامع القان وهو على ما يظن واقع بقرب دار البارزي . وناهيك بالانفية من شهرة عالمية في الشرق والغرب . ويذكر العلماء الذين توفروا على شرحها وتلخيصها في سائر أنحاء العالم العربي .

الوافدون على أبي القداء من مصر :

١ - ابن نباهه المصري : وكان سيب وفوده اليه أنه لم يلق من السلطان الناصر محمد من الرعاية ما يستحقه أدبه وعلمه اذ كان والده مسكا بسديوان الانشاء « لبيبرس الجاشنكير » عدو السلطان الناصر محمد فلما وفد عليه أنشده قصيدة قال فيها :

قهرت حياة لي العدا فحياة عندي القاهرة

وقد رتب له أبو الفداء مرتباً يكفيه مقداره ستمائة درهم كما ذكر ذلك البيهقي في دائرة معارفه .

ومن أشهر مصنفات ابن نباته لابي الفداء الكتب التالية :

كتاب « مطلع الفوائد وجمع الفرائد » وكتاب « سجع المطوق » وكتاب « شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وكتاب « الفاضل من انشاء القاضي الفاضل » وكتاب « زهر المنثور » وكتاب « شعائر البيت التقوى » ورسالة « السيف والقلم » وقد وضع ابن نباته في كتابه « جمع الفرائد » ثمرة ثقافته الواسعة في مصر والشام وقدمه للملك أبي الفداء وقد أحدث ثورة أدبية كبرى في عصره ، فانبرى لتقريظه كبار أدباء العصر وشعرائه أمثال الشهاب محمود القزويني والزملكاني ، وقد أشار عليه الملك المؤيد أن يترجم الأدباء الفضلاء الذين تناولوا مؤلفه في الثناء فلبى أمره وكان له من ذلك كتابه « سجع المطوق » أما اسم الكتاب فيذكر ابن حجة أن ابن نباته اقتبس من لطائف أبي الحسن الجزار في توريته المطوق كما في قوله :

أنت طوقتي صنيعة واسمعتك شكرا كلاهما لا يضيع
فإذا ماشجاك سجعني فاني أنا ذاك المطوق المسجوع

وبالإضافة إلى هذه الكتب فقد عمل له ديوان شعر سماه « المؤيدات » .

ولا أريد أن اسبغ في محتويات هذه الكتب وعن أماكن وجودها إذ يخرج ذلك عن موضوع البحث .

ومن وقد أيضاً إلى حماء من مصر :

محمد بن علي بن محمد الأديب شمس الدين أبو عبدالله ، المصري مولداً المعروف بابن طرطور الشاعر المشهور ، ولد سنة خمس وثمانين وستائة ، وتعلم بحماه الخط المنسوب والتنجيم والأدب وسكن دمشق ثم حماء ، وكان حسن العشرة كثير التنديز ، حسن الشكل ظريف اللبس ، لا تغل محاضراته وتادم الملك الأفضل صاحب حماء وقربه وأدبائه وحنا عليه ورتب له الدرهم والخبز واللحم ، ورحل إلى الشام ثم استوطن حماء إلى أن مات فيها سنة ٧٦٢ هـ .

الرحلة من العراق إلى حماء

كان أول اتصال ثقافي بين العراق وحماء ما ذكره جمال الدين بن واصل قاضي قضاة الشافعية بحماه إذ يقول :

سمعت أبا هذا الكتاب « كتاب روح العارفين ألفه الخليفة الناصر » (من رجل من أهل شيراز) قدم علينا من العراق وذكر ان له به اجازة من الخليفة فرويته عنه سنة ستائة وعشر وكان عمري اذ ذلك أربع عشرة سنة .

ومن رحل الى حمّاه من العراق ، محمد بن عرب الهبتي الحسيني الحنفي العراقي . نزيل حمّاه المحروسة كان رجلاً تحويماً فصيح اللسان غزير الاخلاق وصل من العراق الى سلية ، فاتفق توجهه قاضي القضاة نجم الدين بن عبد الرحيم بن شمس الدين ابي طاهر ابراهيم بن شيخ الاسلام شرف الدين هبة الله البارزي واتفق ان الشيخ شمس الدين (الهبتي) صلى تلك الليلة المغرب أو غيرها بالجماعة ، وجلس معهم ضيفاً ، فأعجب نجم الدين بتمه وحسن تلاوته وفصاحته فجاء به الى حمّاه وقرره مشغلاً في علوم العربية بالجامع الكبير والنوري بجمّاه واستمر على ذلك راتبع به جماعة من الطلبة في علم العربية فان تقريره للخطاب كان سهلاً سريع المآخذ توفي سنة ٧١٤ هـ .

ومن وفد الى حمّاه من العراق : بنو الابرز ، كان جدم مسلم يسكن بغداد بباب الابرز ثم خرج في جفلة التتار الى حلب فسمي الابري ثم خفف فسمي البارزي ومن أشرف هذه الاسرة :

هبة الله قاضي القضاة البارزي : ولد بجمّاه خامس رمضان سنة خمس وأربعمائة وستائة ، وقد أخبر ابن الوردي بأنه أخذ الفقه من طريق العراقيين عن والده وجده ومن طريق الخراسانيين عن جده المذكور عن الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر الدمشقي ومن تلاميذه البرزالي سمع منه ، وابن أسامة والذهبي والتقي السبكي وابن طغرل وزين الدين عمر بن الوردي وغيرهم منهم حفيده عبد الرحمن البارزي وابن أخيه عثمان البارزي وأذن لجماعة من الطلبة في الافتاء . وأصبحت حمّاه في زمانه مؤثلاً لطلاب العلم والخذ عنه وقد قال عنه ابن خطيب الناصرية في كتابه « الدر المنتخب » وانتهت اليه رئاسة المذهب بالاستحقاق « مذهب الامام الشافعي » ورحل الى حمّاه بجمّاه من الافاق له تراجم ضافية في طبقات الأسنوي وطبقات السبكي وفي المنهل الصافي تجاوزت مؤلفاته في الفقه واللغة والتصوف وشرح سقط الزند للعري وفي الحديث خمسة وعشرين موضوعاً مختلفاً انما الذي سمنا من مؤلفاته كتابه « شرح نظم الحاوي » ونظمه

للملك أبي القداء صاحب حماه وهو في أربع مجلدات وكانت مودته وثيقة بأبي القداء وقد أرسل اليه بيتين من الشعر يدعوهم الى وليمة :

طعام العرس مندوب اليه وبعض الناس صرح بالوجوب
فجريا بالتناول منه جرياً على المعهود في جسر القلوب

وقال الصقدي في ترجمته : ووقف كتبه وهي تساوي مائة ألف درهم ، وباشر القضاء بلا معلوم لقناه عنه توفي سنة ٥٧٣٨ هـ .

وقد رحل الى حماة من العراق : صفى الدين الحلي وقد كفانا مؤونة بحثه الاستاذ وليد قنباز .

العلماء الذين عاصروا ابي القداء في حماه

منهم محمد بن عبد الرحيم بن ابراهيم بن هبة الله القاضي كمال الدين بن قاضي حماه نجم الدين بن البارزي الحموي ، فقيه وامام ومدرس ولد سنة ٥٦٤١ هـ ومحمد بن قاضي بارين بدر الدين الشافعي الفاضل المقتي ، كان عارفاً بالحاوي الصغير ويعرف نحواً وأصولاً وعنده ديانة وتكشف توفي سنة ٥٧٣٨ هـ وكانت بينه وبين ابن الوردي صحبة قديمة في الاشتغال على شيخهما قاضي القضاة شرف الدين البارزي ، ومحمد بن يعقوب بن الياس الامام البارع بدر الدين أبو عبد الله الحموي المعروف بابن النحوية ، وكان رأساً في العربية والمعاني والبيان ، خيراً كيساً متواضعاً وقوراً مقتصداً في لباسه وأموره ، وأخذ عنه نجم الدين القحطازي وجساعته مات في صفر سنة ٥٧١٨ هـ له اليد الطولى في الأدب اختصر « المصباح » الذي لبدر الدين بن مالك في المعاني والبيان والبيدع « وأسفار الصباح عن ضوء المصباح » وشرح أيضاً ألفية ابن معطي شرحاً حسناً سماه « حرز القوائد وقيد الاوابد » .

ومنهم موسى بن بصيص : المهود الكاتب ، شيخ الكتابة بزمانه لاسيما في المزوج والثلك ، ولد بحماه سنة ٥٦٥١ هـ وتعالى المنسوب فأتقنه « نوع من الحظ » وكتب الاقلام كلها ثم اخترع قلماً سماه « المعجز » وانتفع به الدمشقيون قال ابن كثير : وأنا ممن كتب عنه .

ووفد على أبي الفداء في حماه علماء أجلاء فوفد عليه ابن مفلح والشهاب محمود والمقري الفيومي ، بل كان العلماء والأطباء كما يقول عمر موسى ناشا في كتابة ابن لبيات « يتركون حواضرهم ليقيموا في بلاط الملك أبي الفداء الذي كان يستخدمهم ويدر عليهم الأرزاق » مثل الأبهري الذي كان بارعاً في الطب وعلم الهيئة ويعرف علم الحساب والمساحة والاصطرلاب ، وقد ذكر ابن حجة أن المؤيد « أبا الفداء » اقتطعه وأجرى عليه رزقه فلم يزل بحاه الى ان مات المؤيد وتحول بعدها الى حلب .

هذا وعلم أبي الفداء ومعرفته ومؤلفاته ربما تناولها غيري بالتفصيل ولكني أقول كلمة أخيرة في علمه ما قاله قيسه ابن الوردى : وقد رأيت جماعته من أهل الفضل يزعمون أنه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه رحمه الله . وتمخض الأدب والشعر في حياة عن نهضة أدبية يرجع سببها الى ما قاله مارون عبود في كتابه « أدب العرب » صفحة ٣٥٦ بقوله :

ولاتنس جهل أكثر هؤلاء السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية . فلو كانوا يتذوقون الأدب والشعر لانسب الشعراء على عملهم الفني ، وأتقنوا نظمهم وجودوه ، فلها لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون إلا في « حماه » حيث بقيت هذه القادة رديحاً من الزمن ، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة نظمية .

المكتبات في حماه : أولع ملوك حماه بجمع الكتب سواء في خزائنهم الخاصة أو الموقوفة على القراء ، إذ كانت هناك مكتبة كبرى في قلعته بها أثرها الملك الأشرف في حليف هولاء عند مجيئه الى حماه وعندما هدم سور قلعة حماة ونهب زردخاناتها « أماكن السلاح » وكان فيها أيضاً مكتبة كبرى في مسجد أبي الفداء تحتوي على سبعة آلاف كتاب أوقفها للقراءة بعد أن وزع على أصحابه كتباً أخرى ، وكانت هناك مكتبة لهية الله البارزي تحتوي على كتب يقدر ثمنها بمائة ألف درهم ، هذا ما وصلنا من أمر هذه المكتبات وما لم يصلنا أكثر .

حماه وابن تيمية

نود ان نورد هنا تلمة لبحشنا ذلك الجدل الفقهي والمذهبي بين ابن تيمية وخصومه ، لأن حماة بسؤالها الفقيه المشهور حثرت عليه محنة كبرى باصداره الفتوى الحموية الصغرى ثم الكبرى ، وكان السؤال قد وجه اليه سنة ثمان وتسعين وسبعمائة (في زمن أبي الفداء)

وجرى بسبب هذا الجواب امور ونحن ، وهو جواب عظيم النفع جداً فقال السائل :

ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين في آيات الصفات كقوله تعالى في سورة طه الآية (٥) الرحمن على العرش استوى . وقوله في سورة (يونس ٣ ، الرعد ٢ ، الفرقان ٥٩ ، السجدة ٤ ، الحديد ٤) « ثم استوى على العرش » وقوله في سورة (فصلت ١١) « ثم استوى الى السماء وهي دخان » الى غير ذلك من الآيات ، واحاديث الصفات كقوله صلى الله عليه وسلم « قلوب بني آدم بين اصبعين من اصابع الرحمن » وقوله « يضنح الجبار في النار » الى غير ذلك وما قالت العلماء فيه ، وابسطوا القول في ذلك ماجورين فأجاب على ذلك بما كان اجاب به الامام مالك بن انس وشيخه بيعة ، وهو ان الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وان هذا ما كان عليه الأئمة المتبوعون والصحابة قبلهم والتابعون . فهاج القائلون بالتأويل على هذه الفتوى ، فرأى الشيخ الامام ان يزيد هذا التحقيق الاسلامي يانا ، فأضاف الى هذه الفتوى نصوصاً عظيمة عن اعلام العلماء من اتباع المذاهب والصوفية كأقوال ابن زمين الأندلسي المالكي ، وابن خفيف الشيرازي الشافعي الصوفي ، وعمرو بن عثمان المكي الصوفي وغيرهم فانتشرت الفتوى بعد هذه الزيادات انتشاراً عظيماً وسميت « الفتوى الحموية الكبرى » لتمييز عن أختها السابقة التي عرفت فيما بعد باسم « الفتوى الحموية الصغرى » فانتشرت الفتوى بسائر البلاد .

هذا وقد سير ابن تيمية من دمشق من قبل نائبها ابن الأقوم الى سلطان مصر آنذاك وهو بيبرس الجاشنكير وتحت تأثير شيخه المنبجي ، وانتدب له « للمجادلة » الشمس ابن عدنان خصماً احتساباً ، وادعى عليه عند ابن مخلوف المالكي أنه يقول ان الله فوق العرش حقيقة ، وان الله يتكلم بحرف وصوت ، فسأله القاضي عن جوابه فأخذ الشيخ في حمد الله والشناء عليه فقيل أجب ماجئنا بك لتخطب فقال : ومن الحكام في ؟ فقيل له القاضي المالكي ، فقال له الشيخ كيف تحكم في وأنت خصمي ، فغضب غضباً شديداً وانزعج وأقيم مرسماً عليه وحبس في برج أياماً ثم نقل منه ليلة العيد الى الحبس المعروف بالجب ، مع أخويه شرف الدين بن عيد الله وزين الدين عبد الرحمن .

وفي سنة ٧٠٨ هـ خرج ابن تيمية من الحبس - زمن سلطنة الناصر محمد - والناس قد عكفوا عليه زيارة وتعلما واستفتاء وغير ذلك .

تذكرنا هذه المحنة بالمحنة التي لحقت بأبي عبد الله أحمد بن حنبل في زمن المأمون والمعتمد ، إذ أن ابن تيمية كان شديد الوطأة كاستاذ أحمد بن حنبل على الجهمية والمعزلة والمتكلمين وأهل التأويل وكما أسلفنا فإن عصر أبي الفداء يشبه من سائر الوجوه عصر المأمون ، وحمل أيضاً ابن تيمية على الصوفية وخصوصاً على الأحمدية الرفاعية ولاحمد بن حنبل كتاب في الرد على الزنادقة والجهمية وهو مخطوط موجود في دار الكتب الظاهرية بدمشق في ١١٦ ص ، وكما انتشرت الفتوى الحموية الكبرى في سائر الاقطار وأعيد طبعها عدة مرات واشتهر بها ابن تيمية شهرة عظيمة ، اشتهر كتاب الحيدة الذي يمثل المناظرة والمناقشة بمجلس الخليفة المأمون بين الامام عبد العزيز بن يحيى الكناني المتوفي سنة ٢٤٠ هـ وبين بشر المرادي ، هذا الكتاب الذي حققه وأخرجه للطبع الدكتور جميل صليبا سنة ١٩٦٠ م .

لم لم يذكر أبو الفداء هذه الحادثة بتاريخه ؟

لما ألت المحنة بسجن ابن تيمية في زمن سلطنة بيبرس الجاشنكير هدو السلطان الناصر محمد ، فإن المذكور اخرج من السجن وانعم عليه وقربه وشجعه وأرسله مكرماً الى دمشق ، ولكن رسالة وجدت بخطه وهي : في السفر وأعمال المطي في زيارة قبور الصالحين ، أدت إلى سجنه بقلعة دمشق بأمر من سلطان مصر — الناصر محمد — إلى فائه في دمشق تنكز سنة ٧٢٦ هـ وتوفي في سجنه سنة ٧٢٨ هـ ، ولما كان أبو الفداء من أخلص الناس لسلطانه الناصر محمد فلم يذكر ذلك حتى أزه كان يكبر اهل التصوف مسابرة لسلطانه المذكور ، اذ يذكر في حوادث سنة ٧٢٥ هـ لما عمر الناصر محمد سلطان مصر خائفاه وأنزل جماعته من الصوفية بها ورتب لهم الرواتب الجلييلة أرسل أبو الفداء هدية تليق بالخائفاه المذكورة مثل كتب وبسط وغير ذلك .

هذا ما اقتضاه بحث هذا الموضوع عن حماد في عصر ابي الفداء .

المصادر والمراجع

عدد العمران (٢٩ - ٣٠) الخاص بحماد مقال احسان العظم (حماد عبر التاريخ)
الحفريات الاثرية في قلعة حماد بقلم ب. ج. ريس . بحث المملكة الآرامية في حماد .
للاستاذ عبد الرحيم المصري المختصر في أخبار البشر لابي الفداء . تاريخ ابن الوردي .

تاريخ حماد للشيخ احمد الصابوني . تاريخ حماد لقدرى الكيلاني . مخطوط « مع ثورة حماد للاستاذ محمد سعيد الزعيم . الفتوى الحموية الكبرى لابن تيميه . الحيد لله للامام عبد العزيز بن يحيى الكناي . الحروب الصليبية لرونسان ترجمة العربي . الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور . ابن نباته المصري للدكتور عمر موسى باشا . استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الاسلامي وفي التاريخ المصري الوسيط للدكتور علي ابراهيم حسن . طبقات الشافعية للأسنوي . سجلات المحكمة المحفوظة بمتحف حماد . خزائن الادب لابن حجة الحموي . تاريخ الادب الجغرافي لكراتشكوفسكي . مناهج التأليف عند العلماء العرب للدكتور مصطفى الشكعة . دائرة المعارف للبستاني . صبح الاعشى للقفقشندي قاموس الكتاب المقدس ترجمة جبر ضومط — البداية والنهاية لابن كثير .

صدر حديثاً

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

بلوغ الأمل في فن الزجل

تأليف : تقي الدين أبوبكر بن حجة الحموي

تحقيق : الدكتور رضا محسن القرشي

تصدير : الاستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني

شخصية

أبي الفداء

في شعر ابن تيمية
وصفي الدين الحلي

وليد قنباز

من نافلة القول ومكرره ان نسب في الحديث عن الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي ، ونجزىه فنقول : ان هذه الحضارة قد بلغت اوجها ، وارتقت الثقافة رقباً عظيماً ، واستمرت تسير صعوداً صعوداً منذ القرن الثالث الهجري على الرغم من الضعف الذي كان يعتور الامور السياسية في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، حين غلب الاحاجم والاتراك على شؤون الدولة لانهم اعتنقوا الاسلام وتعلموا لفته واقننوا آدابها ، واهتموا بالثقافة العربية على اعتبار انها ثقافة إسلامية فبدلوا وسهم في ترقيتها

-وتوسيع أظرافها... (١) . ولكن القرنين السادس والسابع قد حملا في احشاشهما بذور
التضعف والانهيار والضياع اذ اصبحت العالم العربي بعامة والعراق بخاصة على حال مزعجة
من الفوضى والاضطراب سياسياً واجتماعياً بدءاً من الخليفة ورجال الحاشية الى عامة
الناس ، حتى ان التمسح الخلفي والفساد الاجتماعي باتا صورة واضحة وسم بارزة لها (٢) .

والثقافة التي بلغت أوجها في القرنين الرابع والخامس قد جمدت ، وأخذت في
التدهور والتراجع وبمنا في ذلك الشعر العربي بخاصة ، فبعد ظهور المتنبي وأبي فراس
والشريف الرضي وأبي العلاء المعري واضرابهم ظهرت نزعة شديدة الى التقليد امتازت
بالمجود فقيدت القرائح شيئاً فشيئاً ، وأخذ الشعر ينقلب على الخواطر المعهودة ، كأنما
أغلقت دونه جميع الأبواب الى مواطن جديدة (٣) . فلقد هجر الشعراء الفلسفة والثقافة
الواسعة ، وأصبح أديهم أدب الفاظ وحس فقط لا أدب أفكار وثقافة ، فهم لا يحاولون
أن يوازنوا بين حسن التفكير وحسن التعبير... (٤)

وأقبل عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٧ م واجتاحت أرتال الظلام بقداد حاضرة العباسيين
ومركز الاشعاع الحضاري وخلقتها قاعاً صفصفاً تبكي الماضي وترثي الحاضر ولا ترى بارقة
أمل في المستقبل ، وانطلقاً القنديل بعد أن عصفت بذبالبته الرياح الهوج وبددت بقيمة
الزيت وحطمت زجاجه الشمعن وبات دجلة مأوى للفكر والثقافة والعمران الحضاري بعد
أن شهد ارتقاءها جميعاً على ضفتيه خلال قرون...

واستمر الزحف المغولي الاسود الى الشام بعد سنوات عديدة وحاول تكرار
مأساة العراق، ونفذ قسا ولكن الاقدار لم تسمح له باعادة المأساة بكل جزئياتها ودقائقها،
اذ نجح قسم من الشام من هذا العاصف القاتل وان اغرق دمشق في بحور الكوارث الطامي... (٥) .
ولقد اظلمت سماء الادب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح.
ومضى الناس في دياجير الجهل لا يرون مظاهر الحياة حتى يضربهم شارق في سماء مصر

(١) - عصر الانحدار (محمد اسعد طلس) ص (١٥٧) .

(٢) - المصدر نفسه ص (٥ - ٧) .

(٣) - تاريخ الادب العربي (حنا الفاخوري) ص (٥٩٢) .

(٤) - الفن ومذاهبه في الشعر العربي (شوقي ضيف) ص (٢٠٧) .

(٥) انظر عصر الانحدار لطللس وكتب التاريخ الاخرى .

او بارق في جو الشام (١) وغدت جبهة الدول الاسلامية في هذا العهد غير عربية ، بل كان يتولى بعضها وثنيون وم المغول في الفقرة بين ظهورهم واسلامهم (٢).

وكان الشعر العربي رائجاً أيام كان الرؤساء من ملوك وامراء وولاة عربياً فترنح اعطافهم وتطاول اعنائهم لتلك الديباجة العربية والنغمة البدوية ، وحين كان الشاعر مرآة مصقولة تظهر فيها محاسن الممدوحين وأيام كان الامير العربي يرتاح للمدح فيميزه الشاعر هز الكمي عالية الريح ، فلو كانت نفسه في يده لجمعها من عطايها وسيرها الى الشاعر في منحه وهداياها ..

وأما هذا العصر فقد حرم فيه الشعر العون والنصير إذ أصبح كل رؤسائه أعاجم لا يتنون للعربية بصلة إلا صلة البغض والحنق لأنها قضت على لغاتهم وأبادت آدابهم ، حتى لقد ناهضوها فلم يتنصروا وقاروموها فلم يفلحوا (٣) ..

وطبعي أن يسقط الشعر ويهوي من سمائه وقد توضحت على أذانه عوامل متعددة : فمن فصاحة أضحت الى العجبة والرطانة ، ومن قرائح ارمضها الشح والجفاف ، ومن أذهان اخلقها الخمول والجمود وبين نفوس أضرعها الرعب والخنوع ، ومن ملوك أزررت بالشعر والشعراء (٤) ..

وقد ارتفعت اصوات من خلال هذه العصور ، ولكنها اصوات محاكاة اكثر منها اصوات ابداع ، ولم يكن كلامهم غير تقليد الذين تقدمهم ، استوحوا القدماء لا الحياة والمحيط فقصي على أقوالهم بالفناء كما يقضي القبط على النبات الضعيف الجذور ولا يدع إلا الجذور المنسله الى الاعماق والفروع المتسامية الى الأعلى (٥) .

هذه هي الحال بخطوطها العامة ، واكن مؤرخي الادب والتاريخ يلتفتون حول فكرة واحدة فيها جانب ايجابي ، تقول :

(١) تاريخ الادب العربي (احمد حسن الزيات) ص ٤٣٨ .

(٢) الادب العربي وتاريخه (محمود مصطفى) ص ١٨٣ .

(٣) المصدر السابق من ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) ادبائه العرب (بطرس البستاني) ص ١١٨ .

(٥) ادب العرب (مارون عبود) ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

لم يكن للولك في هذا العصر شعراء مجيدون إلا في حماة حيث بقيت هذه العادة رديحاً من الزمن (١) .. كما كان الحال في الخلفاء والامراء في العصر العباسي (٢) . فنقد اصطفى ملكها المؤيد ابو الفداء عدداً كبيراً من الشعراء المتفوقين وقريم منه واخذق عليهم الاعطيات ومنهم : ابن لبانة المصري - صفى الدين الحلبي - الشهاب محمود - ابن مطروح - المقرئ الفيومي - شرف الدين الحسن بن ريان ... وغيرهم فأعاد بذلك سيرة العظماء من العصرين العباسي والاموي وكان اغوذجاً وحده في ذلك (٣) ..

ولعل الشاعر ابن نباته المصري وصفى الدين الحلبي كانا من اقرب المقربين اليه اذ انه قدمها ورتب لكل منها في السنة ستمائة درهم غير التحف .. (٤) على ان ابن نباته كان أطولها مقاماً في حى الملك المؤيد حتى يصح ان نطلق عليه لقب شاعر أبي الفداء . وما دام الامر كذلك نرى انه لا بد لنا من عجالات نتعرف من خلالها الى نقاط بارزة في تراجم الملك المؤيد أبي الفداء ، وشاعريه البارزين ، ابن نباته المصري وصفى الدين الحلبي .

آ - أبو الفداء :

هو السلطان الملك المؤيد أبو الفداء صاحب حماه عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن المنصور الايوبي ، ولد في دمشق عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) ، وتآدب على علماء عصره فبرع في العلوم اللسانية والدينية والفقه والتاريخ والجغرافيا والطب والادب والشعر وعلم الفهيئة .. وكان بطلاً مقداماً ، ولقد خدم الملك الناصر قلاوون وهو في الكرك ، وبالغ في ذلك فوعده بهماه ، ووفى له بوعده ، وجعله سلطاناً عليها يقعن فيها مايشاء بلا مراقبة من مصر ولا غيرها .. ولما زاره أبو الفداء في القاهرة اركبه بشعار الملك وأبهة السلطنة ومشى الامراء والناس في خدمته ، وبالغ في اكرامه .

(١) ادب العرب (عبود) ص ٣٥٦ .

(٢) الادب العربي وتاريخه (مصطفى) ص ٢٤١ .

(٣) وانظر تواريخ الادب للزيات ص ٣٤٦ وزيدان ص ٢٠١ والبستاني

ص ١١٦ وغيرها .

(٤) تاريخ حماه (احمد الصابوني) ص ٨٩ .

وحكم حياه مدة ٢٢ سنة كان فيها الملك المحبوب المحمود الاثر ، فهو مثال العدل والكرم والشجاعة وكان يقرب اهل العلم ويرتب لهم الجوارى والارزاق .. ولقد الفكتيباً نفيسة هي من افضل مراجع التاريخ والجغرافية حتى الآن ابرزها ، المختصر في أخبار البشر في التاريخ وتقسيم البلدان في الجغرافية، وتوفي عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ودفن في مسجده الذي أمر ببنائه قبل وفاته بـ خمس سنوات .. (١) .

ابن نبأة المصري :

هو أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباته المصري .. ولد في القاهرة في شهر ربيع الاول من عام ٦٨٦ هـ (١٢٨٦ م) في أسرة عرفت بالعلم والدين والادب .

ولقد توفر على الدراسة والتحصيل واختلف الى دور العلم والمعرفة واتصل برجال الفكر يأخذ منهم وكان يتمتع بذلك واضح وثبأه متميزة ، ولذا نيسغ ولما يكمل العشرين من عمره .

ولكن أيامه لم تكن معطاة إذ أنه عاش عشر سنوات في مصر يستقطر من البرق الحلب ، فكانت هذه المدة صورة للحرمان بأجل صورته .. ولذا هاجر الى الشام مغترباً لعله يبدل أيامه من حال الى حال اتصل بالملك المؤيد صاحب حماة حوالي عام ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) وعاش في كنفه سنوات أربعت على الخمس عشرة كانت أزهى أيامه وأغناها مادياً وأدبياً وشهرة ، ولقد أصفاه خالص مدحه حتى زادت قصائده ومقطعاته وموشحاته فيه على الستين .

وبعد موت الملك المؤيد اتصل بابن نباته الملك الافضل وغيره من الامراء والولاة وعمل في بعض الوظائف الادارية سعياً وراء الرزق واخيراً عاد الى القاهرة عام ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) بعد غربة دامت حوالي نصف قرن ليمضي اواخر أيامه وقد أحنث السنون اظهره وفجعته باولاده جميعاً حتى ودع الحياة عام ٧٦٨ هـ ١٣٦٦ م وقد نيف على الثمانين .

(١) انظر ترجمة أبي الفداء في تواريخ الادب للزيات وزيدان وعبود وكتاب ابن نباته لعمر موسى باشا ودائرة المعارف الاسلامية والاعلام الزركلي وغيرها ..

ترك ابن نباتة ديواناً شعرياً ضخماً وله عدة مؤلفات تدل على علو كعبه في المعارف والعلوم ، وهناك شبه اتفاق على انه من اكبر الشعراء الذين ظهوروا في هذا العصر ، فالفاخوري يرى أنه نازع صفى الدين الحلبي زعامة الشعر في عصره . . (١) . والبستاني يرى أنه من الشعراء الذين يستحقون الذكر ومن ابرعهم . . (٢) . وزيدان يرى أنه مشهور بالنظم والنثر . . (٣) . ومارون عبود يرى أن في شعره رقة وسهولة ونكتة مستملحة . . (٤) . وفي مكان آخر يرى أنه مع صفى الدين من خير ما سمع من الأصوات في تلك الحقبة . . (٥) . وأما محمود رزق سليم فيراها معاً فحلي عصرهما بغير منازغ . . (٦) .

ج - صفى الدين الحلبي :

هو صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الطائي ، ولد في حلة بابل أو الحلة الفيحاء في العراق في ربيع الأول من عام ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) في قبيلة سنبس إحدى قبائل طي وهي قبيلة عربية تمت كثيراً من السادات . عاش صفى الدين بين قومه هؤلاء وتأثر بمجواذئهم وظروف حياتهم إلى حد كبير . . ولقد نبغ في الادب والفكر مبكراً حتى يروي الصفدي عنه أنه قال الشعر وعمره سبع سنوات واستمر يعاني صناعة الأدب شهر في فنون الشعر كلها وتعلم المصاني والبيان وصنف فيها . واشتهر وهو بعد في طور الشباب وردد الناس شعره في كل مكان مشتمين معجبين .

وكان له أعمام وأخوال ذوو مكانة في الحلة وكان بينهم وبين القبائل الأخرى تنازع على الرئاسة والامارة بالحلة ، ووقعت حوادث فوضى واغتيال ضد أخواله وكان لابد من الرد العنيف والمقابلة بالمثل وكان لصفى الدين الدور البارز وذلك لكأنته من الشباب والشعر ، فأخذ بثأر أخواله ثم ما عثم أن رحل عن بلده الى ماردين قاتل

(١) تاريخ الادب العربي (للفاخوري) ص ٨٦٧

(٢) ادباء العرب (البستاني) ١٢١

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ص ١٣٢

(٤) ادب العرب (عبود) ص ٣٥٩

(٥) الرؤوس (مارون عبود) ص ٢٨٠

(٦) صفى الدين الحلبي (محمود رزق سليم) ص ٣٣

بلوكها واستقر بها فأكرموا وفادته ورفعوا مكانته فنهجهم خالص المدح . . وانطلق الى الحجاز لقضاء فريضة الحج، وبعد عودته عرج على القاهرة عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٣ م) واتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون فرحب به واحتفى احتفاءً بالفاً فخسه باماديع متميزة وهناك اقترح عليه جمع ديوانه فجمع قسماً كبيراً منه .

وغادر مصر وحط رحاله في حماه . . حمى الملك المؤيد فلقني لديه لقاء كريماً ويراً في الاهداء وعطاء جزلاً ومرتبياً يكفيه طوال اقامته فقدم له الشكر والامتنان بعدة قصائد ومقطوعات وموشحات ، ولقد شهد الحلي يوم وفاة الملك المؤيد ورتاه بأكثر من قصيدة وهنا ابنه الافضل بارتقائه العرش ثم غادر حماه الى بغداد وبقي فيها الى ان وافاه الاجل عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

ولقد خلف ديواناً ضخماً هو مختارات من شعره وليس جميعه، وله عدة مؤلفات ورسائل ومجموعات شعرية ولقد قال في فنون الشعر كلها وهو فيها اشهر شعراء العربية على الاطلاق في زمانه (١) ، ولا يكاد يضارعه الا معاصرة شاعر مصر الكبير جمال الدين ابن نباتة المصري وهو عند زيدان اشهر شعراء العصر المغولي خارج مصر والشام (٢) وعند الفاخوري في طليعة شعراء هذا العصر وكان ذا مقدرة أدبية كبيرة (٣) . وعند مارون عبود زعيم شعراء عصر الانحطاط ولا تزال في شعره رائحة الشعر البليغ من فصاحة لفظ ورشاقة اسلوب (٤) . وعند الزيات أحد النابقين في الشعر والأدب ولاخلاف في انه زعيم الشعراء في عصره (٥) . ويزيد الاستاذ محمود رزق سليم على ذلك قائلاً في حقه وحق ابن نباتة . . « ولم يأت بعدهما شاعر فحل حق ظهور محمود سامي البارودي في عصر النهضة الحديثة » .. (٦) .

ومن ذلك جميعه ترى اننا أمام ملك عالم متميز ، وأمام شاعرين هما خير ما في

(١) صفى الدين الحلي (محمود رزق سليم) ص ٧٨

(٢) زيدان / تاريخ ادب اللغة العربية ص ١٣٩

(٣) تاريخ الادب العربي (الفاخوري) ص ٨٦٦

(٤) ادب العرب (عبود) ص ٣٥٧ - ٣٥٨

(٥) تاريخ الادب العربي (الزيات) ص ٣٥٠

(٦) الحلي (محمود رزق سليم) ص ٨٠

حقب طويلة من السنين ولذا علينا الآن أن نتعرف الى كيفية وفودهما على الملك المؤيد
ومدى الصلة حتى نتمكن من الدخول في البحث عن شخصيته في شعرهما .

فابن نباة الذي لقي الصد والحرمين من أبناء بلده هاجر الى الشام عام ٧١٦ هـ
(١٣١٧ م) (١) وشرع في التنقل بين مدنها مادحاً ومستجدياً ، ومن ثم بدأ يقصد على
الملك المؤيد مرة في العام ، ثم ما عم ان اقام في حياه هائناً ناعماً بدار اقامته وصاحبها
وتشجيعه ورواتبه ومنحه حتى نسي مصر واهلها وفي ذلك يقول :

خليلي هذا من حماة محله فعوجا على الأرض التي تبتت الهنا
غنيت يجوداه فأطربني السرى ولا عجب أن يطرب المرء بالغنا
ولا عيب فيه غير أني قصدته فأنتني الأيام أهلاً وموطنا (٢)

ولقد بقي ابن نباة في حمى الملك المؤيد حتى وفاته واتصل بعده بابنه الملك
الأفضل ثم هام على وجهه في بلاد الشام باحثاً عن موارد الرزق التي كانت فياضة في
ابنة العاصي .

وأما صفى الدين فكان على صلة وثيقة بابن نباة وكانت تربطها أواصر الصداقة
والأدب وكانت بينها مراسلات وقصائد ، وأغلب الظن ان ابن نباة هو الذي أغرى
صفى الدين بالقدوم الى بلاط الملك المؤيد وقد يكون للملك نفسه يد في ذلك ... ففي
ديوان ابن نباة قصيدة موجهة الى صفى الدين يظهر له فيها رفته وعيشه الناعم الرضي
عند المؤيد مبيناً أن هناك دعوة وجهت اليه للحضور الى حماة ولم يلها ، ويكرر بان
عليه أن يترك كل شيء ويأتي لينعم بجوار مليك وصل الى النهاية عدلاً وكرماً فقدا واحد
دهره ونسيج وحده :

تارة من حماه يدعى وطوراً يستحث الشنا اليه حداته
يا مشيد الورى لآليء بحر يعرف الذوق عذبه وقراته
خل هذا وانعم بباب مليك عم بالعدل والنوال عقاته
لو طلينا له شيئاً من الدهر لكننا كطالب اعناته (٣)

(١) النظر ابن نباة (لعمر موسى باشا) ص ١٢٦

(٢) ديوان ابن نباته ص ٤٨٩

(٣) ديوان ابن نباته ص ٧٣

ولا تذكر كتب التاريخ والادب سنة وفادة الخلي على المؤيد ولا المدة التي قضاها عنده ، ويمكننا من استقراءنا لعدد من المصادر ان نحدد ذلك على التقريب .

فهذه كتب الادب تذكر ان الخلي وفد على مصر عام ٧٢٣ هـ (١٣١٣) م بعد عودته من اداء فريضة الحج واتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر والكاظم علاء الدين بن الاثير (١) ويظهر انه ذهب الى العراق وعاد ثانية الى مصر عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٦) م (٢) اذ انه كان يتعاطى مهنة التجارة وهي تتطلب رحلات متوالية وكانت خلال هذه الرحلات يمدح الملوك والاعيان (٣) .

وعلى هذا يمكننا ان نرجح ان وفادته على الملك المؤيد كانت بعد عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٦) م الذي قام فيه بزيارته الثانية والاخيرة لمصر .

ونرى كذلك ان اقامته في حماه لم تكن متصلة بسبب رحلاته التجارية ففي الديوان قصيدة قدم لها بما يلي . قال وكتب بها الى السلطان الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه وكان وعده ان يحمل اليه قرباناً له ببلده (٤) على انه حضر وفاة الملك المؤيد عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١) م وراثه ومدح ابنه وعزاه بعدة قصائد وموشحات ثم غادر حماه نهائياً الى بغداد .

ويجمع مؤرخو الادب على ان الملك المؤيد قد اهدى الى الخلي واعطاه فأجزل في العطاء وبراً في الاهداء ورتب له مرتباً يكفيه طوال اقامته (٥) .

والآن ان لنا ان نرصد ملامح شخصية ابي القداء من ثنايا شعر ابن نباتة وصفي الدين الخلي معاً ومن ثم ما انفرد كل منهما بذكره .

ونستبق الكلمات فنقول : ان هذه الصفات لم تأت منفردة في قصيدة واحدة ، بل قد يجتمع اكثرها في القصيدة الواحدة كما قد يضم البيت الواحد اكثر من صفة .

(١) صفي الدين الخلي (محمود رزق سليم) ص ٢٧

(٢) انظر الموسوعة الاسلامية في ترجمة صفي الدين الخلي وتاريخ آداب العرب.

لرافعي ج ٣ ص ٢٧٣

(٣) الدرر الكاملة لابن حجر ج ٢ ص ٣٦٩

(٤) ديوان صفي الدين الخلي ص ٥٨١

(٥) الخلي (محمود رزق سليم) ص ٢٠

آ- الكرم ومحل الرجاء :

وهي اول الصفات التي تصادفنا في كلا الديوانين ، فلقد وصل ابن نباتة الى حدى الملك المؤيد والرزايا تحيط به والمصائب تنوشه ، وليس ادل على حقيقة شيء من كونه مصاباً بحرفة الأدب فلم يبق عن لفظه وفضله بقية ، ولكنه وضع امله ورجاهه على... عماد المعالي :

فأجل عني حالا اراني منها كل يوم في غارة شعواء
فكفى من وضوح حالي ابي في زماني هذا من الادباء
ضاع فيه لفظي الجبير وفضلي ضيعة السيف في يد شلاه
غير ان على عماد المعالي قد بنيت الرجاء ثم بناء (١)

واذنه من المؤكد ان ابن نباتة في اول امره كان يقف على الملك ابي الفداء مرة كل عام فيجد لديه ما يكفيه ان يسأل الاخرين عاما كاملا ، ثم اقام اقامة دائمة :

في كل عام لي عليه وفادة تفني قصيدي عن سواه ومقصدي (٢)
ثم يظهر ان بعض عطائه لا يماثل فكيف به كله ؟ .. ولهذا الاعجب اذا سلاشاعرنا ارضه المصرية وآماله الكبار فيها فابن تقي الدين .. ؟ :

الم تر أنا قد سلونا بارضه مراد لنا في ارض مصر ومرتها
اذا ابن تقي الدين جاد نباته علينا فلامدت التيل اصبعها (٣)

ويشرح ابن نباتة في مقارنته ابي الفداء بشخصيات تاريخية معروفة دلالة على ثباتها كمثل عليا من طرف وعلى التفوق عليها من طرف آخر ، فابن كرم كعب بن مامة الايادي من كرم ابي الفداء فهو محط الرجاء والامنيات ومعدن الوفاء ، ويدها تهزات بالعطاء صبياح مساء وكأنتها يدا سابع في ماء .. انه المليك الذي سما على الشمس وغدا جوده كشعاع للوجود كله ... وبهذا صان كعب شاعرنا عن ان تمد لغيره ولسانه عن ان يمدح سواه ، وما زال يرتفع منزلة ومكانة حتى فاق المنذر بن ماء السماء :

خل كعبا ورم نداءه فما كعب ب العطايا ورأسها بالسواء

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧

(٢) الديوان ص ١٣٢

(٣) الديوان ص ٢٩٤

وارج وعد المنى لديه فاسما
مالكفيه في الثراء هدو
يامليكا علا على الشمس حتى
صنت كفي عن الانام ولفظي
وسقتني مياه جودك سقيا
عيل مازال معدنا للوفاء
فهو فيه كسابع في ماء
عم احسانه عموم الضياء
فحرام ندادهم وثنائي
رفعتني على ابن ماء الساء (١)

ويقدم شاعرنا صورة طريقة فإيامه وإيام امثاله في ذرى باب ابي الفداء مواسم
فضل واعياد فطر ، ويدعو كل محتاج ليلوذ برحابه ليمحو عمره منها كان ثقيلًا ... بل
يكفي المعمر ان يسمى ابا الفداء في ضميره حتى يرى ان الثراء واليسر والهناء قد احاطت
به من كل جانب :

كل ايامنا مواسم فضل
لذبيمتنا في الخوانج تظفر
سمة في الضمير ان ذقت فقرا
في ذرى بابه واعياد فطر
بيسار يحى به كل عمر
وعلي الضمان انك تثرى (٢)

ثم يظهر دور ابي الفداء في الانعام حتى الثراء، فها هو ذا ابن نباتة يعطي الزكاة
بعد ان كان يأخذها من المنعمين بالامس فقط . وبات يفخر بقول الناس عنه : عبد دولة
ابي الفداء ، بل راح يعده اشهر القاية واسائه واحيا الى قلبه :

اعطي الزكاة وقدما كنت آخذها
وعاد قول البرايا : عبد دولته
يا قرب ما بين اقتاري واثراني
اشهى واشهر القابي واسائني (٣)

ذلك أيام أبي الفداء صورة مثلى عن أيام أجواد العرب السابقين ، وذلك مديح
شاعرنا صورة ثانية عن أماديع كبار الشعراء ... فلا عجب أن يختال متموقاً بين
لداته ، فلولا كرم أبي الفداء لما عاد يذكر الكرم ، ولولا مديح ابن نباتة لما عاد يذكر
الشعر الشعراء :

(١) الديوان ص ٤ - ٥

(٢) الديوان ص ١٨٤

(٣) الديوان ص ٦

ظعن الكرام الأولون وأقبلت أيامه ، فكأنهم لم يظعنوا
 لم ييسق لولا جوده ومديحنا مال يكال ، ولا مقال يوزن (١)
 وعندما مات الملك المؤيد وارتقى عرش حماء ابنة الملك الأفضل يتوجه إليه ابن
 نبأته بامنياته ورجائه ان يحقق مطالبه العائيه وأن يكون كأبيه في الكرم ،
 اليك بعثت وفود الرجا ووجهت همتي القاصيه
 وكان المؤيد ثم انقضى فأيد مطالب العائيه (٢)
 وتلك حقيقة ... فيعد أن قضى المؤيد والأفضل ، عاد ابن نبأته الى التنقل في
 بلاد الشام سعياً وراء الرزق الذي كانت منحه تترى ويكفي يده ولفظه عن
 التبذل والسؤال .

وأما صفى الدين الحلبي فلهجته وصوره ولقطاته أقل من عطاء ابن نبأته، وأطول
 عهد النبأتي وقصر عهد الحلبي دور في ذلك .. فها هو ذا يدعو له بالخير لانعامه واحسانه
 حينما حمل إليه تحفاً وكسوات البيت وآلاته ومهاته جميعاً :

جزاك الله عن حسنك خيراً وكان لك المهيمن خير راع
 فقد قصرت بالاحسان لفظي كما طولت بالانعام باعي (٣)

ولذا راح يحمد رحلته وما صار إليه من راحة بال وحسن لقاء ولا سيما أن آماله
 وأمواله قد ربت واهترت فهل عليه لوم إذا لم يسأل عن اهله وقد أضحي يرفل بين
 أفواف النعم ولأن له كل صعب في الوجود :

حمدت اليك ترحالي وحالي
 وزاد اليك اقبالي وبالي
 وقد ضاعفت آمالي ومالي
 فاست أطيل عن آلي سؤالي

(١) ديوان ابن نبأته ص ٤٨٦

(٢) الديوان ص ٥٦٤

(٣) الديوان ص ٢١٨ (ديوان الحلبي)

أفضت علي للنعمة ملايس فصار لدى رطباً كل يابس (١)

وهو في مكان آخر يبحث له له يجد له نظيراً في الساحة والندى فلا يظفر ، فليس لها حد وليس لها ند :

تجرأ من لجودك رام حدا
ومن بالقيث قاسك قد تعدى
وكيف تقاس بالأنواع حدا
وكفك لورى أدنى وأندى (٢)

وفي قصيدة أخرى يؤكد على هذه الصفة تأكيداً واضحاً ، فأبو الفداء جعل كرمه قديماً للفقراء ، وطالبي الماروف الذين يعجزون عن الشكر ، وهو بعمله هذا أقام بيوت العلابنا جعل بيت ماله اطلاقاً ، وكيف لا ومطر كفيه يقصر عنه مطر السماء ، فتلك السحب تجود وتبكي بالمياه ، وهو يجود ويضحك بالأموال :

يا من جعل البر للعفاة قيوداً قد زدت من المن عنق عبديك أغلال
أظهرت علينا من السباح نجات ان قصر نظمي بوصفها نطق الحال
شيدت بيوت العلابنا وكن طولوا بالجود فامست بيوت مالك اطلاق
ما انصف من قانس واحتيك بسحب من أين لكفك في السحاب أشكال
السحب إذا ما سخت تجود وتبكي بالماء ، وتسخر وانت تضحك بالمال (٣)

ووصل الأمر بالخلي الي أن يقول — كما قال ابن نباتة من قبل — بأن عطاء أبي الفداء وحفاوته قد أنسياه أهله ووطنه ، وليس له الا كيل الأمانديج والثناء ، وان أسف وندم على شيء في حياته ... فهو على أنه أضع أيامه الأولى بعيداً عن ظل المؤيد :

آنسه فضلكم فما طلبت مسكنه نفسه ولا سكنه
اسلاه عن أهله صنيعكم به وإنساء ظلكم ووطنه
يعان بالمدح والثناء وقد اشبه في الود مره عننه

(١) الديوان ص ٢١٧

(٢) الديوان ص ٢١٦

(٣) الديوان ص ٢١٨

ما ساءه غير فوت مدته وما قضى تحت ظلكم منه (١)

ونراه يؤكد في مكان آخر انه مقيم في حمى الملك المؤيد صاحب العز المنيع والمجد
المشرد (لأن من وجد الاحسان قنبداً تقيداً) :

أما قال الذي في الحسن زيد
ومن وجد الندى قيداً تقيد
فها أنا في حمى الملك المؤيد
متبع العز ذي مجد مشيد (٢)

ويعد أن قضى الملك المؤيد نرى صفى الدين ينقطع لابنه الملك الأفضل ويخلصه
« المدح » وفي كل قصيدة نرى طيف أبي الفداء يتراعى بساحته وجوده ووعده الصادق.
فها هو ذا في واحدة منها يقرر أنه قد سن سنة الكرم للناس جميعاً فأصبح علماً يقتدى
به الكرام لهم في كل زمان ومكان حتى فاه لسان حاسده بها رغباً عنه :

يا ابن الذي من السباح للورى فأصبحت به الكرام تقتدى
الصادق الوعد كما جاء به نص الكتاب والصحيح المسند
من أصبحت أوصافه من بعده في الارض تنلى بلسان الحسد (٣)

ويطول بنا الحديث إن اردنا الاستقصاء في كلا الديوانين ، وحسبنا ما
اوردنا ، وكلها تدل على كرم أبي الفداء وساحته وكونه محل الرجاء وقبلة العفاة
في زمانه .

ب - العلم (أبو الفداء العالم) :

ولعل هذه الصفة من أبرز صفات أبي الفداء ، فهو ما ذكر مرة الا ووصف العالم
بجوار اسمه وما من قصيدة خلت منها ، فهذا ابن نباته يقرن بين صفة العلم وصفة الكرم ،
ويعلن أن أبا الفداء لها معا :

والفه للعلوم أو للعطايا تلق ملكاً يقري الضيوف ويقرى (٤)

(١) الديوان ص ٢١٢

(٢) الديوان ص ٢١٦ كذا وردت في الديوان وترجح أنها (ذي الجند المشيد)

(٣) الديوان ص ٢٢٤ - ٢٢٥

(٤) الديوان ص ١٨٤

وهاهي ذي تصانيفه العظيمة التي سطرها في سبيل الله والاسلام فعدت لها حلية ومنعة فهو يحمل في يده اقلامه الحمراء وسيوفه البيض مثلاً لعاني المدح وافكاره .. فله احرفه وسطوره التي اغتت الدين واثرت في الناس كل الناس :

وللعالم تصانيف بدت فعدت نعم السوار على الاسلام والسور
في كفه حمر اقلام وبيض طبيا كأنها لبرود المدح تشهير
قد اثرت مايسر الدين احرفها وللحروف - كما قد قيل - تأثير (١)

وليس هذا فقط ، بل ان أبا الفداء كان يجلس للعلماء والادباء والمفكرين ينادمهم ويناقشهم ويجادلهم ويطرح آراهه بوضوح وجلالة ويسر فتقع في قلوبهم جميعاً اجمل موقع واقواء بلا لیس وغموض فهي سديدة قاطعة سواء أكان الكلام لها أم عليا :

وينشر العلم لاقول بمختلف إذا رواء ولا معنى بملتبس
ويشبع الأمر آراء مسددة تمضي وتدفع صدر الحوادث الشكس
تكون كالعضب احياناً وآونة تكون من ولعات العضب كالترس (٢)

وكم جاء العلماء انفسهم يستفتونه في مشكلة اشكل امرها ، او امر اغلقت دونه المسالك فاذا هم امام بحر علوم لاحدود له يضع النقاط على الحروف ويحل المعضلات فمن النادر ان تلقى له نظيراً على وجه البسيطة ومهما حاولت فان تجد الامام دوله فهو المرجع الاول والاخير :

ومسائل في العلم اشكل امرها حلاً ، وحل لطالب اشكالمها
يراع سيف او بسيف يراة فصل الامور جلاها وجدالها
قل للممثل في البسيطة وصفه دع سحبا وبحارها وجبالها
هايك امثلة دلت عن قدره فاطلب لهايك الصفات مثالها (٣)

ويريد ابن نباتة في الوصف والشرح فيحكى لنا عن اقلام ابى الفداء واسلوبه وافكاره ، فاذا هي تنساب برفق وسبوله فتسلب الباب الرجال بما فيها الوضاعة وكأنها ارائس تتهادى وتجلس على ارائك النور فوق النجوم الزهر :

(١) الديوان ص ١٨٥

(٢) الديوان ص ٢٦٤

(٣) الديوان ص ٣٧٩

و الله من اقلام علم بكفه سوابب الباب الرجال سواك
كان معانيها كواعب تتجلى علي حيك الادراج فوق أرائك (١)

وفذا جميعه لاجب اذا رأينا طلاب العلم والمعرفة يؤمونه من كل حذب وصوب
جنياً الى جنب مع طلاب الرفد والعطاء.. فاذا هم أمام بحر علوم زاخر يرمهم بمباحث
تجعل الجلي مقصراً أمامها وتفتح الباب أمام المتصر ليسمو فوق الثريا... وتلك الفاظه
وكأنه السحر الحلال لما تحوى بين ثناياها من جمال وذوق وفن وذاك فكره المتوقد بـ
النجوم بعض شراره المتناثر :

يؤم حماء طالب بعد طالب فذو الحال يستجدي وذو العلم يقتدي
مباحث علم بلدت كل مفصيح على انها قد فصحت كل ابيد
ولفظ كانت السحر فيه محلل ألم تره في الذوق غير معقد
كان النجوم الزهر في كبد الدجى شرار لظى من ذهنه المتوقد (٢)

وعندما التحق أبو القداء بالرفيق الأعلى ، راح شاعره ابن نباتة يذكر مناقبه
ومآثره ويتساءل عن العلوم والمؤلفات والدارسين والقاصدين والمهارين وحائهم بعد ان
فقدوا ملجأهم ومقصدهم ومن كانوا يتدون بديه ويستنيرون بأفكاره ويستعينون به
على دهرهم وجهلهم :

هفي عليه لامتاز ومطلب بالمال يقريه أو بالعلم يقريه
من للعلوم وللإعلام ينشرها وللوعى ، ورداء الخوف يطويه
من لتصانيف أمثال الكواكب في ليل المداد لساري الفكر بديه (٣)

وأما الخلي فانه بدوره يؤكد على هذه الصفة ويوردها بكثرة ، فها هو ذا يظهر
ان أبا القداء يذر العالم الكبير أمامه بليداً، والفلاسفة جهالاً بعد أن يتعرض لهم بالبحث
والمناقشة والجدل :

يا من جعل العالم الفصيح بليداً بالبحث ، كما صير الفلاسفة جهالاً (٤)

(١) الديوان ص ٣٦٠

(٢) الديوان ص ١٢٩

(٣) الديوان ص ٥٧١ - ٥٧٢

(٤) الديوان (صغي الدين الخلي) ص ٢١٨

ومن ثم يقدم لنا صوراً عن هيئته العلمية وهالته الفكرية . فالاصمعي لو وقف أمامه منشداً الشعر لخطأ ولحن ، ولو اعداد عي كلماته الساحرة لسالت رقاقة وكانت قائلها ذرب اللسان سليم مخارج الحروف ، وأما لفظه فهو مهذب فصيح لا يعتوره سقوط ولا غفلة ولا ضياع :

ولو أتى الاصمعي ينشده شعراً لا يصبح من خوف به لحنه
ولو رعى ألكن عبارته أزال من سحر لفظه لكننه
مهذب اللفظ في القصاحة لا كسائل المازني : من ختنه (١)

وتلك آراؤه السديدة ما زالت تسمو وتتعالى حتى تحطت السحاب وجرت ذيوها فوق رأسه :

يا أحمأ الملك الذي آراؤه سحبت على هام السحاب ذيو لا (٢)
وأما العلم فولوا الملك المقدم لانمحت سطورره ودرست معالمه ولم يبق له نصير :
ولولا أنت يا مردى الفوارس لأضحى العلم بين الناس دارس (٣)
وهذا جميعه فقد أضحى اسمه مقروناً بالعلم فما ان يذكر حتى يذكر الناس الملك المؤيد اعلم العلماء وما أن يذكر الحكم حتى يذكر الناس أبا الفداء أتحكم الحكماء :
ان ذكر العلم فتنهانه أو ذكر الحكم فلقمانه (٤)

وعندما مات الملك العالم كان شاعرنا في حباه ، قرثاه محملاً ثوبية ابن زيدون ، ومن ثناياها برزت من جديد هذه الصورة الرائعة ... صورة الخلود العلمية الفكرية وأبو الفداء همز جلساءه للبحث ، وليس لهم مؤنس سوى المناياح المتشعبة ، ولكن القضاء قد حم وأسكت الباعث على ذلك كله ، وكأنه لم يكن ثمّة لقاء في غفلة عن الوشاة والرقباء :

(١) الديوان ص ٢١١ - ٢١٢ . والسائل هو عبدالعزيز بن مروان والد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (تاريخ دمشق لابن عساكر) ويروي أن السائل هو الوليد بن عبد الملك (نقد النثر لقدامة ابن جعفر) واللحنه وقصتها مشهورتان . انظر كتاب اصول النحو (سعيد الافغاني) ص ١١ .

(٢) ديوان الحلي ص ٥٨١

(٣) الديوان ص ٢١٦

(٤) الديوان ص ٢٢٢

كم خسارة هزنا للبحث باعشنا
فاليوم أحرص بالتفريق نافشنا
فليس يؤنسنا إلا مباحشنا
كأنما لم نبت والوصل ثالثنا
والدهر قد غص أجفاننا واشينا (١)

ومن خلال مدح الملك الأفضل كانت هذه الصفة تظهر بتواضعها كافة ، فإذا هو وارث علم أبيه وابن الذي كان في العلم ونجل الذي حمل السيف والقلم بجدارة ما مثلها جدارة :

وارث علم الملك المؤيد ارثاً صحيحاً سيداً عن سيد

يا ابن الذي قد كان في العلم علم واستخدم السيف جديراً والقلم (٢)

ويؤكد من خلال تعزية الأفضل بوفاة أبيه على أن الملك قد ضاعوا بعد وفاته لأنهم فقدوا الرأي السديد والقول النصيح ، ومن العجب أن تغفل العلوم والطب صاحبياً وتقتصر عن مساعدته حينما دهمه القضاء :

ملك تيممت الملوك برأيه فكأنه لصالحهم أكبر
أحسن عماد الدين بعد علومه ولطبه عما عراه قصور (٣)

ويطول بنا الحديث ثانياً إن استقصينا الشواهد كلها ، وحسبنا ما أوردنا ، والتي تدل جميعها على أن صفة العلم ووصف العالم وعت الباحث كانت شيئاً أساسياً وجائزاً هاماً من شخصية أبي الفداء .
ج - الشجاعة :

وهي سمة بارزة تطل علينا بين حين وآخر في قصائد ابن نباتة والحلي ، ولكنها لا تصل في الكرة إلى الصفتين السابقتين ، فما هو ذا ابن نباتة يقول بأن أبسط كرمه وأقل سطوته يجعلناك تسمى كرم هرم بن سنان وقوة شبيب بن يزيد الخارجي :

(١) الديوان ص ٣٦٣

(٢) الديوان ص ٢٣٢

(٣) الديوان ص ٣٨٥

ملك بادئى سطوه ونواله أنسى ندى هرم وبأس شبيب (١)
ويؤكد على هذا المعنى ثانية ، فاذا بأبي الفداء يطوق العفاة بالمال والاعداء بالسيوف
فهو - والحال هكذا - أسر الاحباب والاعداء :

ملك يطوق بالاحسان وقد رجا وبالظبا والعوالي وفد هيجاه
ذا بالنضار وهذا بالخديد فما ينفك أسر أحباب وأعداء (٢)
وهو بشجاعته وأقدامه قد أرهق حسامه من كثرة القراع والمبارزة، وغدا السيف
بين حبه لصاحبه وبين تعبه من كثرة الضرب والطعن :

قد أتعب السيف من طول القراع به فالسيف في راحة منه وفي تعب (٣)
وكم من حروب ومواقف كانت الخيل فيما تجري في بحار من الدم المسفوك عن
سيوف تضرب فتثير النار وتطفى لهيب الحقد والبغض .. فأصاب اليأس كل الناس
وحاروا أياً يسلكون وأياً يعملون .. فوقف مشرق الوجه ثابت الجنان وحسم الموقف
بشجاعته النادرة وآرائه الحكيمة السديدة :

وحروب تجري السوابع منها في بحار مسفوحة من دماء
من ضراب تشب من وقعه النسا ر ، وتطفى حرارة الشجناء
يشس الناس إذ تجلى ، فجلست دجاها بالبأس والآراء .. (٤)

ويعود ابن نباتة في قصيدة أخرى ليضيه جوانب هذه الصفة أكثر فأكثر فيظهرها
لنا أبا الفداء أسيراً تحت سيطرة الكرم والقوة اللذين تركا له في كل حذب وصوب ثناء
عاطراً وذكرأ رقيقاً ، فهو في كرمه يملأ الديار من أعطياته ، وفي قتاله يملأ القفار من
عساكره ، وإذا حارب قوماً خلفهم أسرى والقيود في أيديهم وأرجلهم ، وإذا صدر
عقوه عنهم قرنه بنعمه وصلاته :

وعلقتك ساحة وحماسة جعللا له في كل ناد ذكراً

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٠

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٦

(٣) الديوان ص ٢٢

(٤) الديوان ص ٧

وإذا سخا ملاً الديار عوارفاً وإذا غزا ملاً القفار عساكراً
 وإذا سطا جعل الحديد قلائداً وإذا عفا جعل الحديد جواهرأ (١)
 وإذا شبت زيران المعركة تجد السيف يستعير قوة من قوة أبي الفداء وبأسه ويصول
 ويبحول في الميادين صولة خبير وجولة مدرب فلا يدع في أرجاء الشام أي أثر للأعداء ،
 بل يعجل الفتك بالكافرين فلا يترك منهم ديناراً يلد فاجراً كفاراً :

وإذا شبت الوغى فكأن السيف من بأسه استعار استعاراً
 ذو حسام مدرب لم يدع في جانب الشام للعدى ديناراً
 اعجل الكافرين بالفتك عن ان يلدوا فيه فاجراً كفاراً (٢)
 ذلك أبو الفداء الذي يعمل في سبيل الاسلام والدفاع عن الدين وحماية دياره من
 غارات الاعداء بالقتال آوثة وبالقاء الرعب والرهبنة في قلوب المغيرين آوثة أخرى :
 كم غارة عن حمى الاسلام ككفها بالضرب والطنع او بالرعب والرهب (٣)
 وبعد الملك المؤيد بكى ابن نياته بدموع غزارو قلب محترق فقد مولاه الذي كان
 مطراً لطالب المعروف وعونا لطالب النجدة فالعلم الصحيح يروي حوادثه عن اقلامه
 والنصر المبين يروي حوادثه عن رماحه . . . والان : من ينشر العلوم ، ومن ينشر اعلام
 القتال ليطوي عن الناس رداء الخوف ...

كان المؤيد في يومي ندى وردي غيثاً لراجيه او غوثاً للاجيه
 تروي صحاح القضايا عن يراعته والنصر في الحرب يروي عن عواليه
 من للعلوم وللإعلام ينشرها وللوعى ، ورداء الخوف يطيويه (٤)
 وذاك الحلي يضرب على الوتر نفسه ، ويصعد النقم ذاته . فالملك المؤيد بكرمه
 يجعل الذليل عزيزاً وبقوته وشجاعته وسطوته يذر العزيز ذليلاً ، وتلك سيوفه تحمي

(١) الديوان ص ١٨٩

(٢) الديوان ص ١٩١

(٣) الديوان ص ٢٣

(٤) ديوان ابن نياته ص ٧٢ هـ

حدود البلاد بمجودها وتترك الفلول في حد الزمان فهي قيود فوق رؤوس الاعداء ونار
بين ضلوعهم :

بساحة تذر العفاة اعزة وحساسة تذر العزيز ذايلا
وصوارم حث البلاد حدودها وارترك في حد الزمان فلولا
فنظمتها فوق الرقاب غلا غلا وتخانها بين الضلوع غليلا (١)
ويعيد الفكرة عينها في مكان اخر . فاذا بابي الفداء يجعل السيوف تبكي بدماء
اعدائها ، والرماح تتناول الى الرقاب والاعناق . . . وهذه الاعمال جميعها في سبيل
المجد والاعلا . وهي البقايات الصالحات لانها تبيد القرسان وتحني البؤساء :

جعلت البيض دامية المآقي
وسمر الخط ترقى في التراقي
مناع للعلى اضحت مراقي
وتلك الصالحات هي البواقي

فترجل فارس الحرب الممارس وتجهل راجل الاملاق فارس (٢)

د - الاصل الرفيع العالي:

من المعروف ان الملك ابا الفداء من البيت التقوى الذي ينحدر من العنصر الكردي
ولقد ظهر منه سلاطين تولوا الملك في مصر وسورية : دمشق (١١٨٦ - ١٢٦٠ م)
حلب (١٨٣ - ١٣٦٠ م) اليمن (١١٧٣ - ١٢٢٩ م) وهم جميعا من سلالة ايوب
بن شادي ابي صلاح الدين الايوبي (٣) ولقد اشد الشعاعان هذا الاصل السامي ، فهذا
ابن نباتة يرى ان ابا الفداء بشائله وصفاته السمحاء يعطيك صورة عن آيائه واجداده
الكرماء العظام الذين لولا هيبتهم وعظايتهم لم يصف دهر ولم يطب زمن فهم قد رفعوا فوق
زحل بيت العلا والمجد الباقي على الايام ممتدا بين زحل والمجرة :

ملك تدلك في الجدوى شائله على شائله آباء له نجب
يا ابن الملوك الا الى لولا مهابتهم وجودهم لم يطع دهر ولم يطب

(١) ديوان صفى الدين الحلي ص ٥٨١

(٢) ديوان الحلي ص ٢١٦

(٣) انظر المنجد في الاعلام الطبعة الثانية ١٩٦٩

والشائدين على كيوان بيب علا تقيب زهر الدراري وهو لم يقب
بيت من الفخر شادوه على عمد وبالجرة مدوه على طنب (١)

واولئك م بنو ايوب فاتحوا ابواب الامل للناس كافة ومغدقو الاعاجيب ، والذين
رفع الهدى اعلامه عن طريق ملكهم فوق سرادقه المنصوب ، والذين افضوا بكرمهم
وعلياهم صعدا الى عماد ابي الفداء ،

فتحت بنو ايوب ابواب الرجا واثت بحارم بكل عجيب
وبلكهم رفع الهدى اعلامه وحي سرادق بيته المنصوب
والى عماد انتهت علياؤم والى العلاء قد انتهت لتجيب (٢)

وفي قصيدة اخرى يعيد لنا الحقيقة قائلا : ان الملك المؤيد سليل العلا والاجساد
وقترامى لك فيه تخايل المجد التي تنمى الى الاصل السامي حتى لتعرف فيه صفات ابيه
وسمت جده وعلامات اهله السابقين . . . ولقد اعطاء القدر صورة فذة عالية رائعة مكنته
ان يقابلها يوم التفاخر بالاصل الرفيع :

سليل علا شفت تخايل مجده ودلت كما دل الفرند على النصل
وتعرف فيه من ابيه شمائله ومن جده والسابقين من الاهل
حوى الدهر من علياه اشرف نسخة فقابلها يوم المفاخر بالاصل (٣)

بل ان بني ايوب كتبوا نسخة اصلهم بروائعها وكمالها ، واتى المؤيد فكان
ذروة روائعها :

رقت بنو ايوب نسخة اصلها واتى فكان تمامها وكمالها (٤)

ومن خلال مدح ابنه الملك الافضل تبرز هذه اللفتة البارعة ، فالمعالي والاجساد
والقيادة ميراث في اولاد ايوب كميراث النبوة في اولاد يعقوب ، فيا ابن المؤيد كن
كيف شئت ، وكما شئت ، ولا تقلق .. فبنو ايوب في حسي الله عز وجل قبلنا وبعداً :
والمعالي في آل ايوب ارث كالتبوات في بني يعقوب

(١) ديوان ابن نباته ص ٢٢ - ٢٣

(٢) ديوان ابن نباته ص ٢٠

(٣) ديوان ابن نباته ص ٣٧٧

(٤) الديوان ص ٣٧٩

ابق ما شئت كيف شئت ودوموا في حمى الله يا بني ايوب (١)
ونرى ان ابن نباتة يصل بمدوحه ابى الفداء الى النسب العربي حين يدحه مبينا انه
منصبر في بوتقة العروبة :

كم ليلة قال لي فيما ندى يده يا شعر العرب امدح اكرم العرب (٢)
واما صفى الدين الخلي فيذكر هذا الاصل الكرم منذ لقائه الاول بالملك المؤيد ،
فهو من بني ايوب الذين قرنوا الشجاعة بالكرم وفاقوا الناس بالمجد والفعال المنزلة ومبروا
الملك بدماء اعدائهم :

من آل ايوب الذين لهم حماسة بالسماح مقترنة
ذوي بيوت في المجد سالمة كل افاعيلهن متزنة
م اشترى الملك غالبا خطرا وصبروا انفس العدى ثمة (٣)

ومن خلال مدح الملك الافضل تبرز الصورة واضحة اكثر ، فالطبيعة بكل
صادحاتها وزهورها ونساقها ورقرات مياهها كأنها تنشر فضل نجل الملك المؤيد ...
وذلك الشهم الكرم العظيم هو من نسل ذلك الشهم الكرم العظيم انه المؤمن الموحد ،
وهو السيد ابن السيد ابن السادة المتواصلة سيادتهم :

كأما تنشر فضل الملك ال افضل ، نجل الملك المؤيد
أروع محسود العلا امجد من نسل محسود العلا امجد
المؤمن الموحد ابن المؤمن ال موحد ، ابن المؤمن الموحد
السيد ابن السيد ابن السيد ابن السيد ابن السيد (٤)

وفي قصيدة اخرى بين ان الملك الافضل اسد يحمي عريته ، واذا استضافه أحد
تزل في امن ودعة فهو سليل الملوك الشجعان المدافعين الذين فدا بهم وادي حماة بتطاولون
هلى المساكين ويسمو فخارا على نجم النسر الطالع :

(١) الديوان ص ٦٤

(٢) الديوان ص ٦٣

(٣) ديوان الخلي ص ٢١٢ في الديوان (غالباً) وهي لا تتناسب مع السياق .

(٤) ديوان ٢٢٤

ملك هو الليث يجمي حماه
إذا ما أتاه تزيل حماه
سليل الملوكة الكفاة الحماه
ملوك بهم ظل وأذي حماه
يطول فخار أعلى الأعزل ويسمو على النسرة (١)

٥- التأييد من الله والتقديس :

أكثر الشعراء ابن نباته من إيراد جوانب متصل بهذه الصفة، فإله سبحانه وتعالى قد أودع في أبي الغداء سرّاً مستوراً، ومحباً لا يمكن لأحد الوصول إلى كنهه وجوهره :
الله فيه سريرة مكنونة
فصفاتها الأعيان دون صفاتها (٢)
ويتوجه إلى حاسدي الملك المؤيد وشائيه طالباً اليتم، إن يفتنوا إلى سر الله المكنون فيه ويقدموا له الطاعة والولاء، لأنه عز وجل قد قدر لهم أن يفتنوا عن الحق، وله أن يسود الناس جميعاً :

فاضرع معشر حاسديه لو انهم
الله قدر في العزائم انهم
فطنوا لسر الله فيه واذعنوا
يتحارزون وانته يستلطن (٣)

وهو بهمه وسماحته قد أثرى الفقراء وسماهم، فقلوا نواهي للتقى والورع لسوءه بالاله الواهب العاطي والقادر المصريف :

أغنى العمة قلولا ناهيات تمنى استغفر الله... سموه بعبود (٤) ووصل الأمر بابن نباته إلى أن يصدق بندا (الله أكبر) بهما قدف كلمات الحق في رحاب أبي الغداء حين خيل إليه انه ينطق في حضرة روح القدس جبريل عليه السلام :

الله أكبر ضاع الحق مادحكم
كان ناطق في حضرة القدس (٥)

- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| (١) ديوان الحلي ص ٢٣٥ | (١) ديوان ابن نباته ص ٦٧ |
| (٢) ديوان ابن نباته ص ٦٧ | (٢) ديوان ابن نباته ص ٦٧ |
| (٣) ديوان ابن نباته ص ٦٧ | (٣) ديوان ابن نباته ص ٤٨٧ |
| (٤) ديوان ابن نباته ص ٦٧ | (٤) الديوان ص ١٢٧ |
| (٥) ديوان ابن نباته ص ٦٧ | (٥) الديوان ص ٢٦٤ |

وفي مكان آخر يقول ان الله سبحانه وتعالى يساعده على مكافحة الشوق والهموى .
وهو في الوقت نفسه قد اقام الملك المؤيد عماد الدين الاسلامي في هذا الوجود :

يقوم بنصري في الصباية عون من اقام ابن الهوب عماداً لدينه (١)

ويقدم ابن نباتة بعد ذلك كله فكرة هامة وناحية تستلقت الانتباه ، وهي ان ابا الفداء كان ابعد الناس عن الطائفية والعنصرية ، ويحكم الرعية بالسوية لافرق بين ابيض واسود ، ولاشيعي وسني لانه ربط القلوب كلها بالمودة والحب :

شيدت باساعيل اركان العلا فاليه يلتجىء الرجاء ويركن

ودعا ندى ابن علي كل مودة حتى استوى الشيعي والمستن (٢)

واما صفي الدين فلم يكثر الحديث في هذه السمة ، وانما اكتفى بالقول : ان الله هو الذي ايد الملك ابا الفداء وامده بالقوة والسلطان فساد الناس ونال مبتغاه :

الت المؤيد من الهك بالذي طلت الانام وثلت السولا (٣)

وفي مكان آخر يؤكد بان الله سبحانه هو الذي اقامه صورة للمعالي وهياها للخيرات . وقدمه خيرا وحسنا وابعده عنه ما يعيبه وينقصه ، فهو تربية ملوك . . .

سلطان عصر اله العرش بوأه من المعالي والخيرات هياها

براه زيننا وما شأن برأه ربيت ملك كان الله انشاء

مسكا وقدر انشاء الورى طينا (٤)

و - دوره في انعاش الشعر والحركة الأدبية واشعال القرىحة :

وهذه واضحة في أكثر جوانب ديوان ابن نباتة والخلي معاً ، فهذا الملك المؤيد قد اهاد فتح سوق الشعر التي اخلقت منذ زمن بعيد فجاه ابن نباتة ببضاعته ليعرضها أمام

ملك الشعراء :

ملك اعاد الشعر سوقاً بدهره فجئت الى أبوابه متبضعاً (٥)

(١) ديوان ابن نباتة ص ٤٨٥

(٢) الديوان ص ٤٨٧

(٣) ديوان صفي الدين ص ٥٨١

(٤) ديوان صفي الدين ص ٣٦٢

(٥) ديوان ابن نباتة ص ٢٩٤

(١) ديوان ابن نباتة ص ٤٨٥

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٤٨٧

(٣) ديوان ابن نباتة ص ٥٨١

(٤) ديوان ابن نباتة ص ٣٦٢

(٥) ديوان ابن نباتة ص ٢٩٤

ويؤكد على ان ابا القداء قد أنشأ للشعر اسباباً لكي يقال بعد ما انعدمت تلك
البواعث والدوافع والعدم الشعر معها .

أنشأت للشعر أسباباً يقال بها وهل تنظم اشعار بلا سبب (١)

وقريحة ابن فبقة التي كانت حاجزة متعبة غدت معطاء شاعرة ، فأبو القداء روى
رباه وأباحه بحر الكرم فنظم جواهره ، فلا عجب إذا سلا بلده ، فامامه ديار ابنة العاصي
حامرة بالسعادة وببذا قهرت حماه كل اعدائه ، فأضحيت حماه لديه ... القاهرة :

لولاك ما أمت قريحتي الكليلا شاعرة

انت الذي روت غمامه رباي العاطرة

وابجنتي بحر الندى حتى نظمت جواهره

لا غرو ان سليت عن بلدي حشاي الذاكرة

فلقد وجدت ديار ملكك بالسعادة عامرة

قهرت حماة لي العدى فحماة عندي القاهرة (٢)

نعم ان ابا القداء هو الذي دفع ابن نباتة لتنتقيح الشعر وتحسينه لا كثيره من
الملوك الاعاجم الذين ازروا بالشعر والشعراء ، فلولا المؤيد لما كانت قصيدته العصماء
كالتربة التي جادها وابل من المطر ، لقد جاءت قصيدة فريدة لو حاول ابو تمام ان يقول
مثلا لعجز وتلكاً ، وتم من اخذ هذه القصيدة طواها وكفها ، واكثره الشوق كادت ان
تتسلل ... اذا القاها الراوي وقعت دار في فم الصديق وصحراً في فم العدو ، نعم
لقد جاءتنا نعملك وعطايك وتوجهاتك لتجمع فنونها وتحمل محاسنها بأكثر مما تبقي فاذا
هي الكمال بعينه :

والت الذي اسعفتني قصنتها ولولا الحيا لم يصبح التراب ميتلا

فلو رامها الطائي من قبل لم يقل لمان علينا ان نقول ونفعلنا

وكم مثلها اهديتها طي مدرج تكاد لفرط الشوق ان تتسللا

يقوه بها الراوي فيملا لفظها فم الخل دار أو فم الضد جندلا

جمعت بنعمي راحتيك فنونها كما جمع السلك الجمان المفصلا

(١) ديوان ابن فبقة ص ٦٣

(٢) ديوان ابن فبقة ص ٦٨

(٣) ديوان ابن فبقة ص ٦٨

(١) ديوان ابن فبقة ص ٦٣

(٢) ديوان ابن فبقة ص ٦٨

ومثلك من حلت أياديها حسنها فزاد وثنى حظها فتكملاً (١)
 وكم كان أبو الفداء يقترح على شعرائه معارضة الشعراء المتقدمين ليثير قرائحهم
 ففي ديوان ابن نباتة أن الملك المؤيد اقترح على شاعره الشباني معارضة قصيدة الأسعد
 بن يماني (٢) فقال معارضاً :

أفدى لمر	عقلي لمر	ثم غدر	لما قدر
فلا وزر	ولا مضر	يا من شهر	سيف الحور
على البشر	فما فتر	حتى استهر	وهج الفكر (٣)

ولهذا لا نوجب إذا صرح ابن نباتة أنه تعلم أنواع الكلام في حضرة أبي الفداء ومن
 عطاياه فعدا أحسن الناس شعراً وأعلام نتاجاً ، حتى أنه إذا سئل من رب المكارم لقال :
 أبو الفداء ، ومن رب الشعر لقال : ابن نباتة :

تعلمت أنواع الكلام برفده فأصبحت أعلى الناس شعراً وأحسنا
 إذا قيل من رب المكارم في الوري أقل هو ، أو رب القريض أقل : أنا (٤)

وأما شأن صفي الدين الحلبي فيختلف عن شأن ابن نباتة إذ أن الملك أبا الفداء
 قد جعل منه ميداناً للمعارضات والاقتراحات وقروسية الشعر وكان الساعت على قوله
 فنونا عجيبة فبند اللقاء الأول اقترح عليه مدحه بقصيدة على وزن البحر المنسرح
 وروى الذنون والهاء الساكنة فقال صفي الدين مستجيباً للرغبة :

لا راجع الطرف باللقا وسنه ان ذلق غمضاً من بعدكم وسنه
 لم يقض من وصلكم لبانتة وان قضى في هواكم زمنه (٥)

وكم كان الملك العالم الأدب يتعجب من مقدرة شعرائه بهشتي الطرق ، وكانوا كثرة .

(١) الديوان ص ٥١٠

(٢) الأسعد بن يماني : وزير أدب كان ناظر الدواوين في الديار المصرية ولد بصر

عام ٥٤٤ هـ ١١٤٩ م وتوفي بحلب عام ٦٠٦ هـ ١٢٠٩ م .

(٣) ديوان ابن نباتة ص ١٩٤

(٤) الديوان ص ٤٨٩

(٥) ديوان صفي الدين الحلبي ص ٢١٠

ومن ذلك أنه نظم بيتاً من الشعر على وزن مستحدث هو بحر السلسلة (١) بقافية مقيدة. وقدمه لكثير من الشعراء لينسجوا على منواله ولكنهم تعثروا ووقفوا ، وجاء صفى الدين الحلبي فنظم بهن يديه ارجحاً أبياتاً على هذا الوزن وتلك القافية وبينهما مسكاة الملك وعلمه وأدبه الى أن قال :

يا من جهل العالم الفصيح بليدا بالبحث كما صير الفلاسف جهال
لا تعجب ان أخطأوا لديك بوزن في النظم فلشعر كالمعارك أبطال
لو لم يكن الشعر للمحاول صعباً ما أصبح من دونه البيوت باقلاً (٢)
وها هو ذا ثانية يقترح على شاعره صفى الدين وزن البحر الوافر بقافية مقيدة
وتوشحه لزوم ما لا يلزم فينظم الحلبي مليحاً رغبة مليكة بقدره فائقة :

بروحي جوذر في القلب كانس تراه تافراً في زي آنس
واحوى احور الاحداق الى تكاد حدوده بالوهم تدمي
كأن الحسن لما منه بما وآثر ان ذاك الروض يحمي
غدا للورد في خديه غارس وظل له بسيف الحظ حارس (٣)

وها هو ذا ثالثة يقترح وزناً ملفتاً من أوزان عدة (٤) ويقترحه على صفى الدين الحلبي امتحاناً له فيقول مستجيباً لأبي القداء ورغبته :

(١) بحر السلسلة : هو بحر استحدث في تلك العصور وتفعيلاته هي :

فعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن فعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

(٢) ديوان الحلبي ص ٢١٨ .

(٣) ديوان الحلبي ص ٢١٥ .

(٤) هذا الوزن ملفق والتفعيلات هي :

فعلن فاعلن فاعلن فاعلن فعولن فاعلن . فيكون المأثور قد بلغه أما من :

أ - المحدث والمتقارب بإضافة سبب تخفيف على الجزء الأخير .

ب - المحدث والمتقارب والطويل .

ج - المحدث والطويل .

بي ظبي حمى ورد خده صارم اللحظ
قاس عرني منه رقة الخد واللفظ
ذو فرع بمحض اعتناق اردافه محظي
مالي لم أذل حظه كما قد حكى حظي
بديع المعاني من الاقمار
أحسن
الينا اسا لحظة واللفظ
أحسن (١)

ولم يقف عند هذا الحد بل تمتد اقترح عليه كذلك الخرجة الترجلية كما يسميها
المغاربة والمصريون فقال :

كم خود عدت وهي في غرامي به مثلي
تلحاني لعتبي له وتزري على عقلي
قالت لا تسائل رب الجمال عن الفعل
لو ان الليالي تجود لي منه بالوصل
كان نترك عتابه
وتعمل غير ذاك الفن
وذلك الذي بيننا
في الوسط يدفن (٢)

ويستضيف مليكنا المؤيد اخوة من المغاربة وفي احدي الاماسي يقنيه هؤلاء
أبياتاً ندية تروقه ، فيلتمت الى الخلي مقترحاً عليه تميميها ، ويلي الشاعر القادر
فيخمسها بدنها في المجلس وهذا مطلعها :

شكوت اليك الجوى
فلم تسمعي بالذوى (٣)
لمد طال عمر النوى
جعلت اليك الهوى

شفيعاً فلم تشفعي (٤)

وتؤكد لنا كتب الادب والتراجم على أن أبا القداء كان هجياً بالموشحات هجياً
لها (٥) وله فيها هو نفسه نماذج عديدة (٦) ولهذا صرّب الخلي على وتر رفاف ، فقال

(١) ديوان الخلي ص ٤٥٧ - ٤٥٨

(٢) ديوان الخلي ص ٤٥٩

(٣) اعلمها (بالدوا) وهي قشرة البطيخ أو العنبة وما شكلها .

(٤) ديوان الخلي ص ٤٤٨ .

(٥) لابن نباتة اكثر من موشح في مدح ابي القداء انظر الديوان ص ٥٩٢ -

٥٩٤ ولقد اعلمني الدكتور عمر موسى باشا أنه وقع على مخطوط لابن نباتة يتضمن خمسة
- عشر موشحاً اكثرها في مدح الملك المؤيد .

(٦) انظر كتب التراجم في ترجمة ابي القداء .

مادحا إياه في قالب موشح :

ملك معانيه	للورى حرم كوكب
الى معاليه	يذتهي الكرم
قد اغرق الناس	سيله العرم
سحاب جود على الورى هطلا	لا يرقه ميطيء النوال ولا . .
حماة أصبحت	للانام حمى خلب
حويت ملكا على	الملوك سما
بجرا غدا	بالعلوم ملتظما
ملك لرزق الانام قد كفلا	قصار في الناس جوده مثلا (١)

وأرى ما قدمت كافياً لبيان دور الملك المؤيد في اذكاء قريحة شعرائه وترويض بضاعتهم في سوق الادب وتشجيعه للحركة الادبية في عصره حتى أصبح أشهر الملوك الحاة لدولة الادب في تلك العصور .

:- الهمة والهيبة والعظمة والتواضع والعدل :-

ولقد آتت أن أشرك هذه الصفات بعضها مع بعض لأنها غالباً ما أتت مشتركة وهي واضحة عند ابن نباته أكثر من وضوحها عند الخلي، فها هو ذا ابن نباته يتحدث عن همة أبي الفداء التي جاوزت السهاكين ولم تترك للحاسد ونباحه أي أثر . . انه الشريف في تواضع ، والكرام في اعتذار ، وصاحب الهيبة مع الحياء فقد جمع التقيضين في سمو عجيب :

همة جازت السهاك فلم يعياً	مداها بالحاسد العواء
ورقي صاعدا فلم يبق للحنا	مدا الا تنفص الضهداء
شرف في تواضع ونوال	في اعتذار وهيبة في حياء (٢)

وهو الى هذا عادل ، بل أعدل الحاكين في كل شيء ما عدا أعداءه وأمواله فاما منه في ظلم مقيم :

(١) ديوان الخلي ص ٢١٤ .

(٢) ديوان ابن نبتة ص ٤ - ٥ .

أعدل المالكين حكماً فما يظلم إلا العداة والدينارا (١)

وهو يعرف حق المعرفة انه وحيد عصره وفريد دهره وان ليس بين الناس من يائنه في منزلته وعدله وهيئته وعلمه ، ولهذا راح يباري سؤدد اليوم بالقد :

عليك رأى ان لا مباري في الورى فظل يباري سؤدد اليوم بالقد (٢)

وان الفقراء والعاقين مشاركون لأبي القدام في امواله ، ولكنه في مجده واحد لا شريك له :

وشاركة العاقون في ذات ماله وليس في مجده من مشارك (٣)

ح - الحلم والعفو عند المقدرة والعفة :

ويستمر ابن نباتة في تعريفنا الى الصفات التي رآها في مليكه المحبوب ، فاذا هو الى جانب ما هو معنا حليم الى حد بعيد حتى ان سورة الغضب لا تعرف طريقها اليه ، وليس هذا فقط بل انه كاظم غيظ وعاف عن الناس ، يقضي عن اخطائهم ويحسد لهم الاعذار ، ويعطي النوال بلا سبب فلا يترك عند سؤى الحمد والشكر والثناء :

هذا ولحلم معنى في خلأقه لا تستطيل اليه سورة الغضب

يقضي عن السبب المردي بصاحبه عقوا ، ويعطي العطا جما بلا سبب (٤)

واما طيبانعه وسجاياه فهي كلها طاهرة نقيه لا يعرف الملل اليها سبيلا ولا يتطرق اليها اللبس والحمازة بل طيبانعه طيبانعه طيبانعه ، وشانها في

وطاهر الخيم لا تشنى خلأقه على الملل ولا تطوى على اللبس (٥)

ولا يلبث ابن نباتة ان يفدق في بيت واحد اكثر صفات أبي القدام حيث يقول :

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٩٠ .

(٢) ديوان ابن نباتة ص ١٢٩ .

(٣) الديوان ص ٣٦٠ .

(٤) الديوان ص ٢٢ .

(٥) الديوان ص ٢٦٤ .

(٦) ديوان ابن نباتة ص ٢٦٤ .

النصر والدنيا الخصيبة والهدى ان صال أو بذل الصنائع أو نطق (١)

ويقول في مكان آخر :

ملك الجود والشنا والمعالي والسجيات كلها والاصاله (٢)

وكذلك فعل صفي الدين الحلبي في مثل قوله :

الملك الجامع الفضائل والبنا ذل في الصالحات ما خزفه (٣)

ط - حماه .. حامي الملك المؤيد :

ولابد لي من أوقف وقفة متأنية امام ما تأثر به أشعار ابن نباته والحلي من وصف لعاصمة ملك أبي الفداء : حماه ، ابنة العاصي ومدينة الثواعير . فهذا ابن نباته يرى انها تقف بجلاها وسيادتها في ذروة الطريق ، القاطب المسمى ملكة المكرمة ، وطالب الجود والرغد يسعى لحماه ، وفي كل حال يجد ما يروقه ويعجبه . فقله ما اشهى واحلى احوالها :

أما حماة فنعم دار سيادة نصبت بمدرجة الطريق جلالها

يسعى لمكة وافقد ولأرضها ولنعم أرضاً وافقد يسعى لها

لهاتيك قبلة من روم زشادها وحماة قبلة من روم نوالها

في كل حال حولها لي معجب لله لما اشهى اذاً احوالها (٤)

وفي مكان آخر يرى ان سكان حماة يعيشون اياماً كلها صفاء ، ولحظات كلها ندوة ورقية وجمال :

أما حماة فعيش ساكنها صفو ، وكل زمانه سحر (٥)

-
- (١) الديوان ص ٣٣٨
 - (٢) الديوان ص ٤٠٩
 - (٣) ديوان الحلي ص ٢١١
 - (٤) ديوان ابن نباتة ص ٣٧٩
 - (٥) ديوان ابن نباتة ص ٢٤٧

ولقد وصف شاعراً حماً وطبيعتها وعاصمها ونواعيرها ومحاسنها التي لا تنفد في
ارجوزته التي مدح بها الملك الافضل نجل الملك المؤيد في حياة أبيه :

وحيثما وادي حياة الربح	حيث زهي العيش به والعشب
ارض السناء والهناء والمرح	والامن واليمن ورايات الفرح
ذات النواعير سقاة القرب	وأمهات عصفه والابّ
تعلت نوح الحمام اهتف	أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلمها من الخنين قلب	لاسيما والماء فيها صب
له ذاك السفع والوادي القرد	والماء مهسول الرضاب مطرد
يصبو اليها الرائي وهو السامع	ويحمد العاصي فكيف الطامع
إذا نظرت للبا والنهر	فارو عن الربيع أو عن جعفر
عجاسن تلهي العيون والفكر	ربيع روضات وشعور صفر
أمام كل منزل يستأنف	وبين كل قرية ميدان
أما رأيت الورق في الاوراق ..	جاذبة القلوب بالأطواق
فيبادر اللذة يا فلان	واغم متى أمكنك الزمان (١)

وأما النواعير فقد استحوذت على اعجاب ابن نباتة واغدى عليها من رؤاه
الكثير اذ كان يتخذ من كل لقطه مجالا لنكتة بدعية أو بيانية، ويجوي ديوانه ما ينوف
على عشر مقطوعات فيها، وما هو ذا يرى الناعورة بشراً سويّاً فهي تبعث عن قلبها
الضائع وتدور عليه، واضلعتها واضحة معدودة لكثرة ضعفها وسقامها، ودموعها تهمل
فتجري على جسدها لكثرتها وغزارتها :

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها	وأضلعتها كادت تعد من السقم
أدور على قلبي لأني فقدته	وأمدموعي فهي تجري على جسدي (٢)

وفي مكان آخر يعود بالناعورة الى أصلها البعيد حين كانت شجرة مشمرة في
روضة يأنه تقف سامقة متفاخرة تعانق الشمس والأنسام، ولا ترى في الحياة حزناً
ولابلاء، ولكن الحمام الولى تكاثرت على اغصانها تبكي صباح مساء فمرى اليها فيض من
العموم والامسى . واتي الانسان القاسي فاجتثها من جذورها واقامها ناعورة على العاصي
بعيدة عن تربتها فراحت تعيش ماضياً وتستعيد اساسها وصور الحمام الباكية . . . وراحت

(١) الديوان ص ٤٨٥ - ٥٨٦ .

(٢) حاة - مدينة النواعير (قدرى الكيلاني) ومع النواعير (الفداء)

تتدفق الدموع الغزير وتواحها يتصاعد في الاجواء مشابها نوح الوراقاء الحزينة :

ناعورة ذشأت على عهد الاسى ولهى فما كنتك ذات توجع
كانت قضيباً قبل ذلك يانعاً في ايكة نبتت بأعلى موضع
ناح الحمام بها وأهكاني الاسى فتعلت نوح الحمامة ادمعي (١)

واما صفى الدين الحلي فإنه - والحق يقال - قد أفاض واحسن وابدع في وصف حياه وآفاقها واجوائها ورياضها رغم قصر المدة التي قضاها فيها بالقياس الى سنوات ابن نياته بين جنباها ، ويبدو لي ان لنفسية الحلي التي كانت تتجاوب مع مشاهد الطبيعة الفاتنة دورا كبيرا في ذلك . فما هو ذا يطيع نداء الهوى والانطلاق رغما على من عصى . وانكر حين نزل على ناعورة العاصي ثم ارسل الى اخوانه بالحنة من اهل شعلان وبقراص يعلمهم عن دنياه الجديدة وعيشه الهانيء السعيد ربانه شغل عنهم برباع اهل ابنة العاصي وما فيها من جمال وقتنة :

اطعت داعي الهوى رغما على العاصي لما نزلنا على ناعورة العاصي
وبات لي بمغاني اهلسها . وبها شعلان عن اهل شعلان وبقراص
والريح تجري رخاء فوق جدولها... والطير ما بين بناء وغواص
وقد تلاقت فروع الدوح واشتبكت كأنما الطير منها فوق أقباص (٢)

وهاهو ذا ثانية يستطيع تلك الايام التي قضاها قرب ابني القداء يسعد بالوصول وينعم باللقاء وكأنهم يعانقون اجواز الفضاء ، فياحبذا نهر العاصي ، وياحبذا طيب اهله وامواهه الرقاقة وصفحة سائه واغصانه وطيوزه ... :

لله (اياما) مضت في قربه والدر منه بالوصول مسعدى
ونحن في وادي حياه في حى به حللنا فوق فزق الفرقد
فحبذا العاصي وطيب شعبه ومائه المسلسل المجدد
والفلك فوق لجة ، كأنها عقارب تدب فوق مهرد
وناجم الازهار من منظم على شواطيه ، ومن منضد
من زهر مفتوح او غصن مرشح ، او طائر مفرد
والورق من فوق الغصون قد حكمت يشدوها المطرب صوت معهد (٣)

(١) الديوان ص ٣٤٥ ومع التواخير (الغداء عدد ١٧١١)

(٢) ديوان الحلي ص ٢٩٠ ومع التواخير (الغداء رقم ١٧٤١)

(٣) صوابها (لله أيام)

(٣) ديوان الحلي ص ٢٢٣

وزراه في ثائفة ينساب مع روحه الصافية فيلتقط من وادي حماة صورا فنية
 اخاذة استرة تعجب وتروق وتأخذ بمجامع القلوب ، وتترك الابيات نفسها تحكي ما بها
 دون ان اقدم لها بشيء :

وصيب الودق وهتائه
 دهشته الغمرا ، وميدانه
 تعطرت بالمسك اردائه
 وتقنص الآساذ غزلائه
 اذا انشئ بحسه باثه
 قدود اهليه واعصانه
 وقد طعت بالماء غدوانه
 قد كالت بالدر تيجانه
 حف بها البدر وكيوانه
 بالملك الناصر اركاناه (١)

سقى حى وادي حماة الحيا
 وحبذا العاصي ، ويأخذنا
 واد اذا مر نسيم بهه
 تستامر الابطال آراسه
 كم فيه من ظبي هضم الحشا
 تشابت عند مرور الصبا
 كم لية قضيت في مرجه
 والافق حال بنجوم الدجى
 كأنما الجوزاء فيه وقد
 بيت بني ايوب اذ شيدت

ملحوظات وتعليقات :

(٢) قبل أن أعطي الشخصية المؤيدية مجتمعة كما وردت عند ابن نباتة والحلي لابد لي
 من ايراد بعض الملحوظات والتعليقات التي تبدو لي من الأهمية وكان

١- لم يرد في شعر ابن نباتة والحلي أية إشارة إلى مجلس شعر أبي الفداء وهذا دليل
 على أن الرجل كان بعيداً عن هذه المجالس ، ويؤدداً اليقين حين نرى شاعراً ابن نباتة
 يصف مجلس الشعر التي مرت به مع أصدقاء خلص له ولم يرد ذكر أبي الفداء كمن شارك لهم
 اطلاقاً ، فمنها قوله :

فيادرا وانصبا لذة الخبالا
 تجلحظ ولا مع اندى السلطان اتلالا
 منع فضل فطنته لا يعرف بالمالا (٣)

يا صاحبي أرانا الدهر شوالاً
 لا تحذروا مع عفوة الله مؤبقة
 حاد المؤيد حتى يكنت احسبه

٢- قصائد الحلي كانت تهجم على الموضوع متأثرة أحياناً ، وأحياناً أخرى تمهد
 له بالوصف وأما قصائد ابن نباتة فقالبها الأعظم كان يبدأ بالفزل المتهكم أو الموث أو
 وصف الشعر وكان يحسن التخلص إلى كرم أبي الفداء غالباً أو شجاعت أو علمه ومن ثم

(١) ديوان الحلي ص ٢٢٠ - ٢٢١

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥٥٨

(٣) ديوان ابن نباتة ص ٥٥٨

يستغرق في تبيان مناقبه الاخرى وهذه أمثلة تغني عن البقية . . . يقول ابن نباتة :

كم رمت كتم الجوى فبته فتم به
جود المؤيد للعاقين بالذهب (١)

وكقوله :
لند اعاني في قلايد ذرا . . .

ليبت شعري والسهرور إبتزاز
وفوال الملك المؤيد يسرى (٢)

وكقوله :
كيف الخلاص لمطوى علي شجن

فنزولوا حظها في المسلمين كما
فنزوسيوف عماد الدين في الكفرة (٣)

وكقوله :
مهما طلونا فلا نسلو ليا لينا
وهي ابن أيوب حال الإلتذ الشاكي (٤)

فهل عمله هذا نوع من التقليد للسابقين من الشعراء . . . أو إن هذا الشيء يوافق

رغبات الملك المؤيد نفسه أو رغبات الشاعر ذاته . . . ؟؟ وانني للأول أميل . . .

لقد أبدع الحلي في الوصف وأعاد في المدح بعض معاني ابن نباتة وأفكاره
وصوره ، بينما كان مدح ابن نباتة أقرب إلى الصدق ويحمل بين نباتة وبين العاطفة مع
نصيب من الأصالة ، وهذا أرى أنها تم بعضها بعضاً وأعطيا الصورة متكاملة لا يتقصبا
ظل ولا تفتقر إلى لون . . .

٤ - ان ماورد في شعر ابن نباتة بخاصة حول انصهار أصل ابي الفداء في الأصل
العربي وحول سعة افقه الديني وبعده عن التعصب الطائفي (حق استوى الشيعي والمسنن)
بهداهن شخصيته العلمية التاريخية التي تركز على الحياء كأول منطلق . . .

٥ - لقد كانت النكتة المبدئية والتلاعب اللفظي يظللان انتاج الحلي وابن نباتة
معاً حتى ليندر ان نجد بيتاً خلوا من جناس أو طباق أو تورية أو مقابلة أو لف ونشر

- (١) الديوان ص ٢٢
- (٢) الديوان ص ١٨٤
- (٣) الديوان ص ١٩١
- (٤) الديوان ص ٣٦١

او تذييل او التفات او اكتفاء او مراعاة نظير او ردعجز على صدوروما لها ... ولولا رسيس العاطفة والتمكن من فن القريض لما استسيخ بيت واحد ، ولاعجب فالشعران . كلاهما علمان بارزان طوال فترة من الزمن اربت على خمسائة عام . ونستطيع ماعرضنا من شعرهما ان نتعرف الى فن المديح في هذه العصور بشكل خاص ونوعية الشعر بشكل عام .

والآن ان لنا ان نري مناقب ابي الفداء مجتمعة كما بدت في شاعريتنا ابن نباتة والحلي . . ان الرجل كريم وعالم وشجاع في الدرجة الاولى ، وهذه اكثر الصفات وروداً وتأكيذاً فما من قصيدة خلت منها سواء عند ابن الحلي او ابن نباتة ، ويلحق بها الصلاح والعدل والهمة والهيبة والعظمة والتواضع والحلم والعفو وسمو الاصل والتأييد من الله والتقدير والصدق والعفة والطموح وحامي حمى الاسلام وهو من انعش الحركة الادبية بعد سقوطها ومن اشعل قرائح الشعراء بعد جفاف وموت .

ولو رجعنا الى صورة الممدوح في الادب العربي لوجدنا ان شعراءنا منذ العصر الجاهلي مدحوا اول ممدوحوا بالكرم والجود وارتفاع القدر والشجاعة والحزم والحدس وصلة الرحم وفضل النفعال ومجد ذلك في شعر النابغة والاعشى وحسان والحطيئة وغيرهم (١) . وفي العصر الاموي اكد الشعراء على هذه الصفات وزادوا عليها شدة الهمة والقوة في الخلافة والنسب العالي الرفيع الذي يسمو على العالمين جميعا واصبحت غاية الشعراء هي التكسب كما نرى عند الاخطل والفرزدق وجريز وغيرهم (٢) .

واذا ما انتقلنا الى العصر العباسي رأينا الشعراء يمدحون ويتكسبون كذلك بشعرهم يرجون النوال والعطاء ولكنهم زادوا في معاني هذا المديح وصوره ما يتلاءم مع الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة ومواسم الخلافة والملك واعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلم وأضقوا على المعاني القديمة صوراً براقة تصف هؤلاء الخلفاء بما يتناسب الملك الجديد (٣) .

فالممدوح يصلح الفاسد ويمنع الفاحشة وينشر العطور والطيب بين يديه ويأمر بالعدل والاحسان ويتعلق بالدين ، وهو عادل أمين ، ييسر الامن في البلاد ، تقي ، فصيح العبارة عندما يخضب ، يكره الفحش ، حليم .

شهم ، وقور ، يضحك حين يعطي ، ويدعي له بطول البقاء لان بقاءه بقاء للاسلام . واهله فهو الذي ابطل عمود الشرك واستحق شكر الدين .. وهو يتنزع التحاسد والتباغض

(١) المصدر نفسه ص ٢١

(٢) المصدر نفسه ص ٢١

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥

(١) المديح (سامي الدهان) ص ١٧ - ٢١

(٢) المصدر نفسه من ٢١ - ٢٥

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥

من قلوب الرعية ويجمع شتات أرائهم ويجدد عهد أبائهم واجداده وبخاصة حين يلعب وجهه في المعارك فتنتجلي السحب وينقشع الجو ويكبر المسلمون وينهزم الكفار (١) . ويجد ذلك واضحاً في شعر بشار وابن نواس ومسلم بن الوليد وابن العنابي وابن قمام والبحري وغيرهم . على أن صورة المدوح بمنافيا الرقيقة قد تكاملت وبلغت مداها عند الشاعر ابن الطيب المتنبي في ممدوحه بعامه وسيف الدولة الحمداني بخاصة ، إذا أضحي العظيم أو المثل الأعلى عنده هو : الشجاع .. الكريم .. صاحب العقل الراجح .. صاحب العزيمية .. والنبوغ المبكر .. والوفاء والصدق والهيبه والطموح والنعمة والفصاحة ولطف المعثر والدفاع عن الاسلام والمسلمين (٢) .

فهل بين هذه الصور جميعاً وبين صورة أبي الفداء التي ظهرت لنا من ثنايا شعر ابن نباته وصفي الدين الحلبي فروق واضحة .. ؟؟ إن الذي يبدو لي أن الصورة هي في أكثر جزئياتها ودقائقها ، على أن صفتين برزتاً واضحتين وبخاصة أكثر من غيرها ... وهما صفة أبي الفداء الملك العالم أولاً ، ودوره في انعاش الحركة الأدبية بعد سقوطها وأشعال قرائح الشعراء بعد جناف وموت ثانياً ... ويقيني أنها أبرز صفات أبي الفداء التي تميز بها من غيره من الملوك سواء أكان في عصره أم في غيره من العصور .

أهم المراجع والمصادر

- ١ - ديوان ابن نباتة المصري - طبعة ثانية - دار احياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- ٢ - ديوان صفي الدين الحلبي - طبعة اولى - دار صادر ودار بيروت - ١٩٦٢ م .
- ٣ - دائرة المعارف الاسلامية - طبعة ثانية - دار المشرق - بيروت - ١٩٦٩ م .
- ٤ - المنجد في الاعلام - طبعة ثانية - دار المشرق - بيروت - ١٩٦٩ م .
- ٥ - الاعلام الزركلي .
- ٦ - القاموس المحيط للفيروز بادبي .
- ٧ - اساس البلاغة للزخشي .
- ٨ - الصباح المنير للقيومي .
- ٩ - الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة - لابن حجر - طبعة اولى - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية في الهند - سنة ١٣٤٨ / ١٩٠٥ .

(١) المديح (سامي الدهان) ص ٢٥ - ٣٢

(٢) المحصول الفكري للمتنبي (سهيل عثمان - منير كنعان) ص ١٥٢ - ١٥٨

- ١٠- ديوان ابن زيدون - طبعة أولى - تحقيق علي عبدالعظيم - مكتبة نهضة مصر ١٨٥٨ م.
- ١١- ديوان المتنبي - طبعة ثانية - شرح عبد الرحمن البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت بدون تاريخ .
- ١٢- قصص العرب - محمد احمد جواد المولى ورفاقه - طبعة أولى - مطبعة عيسى الباني الحلبي - مصر ١٩٣٩ م.
- ١٣- الأدب في العصر المملوكي - محمد زغلول سلام - طبعة أولى - دار المعارف - مصر ١٩٧١ م.
- ١٤- المحصول الفكري للمتنبي - سهيل عثمان ومنير كنعان - طبعة أولى - دار الارشاد - بيروت ١٩٦٩ م.
- ١٥- المديح - سامي الدعان - طبعة أولى - دار المعارف - مصر - بدون تاريخ.
- ١٦- تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان - دار - الهلال - مصر - ١٩٥٧ م.
- ١٧- صفي الدين الحلبي - محمود رزق سليم - طبعة أولى - دار المعارف - مصر - ١٩٦٠ م.
- ١٨- ابن نباتة - عمر موسى باشا - طبعة أولى - دار المعارف - مصر - ١٩٦٣ م.
- ١٩- في اصول النحو - سعيد الافغاني - طبعة ثانية - مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ م.
- ٢٠- تاريخ آداب العرب - مصطفى صادق الرافعي - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٥٣ م.
- ٢١- عصر الانحدار - محمد اسعد طلس - طبعة أولى - دار الاندلس - بيروت - ١٩٦٣ م.
- ٢٢- الفن ومذاهبه في الشعر العربي - شوقي ضيف - طبعة ثالثة - مكتبة الاندلس - بيروت ١٩٥٦ م.
- ٢٣- تاريخ الادب العربي - حنا الفاخوري - طبعة سادسة - المطبعة البوليسية بيروت بدون تاريخ .
- ٢٤- تاريخ الادب العربي - احمد حسن الزيات - طبعة خامسة - مطبعة الاعتماد - مصر ١٩٣٧ م.
- ٢٥- الادب العربي وتاريخه - محمود مصطفى - طبعة ثانية - مطبعة عيسى الباني الحلبي - مصر ١٩٣٧ م.
- ٢٦- ادباء العرب - بطرس البستاني - طبعة ثالثة - مكتبة صادر - بيروت - بدون تاريخ.
- ٢٧- ادب العرب - مارون عبود - طبعة أولى - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٠ م.
- ٢٨- الرؤوس - مارون عبود - طبعة ثانية - دار المكشوف - بيروت - ١٩٥٩ م.
- ٢٩- تاريخ حماد - احمد الصابوني - طبعة أولى - المطبعة الاملية - حماد - بدون تاريخ.
- ٣٠- تاريخ حماد - قدرى الكيلاني - مخطوط .
- ٣١- ابو الفداء - حياته وآثاره - وليد قنباز - دراسة جامعية مخطوطة ١٩٦٠ م.
- ٣٢- صحيفة الفداء الحموية .
- ٣٣- مقالات متفرقة في الصحف والمجلات .

